جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

أدبُ الكوارثِ الطبيعيّةِ في العصرِ المَملوكيِّ الأوّلِ (648 – 784هـ) دراسة موضوعيّة وفنيّة

إعداد
إسراء عبد الجبّار ذياب كلش

إشراف
د. رائد مصطفى عبد الرحيم

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في برنامج اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.
2013م

أدبُ الكوارثِ الطبيعيّةِ في العصرِ المَملوكيِّ الأوّلِ
(648 – 784هـ) دراسة موضوعيّة وفنيّة

إعداد

إسراء عبد الجبّار ذياب كلش

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2013/9/12م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة	التوقيع
1. د. رائد عبد الرحيم / مشرفاً ورئيساً	....
2. أ. د. مشهور الحبازي / ممتحناً خارجياً	....
3. د. عبد الخالق عيسى / ممتحناً داخلياً	....

الإهداء

إلى التي انتظرتْ بصَبرٍ

أمّي

إلى والدي الطيّب

إلى أخواتي و إخوتي

و زوجي العزيز

الشّكرُ والتقديرُ

أتقدّم بالشكرِ الجزيل والامتنان الكبير، لأستاذي الدكتور رائد مصطفى عبد الرحيم، لإشرافه على رسالتي بالمتابعة و الإرشاد والنصيحة وتقديم المعلومة، فلولاه ما خرجَت هذه الدراسة على صورتها المرجوّة.

وأتقدّم بشكري الجزيل لأستاذيّ الكريمين ، الأستاذ الدكتور مشهور الحبّازي،والدكتور عبد الخالق عيسى ، على تفضّلهما بمناقشة أطروحتي.

ولله الحمد والشكر كلّه مِن قبلُ وَمن بَعد .

الإقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

أدبُ الكوارثِ الطبيعيّةِ في العصرِ المَملوكيِّ الأوّلِ (648 – 784هـ)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يُقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis، unless otherwise referenced، is the researcher's own work، and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name:	اسم الطالبة:
Signature:	التوقيع:
Date:	التاريخ:

فهرس المحتويات

أدبُ الكوارثِ الطبيعيّةِ في العصرِ المَملوكيِّ الأوّلِ

(648 – 784هـ)

إعداد

إسراء عبد الجبّار ذياب كلش

إشراف

د. رائد مصطفى عبد الرحيم

المُلخّص

تناولتْ هذه الدّراسةُ موضوعَ أدب الكوارث الطبيعيّة في العصر المملوكي الأوّل (648 – 784هـ)، وقَد كانت الكوارث الطبيعيّة، وما تزال، عاملاً من عوامل القلق والإرباك اللذين تُصاب بهما الأمم على مرّ العصور، وقد كَثُرت الكوارث الطبيعيّة وتنوّعت في العصر المملوكيّ الأوّل: كالثلوج، والسيول، والصواعق والزلازل، والبراكين، والطواعين، وكان لها آثار متنوّعة على نواحي الحياة المختلفة: الاجتماعيّة، والسياسيّة، والاقتصاديّة، والثقافيّة، والأدبيّة.

وقد كانت كثرةُ الكوارث الطبيعيّة التي عَصفت بالدولة المملوكيّة في عهدها الأوّل، و تنوّعِ الفنون الأدبية التي عبّرت عنها، وعدم وجود دراسة شاملةٍ مستقلّةٍ، الأسبابَ الرئيسة في اختيار هذا الموضوع.

وقد اعتمدتْ الدراسة على المنهجِ الاستقرائيّ الوصفيّ التحليليّ و الجماليّ، واستعانتْ بالتاريخ وأحداثه في تحليل الشعر وربطِه بوقائع الكارثة ونتائجها، وأعانت على فهم بعض النصوص الأدبية.

وقد اشتملتْ الدراسةُ على الآتي:

الفصل الأوّل: تناولَ الآثار الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة للكوارث الطبيعيّة، من الناحيتين السلبيّة والإيجابيّة.

الفصل الثاني: وقفَ على الدراسة الموضوعيّة لأدب الكوارث الطبيعيّة.

الفصل الثالث:درس الخصائص الفنيّة لأدب الكوارث الطبيعيّة، من حيث بنية النّص الأدبي واللغة، والأساليب، والبديع، والصورة الفنيّة.

الخاتمة: أجملتْ أهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدراسة .

المقدّمة

الحمدُ لله ربّ العالمين، مالكِ المُلك، ورافع السماء بغير عَمَد، وباسط الأرض دونَ مَدَد، ومانِح الغيث، ومُربي الزرع، ومُرسِل الرزق، وكهفِ الطمأنينة، ربّ الكون الذي لا يُحمَدُ على مكروهٍ سواه، والصلاةُ والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، شفيعه يومَ الدين، الذي بِه يستجير العباد في المحن والكوارث، وفي الملمّات والمصائب، سيّدنا محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين. وبعد،

فشهد العصر المملوكي الأوّل كوارثَ طبيعيّةً كثيرةً، من ثلوجٍ ، وسيولٍ ، وصواعقَ ، وبراكين ، وزلازل ، و طواعينَ ، ومجاعات ناتجةٍ عن الجَدب و الجفاف، وتوقّف الأنهار عن الفيضان ، كان لها أثر كبير في الأدب مبثوث في كتب الأدب والتاريخ والتراجم والنثر التأليفيّ، وقد تحدّث هذا الأدب عن أسباب الكارثة، ونتائجها، مقدِّماً صُوراً مختلفة لها، وعلى الرغم من كثرته وتميّز موضوعاته وأساليبه الفنيّة ، فإنّه لا توجد دراسة علميّة شاملة مستقلّة تناولته من جوانبه المختلفة، وكانت هذه أسباب اختياري لهذا الموضوع، فجاء هذا البحث يهدف إلى:

1- التعرّف إلى الآثار الاجتماعيّة والاقتصاديّة والثقافيّة والسياسيّة السلبيّة والإيجابيّة التي خلّفَتها الكوارث الطبيعيّة، في العصر المملوكيّ الأوّل.

2- التعرّف إلى فنون القول المختلفة التي كانت صدىً لهذه الكوارث.

3- التعرّف إلى الموضوعات التي طرقها أدب الكوارث الطبيعيّة في العصر المملوكيّ الأوّل.

4- التعرّف إلى الخصائص الفنيّة التي تميّز به أدب الكوارث الطبيعيّة في هذا العصر.

وعلى الرغم من ذلك، فإنّه توجد بعضُ الدراسات السابقة التي يمكن الإفادة منها في هذا الموضوع، منها:

- رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين بن الوردي ت749هـ دراسة نقدية، لرائد مصطفى عبد الرحيم ، التي كَتَبها ابن الوردي إثر الطاعون الذي أصاب مدينة حلب سنة 749 هـ، فتناولتها الدراسة من جانبين موضوعيّ و فنيّ.

- صورة المجتمع في الشعر المملوكي، لهناء علي سبيناتي، وهي رسالة دكتوراة غير منشورة صادرة في جامعة دمشق 2006- 2007 ، إذ جاءت فيها على ذكر أثر الكوارث الطبيعيّة في المجتمع المملوكيّ من الناحية الاقتصاديّة وأثرها في الأدب.

- المدائح النبويّة حتّى نهاية العصر المملوكي، لمحمود سالم محمد ؛ إذ جاء فيه على ذكر أثر الكوارث الطبيعيّة في المديح النبويّ ؛ التي كانت ملجأً للناس لطلب الخلاص.

واتّبَعتُ في دراستي المنهجَ الاستقرائيّ الوصفيّ التحليليّ والجماليّ، فقد استقرأتُ المادّة الأدبيّة، وشرعتُ بدراستها وتحليلها و تصنيفها وبيان الجوانب الفنيّة فيها. واتكأت على التاريخ وأحداثه في فهم النصوص ودراستها.

وبُنيت هذه الدراسة على مقدّمة، وثلاثة فصول، وخاتمة. وتناول الفصل الأوّل الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة التي رافقت الكوارث الطبيعيّة.

أمّا الفصل الثاني، فقد فصّل في الفنون الشعريّة والنثريّة التي تناولت الكوارث الطبيعيّة، مظهراً أسبابها، وأماكن انتشارها، وشدّتها، ونتائجها المختلفة بشقّيها السلبيّ والإيجابيّ.

وتناول الفصل الثالث الخصائص الفنيّة لأدب الكوارث الطبيعيّة، وهي بنية النصّ الأدبيّ، واللغة، والأسلوب، والبديع، والصورَ الفنيّة.

وأجملتُ في الخاتمة، أهمّ النتائج التي توصّلتْ إليها هذه الدراسة.

الفصل الأول

الآثار الاجتماعيّة والاقتصاديّة السلبية والإيجابية

الفصل الأوّل

الآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية والإيجابية

الجانب السلبي الاجتماعي والاقتصادي

تعرّضت مصرُ وبلادُ الشام والحجازُ لكوارث طبيعية متعدّدة الأشكال في العصر المملوكيّ الأوّل، ونتجَ عن هذه الكوارث آثار تنوعت في شدّتها وأثرها في الناس.

ومن أبرز هذه الآثار:

1. الخوفُ والقلقُ من الكارثة

إنّ أول ردّة فعلٍ تصيبُ الناسَ عند تَعرّضهم لكارثة من أيّ نوع كانت، هي القلق من أثر هذه الكارثة و الخوف من ضررها حتى درجة الفزع أحياناً كثيرة .

وتتدرّج الحالة النفسية للناس، فقد تعبّر عن حالةِ قلق واضحة من إصابة بمرض أو انقطاع في الرزق لا سيّما عند الفلاحين؛ فممّا أقلق الناس آفة الفار التي غَزَت زروعَهم "فأوجس الناس خيفة من ضرره "[1]، أو ما فعلته ريحٌ شعواء شديدة فخامر" اليأس من المزروع قلوب الناس، وتيقنوا الهلاك "[2]

وقد يمتد القلق إلى مناحي الحياة الاجتماعية اليومية ، فقلّة المياه واحدةٌ من أكثر العوامل الطبيعية التي سبّبت القلق، الذي عانى منه الناس في العصر المملوكيّ لاسيما في مصر، ففي عام 694هـ مثلاً " قَصّر النيل بالديار المصرية تقصيراً قلق له الناس، وحصل منه اليأس...

[1] بيبرس المنصورى، ركن الدين الخطائي: **مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ**. حقّق وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد صالح حمدان. ط1. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. 1993م. ص107

[2] المقريزي، السلوك، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: **السلوك لمعرفة دول الملوك**. ق3. صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة. ط2. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة.1970.ج2. ص 753

وبُدّل العام بأتراح عوضاً عن الأفراح، والانزعاج بدلاً من الابتهاج "[1] ومع استمرار القصور في السنة اللاحقة" ساءت ظنون الناس وكثر الشح وضاقت الأرزاق ووقفت الأموال، واشتد البكاء وعظم ضجيج الناس".[2] وسيطرت لأجل ذلك حالة من الحزن طيلة فترة الكارثة، كما حصل عندما حل الطاعون بأرض مصر عام 749 ه الذي كان سببه قصور في النيل أيضاً فبَطُلت " الأفراح والأعراس من الناس، فلم يُعرف أن أحداً عَمل فرحاً في مدة الوباء ولا سَمع صوت غناء "[3].

وبعض الكوارث كانت سبباً في محاصرتهم في مساكنهم، فاختبأ بعض الناس فترة من الزمن من الكوارث حتّى لا يدركهم ضرر أو موت مثلما حصل في أثناء فيضان نهر دجلة عام 725هـ،إذ حوصر ما حول بغداد ستة أيام، و ودّع أهلها بعضهم بعضاً[4].

وحوصر الناس فزعاً من آفة الجراد ما يربو على الأسبوع، كما حصل في عام727هـ[5].

ويحصل في شح المياه وقصور النيل ما يحصل في زيادته؛ إذ إنّ الزيادة تُغرق المحاصيل والمباني، ومن ذلك ما حصل في الزيادة الواقعة عام723ه إذ" كَثر الخوف في القاهرة واشتد الاحتراس "[6].

---

[3] بيبرس المنصورى، ركن الدين الخطائي: **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**. تحقيق دونالد س. ريتشارد. بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع. 1998 م. ص 305

[2] المقريزي، **السلوك**.ج1 ، ق3.ص 814.

[3] المصدر السابق. ج2. ق3. ص 783.

[4] انظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**. ط1. بيروت: مكتبة المعارف. 1977. . ج14. ص 117

[5] أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الدمشقي ابن الجزري: **تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري**، تحقيق عمر بن عبد السلام التدمري. ط1. بيروت: المكتبة العصرية. 1998. ج 2.ص 179

[6] المقريزي، **السلوك**. ج2. ق1. ص 251

وكان الناس يقرنون الكارثة بقيام الساعة، في ملمّات مختلفة، فيصيبُهم خـوفٌ عظـيم وكأنّهم يعيشون نهاية العالم، ومن ذلك ما أصاب الناس في أثناء الـزلازل؛ إذ عـاش النـاس مَظهرين من مظاهر يوم القيامة، أولهما: الصراخ والفوضى الناتجين عن عدم استيعاب البشـر لما يحصل معهم، وثانيهما: وضعُ كلّ ذات حملٍ حملها. ففي زلزلة مصر عام702هـ عَظـم الصراخ والعويل بين الناس عندما اهتزت الأرض، وخرج الناس من بيوتهم من الخوف والفزع، وكانت النساء تخرج غير مكترثة بستر وجوههن، حتى أسقطت الحامل جنينها منها[1].

2. الخسائر المادية

تنوّعت الخسائر المادية الناتجة عن الكوارث الطبيعيـة لتشـمل الـزروع والحيـوان والمباني، وكان لها أثرٌ عظيم في تضرّر الإنسان من الناحية الاقتصادية بشكل لافت، وتَضـرّر الغطاء الحيوي المحيط به، ويمكن إجمال هذه الخسائر في الآتي:

أ- الحيوانات والزروع

تعرضت الثروة الحيوانيّة إلى خسارة كبيرة نتيجة الأحوال الطبيعيّة السيّئة، وذلك إمّـا بطريقة مباشرة، مثل مهاجمة الأوبئة والطواعين لها، أو بطريقة غير مباشرة، كتأثّرها بعوامـل الفيضانات، كفيضان النيل مثلا وكسر المنسوب الذي يؤدّي إلى نقصٍ في الـزَرعِ و التجـارة والادخار بسبب إهلاك الغطاء النباتيّ، وبالتالي التأثير على الثروة الحيوانيّة، أو عامل القحـط والجفاف الذي يمتد إلى الأراضي الزراعيّة، وبالتالي يؤدّي إلى فناء الثروة الحيوانية، التي تقومُ على عاتق الثروة النباتيّة.[2]

فقد أدّى فيضان بَردى إلى إغراق سوق الخيل عام764،[3] و كان للكوارث الطبيعية دورٌ بارز في اقتلاع الأشجار وإغراق البساتين وإهلاك الحيوانات، ففي أثناء السيول التي حصـلت

---

[1] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج1. ق3.ص942. انظر أيضا: ابن إياس، محمد بن محمد الحنفي: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**.ق1. تحقيق ومقدمة: محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.1982. ج1. ص 416

[2] انظر: الميموني، حامد عباس:**الحياة الاقتصاديّة في مصر العليا خلال العصر المملوكيّ**. ط1. القاهرة: مكتبـة الآداب. 2005.ص 124

[3] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج14. ص 300

ببلاد الشام اقتلعت الأشجار من أصولها كما حصل في سيل دمشق عام 669ه، وغرقت حيوانات كثيرة[1]، وهلك في مطر الشام الشديد عام 691هـ من "البقر والغنم والجواميس شيء كثير"[2]، و جرفَت أشجارَ عشرين بستاناً، و عدداً كبيراً من الأراضي في سيل بعلبك عام717هـ[3].

وأدّت زيادة النيل في مصر إلى النتائج ذاتها، إذ " تأخّرت الزروع عن أوانها، وحَصَل للفلاحين الضرر الشامل"[4]، وفسد محصول القصب، وعدد من الغلال في المطامير والأجران والمخازن، وغرقت بساتين في زيادة للنيل عام755.[5]

ومثل ذلك كان يحدث إذا قلّ الماء وقصّرت الأنهار عن الفيضان، ففي عام 669 هـ حصل " من العجائب أن مياه دمشق والعاصي والفرات قلّت ونقصت نقصاً مجحفاً، حتى هلك شيء من الأشجار و بطلت الطواحين"[6]

وقَصر النيل في سنوات متعددة، فما نبت زرع في مصر وهلكت بسببه حيوانات" الكلاب والحمير والسنانير"[7]، ومن أبرز سنوات القصور، الأعوام الثلاث المتتالية 694-695 - 696هـ.

وأثّرت عوامل طبيعية مشابهة في الحيوان والنبات كالريح الشديدة التي اقتلعت أشجار كبيرة من مغارسها، فاقتلعت حوالي أربعة آلاف نخلة في ساعة واحدة، وأهلكت الدواب وهو ما حصل عام 724ه في أسوان وما يحيط بها،[8] و أهلك الثلج الدواب والمواشي عام

---

[1] انظر: بيبرس المنصورى، **مختار الأخبار**، ص 45. النويري، شهاب الدين ابن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**. تحقيق الباز العريني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1992. ج31.ص130.

[2] ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**، ج1. ص 152

[3] انظر: الفاخري، بدر الدين بكتاش: **تاريخ الفاخري**.ج1. تحقيق عمر بن السلام تدمري. بيروت: المكتبة العصرية. 2010. ج1.ص426-427. ابن الجزري، **تاريخ الجزري** ج1. ص153. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج14. ص82.

[4] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق2. ص 105.

[5] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج3. ق1. ص12

[6] الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان: **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**تحقيق عبد السلام تدمري. ط1. بيروت: دار الكتاب اللبناني. 1998. . ج49. ص58.

[7] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج1. ص 282.

[8] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج2. ق1. ص254.

745،[1] وكان للبَرَد نصيب من الإضرار بالزرع، ففي سنة 746هـ " سقط بَرَد مجوف قدر بيض الحمام، وبعضه مثقوب من وسطه، ووصل إلى الإسكندرية والبحيرة والغربية والمنوفية والشرقية، فأفسد كثيراً من النخيل"[2]، وحاق خلال سنوات متعددة بالشجر والثمر، ومن ذلك أنه في عام 729ه أتلف الصقيع في دمشق " الكروم والباذنجان وجميع الثمر.... وعدم لهم من الكروم ما يساوي مائتي ألف درهم"[3]

وكان يرافق بعض الظروف الجويّة السّيّئة صواعق، فيهلك للناس رزقهم، مثلما حصل عام 666هـ في غوطة دمشق إذ نزلت صاعقة " أحرقت الشجر والثمر والزروع والكرم.".[4]

وأثرّت بعضُ القوارض والحشرات في إتلاف الغطاء النباتي، وخسارة المواسم لدى المزارعين، فكان الفأر إذا غزا النبات أتلفه، ومن ذلك ما حصل في عام 697هـ إذ "ظهر بالديار المصرية من الفأر ما ملأ الأقطار، وكان الوقت قريباً من الحصاد، فساح على البلاد، واستهلك الزرع، وأتى على معظمه ومحقة، وقد قيل إنه كان يستهلك البلد الواحد جملةً كبيرة من الفدادين فلا يغادر سنبلة قائمة، وربّما سبق الفلاحين إلى استهلاك زرعهم. حتى إن بعضهم كان يقصد معاجلتها، ويبيت وزرعه قائم وحرثه سالم، على أن يباكر إلى حصاده، ويبادر قبل فساده، فيمحقه الفأر تلك الليلة، فلا يغادر شيئاً".[5]

وكان للجراد حظ كبير ومتكرر من الخراب إذ كان يأكل كميات كبيرة من الثمار، فلا يكاد المزارع يحصد مما زرعه شيئاً. [6]

وحصدت الطواعين التي تأثرت بها البلاد الإسلامية في العصر المملوكي الأول من الحيوانات الشيء الكثير، ففي طاعون 749هـ " تواترت الأخبار من الغور وبيسان، وغير ذلك

---

[1] انظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**. تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، أحمد الخطيمي. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1995. ج1. ص6.

[2] السخاوي، **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**. ج1.ص16.

[3] ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج2.ص332.

[4] الذهبي، **تاريخ الإسلام**. ج49. ص 38

[5] المنصوري بيبرس، **مختار الأخبار**. ص107

[6] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج2. ص179

من النواحي أنهم كانوا يجدون الأسود والذئاب والأرانب، وحُمر الوحش، والخنازير وغيرها من الوحوش[1] قد تعرضت للهلاك بفعل الطاعون، كما وجدت الأسماك في دمياط طافيةً على المـــاء وقد تعرضت للهلاك هي الأخرى[2].

ب. الأبنية والعمائر

تَعرَضَت الطرقُ والأبنية إلى خراب كبير، إثر الكوارث الطبيعية التي تعرضـــت لهـــا الدولة الإسلامية في العصر المملوكي الأوّل، ففي إثر زلزلة عام 702هــ، تهدمت المنارة فـــي الإسكندرية وتساقطت المآذن والأسوار والأحجار من الجدران وتداعت الأركان المشيدة[3].

وخربت الجسور والخانات والمساكن والطواحين في سيول متعددة تعرضت لها الشـــام في سنوات عديدة،من أمثلتها سيل 669 ه [4]، وسيل بعلبك الشهير عام 717 هــ الذي هدم أعداداً هائلة من البيوت والخرب والحوانيت، والطواحين، والحارات في إحصائيات تدل علـــى عظـــم أضراره[5].

وأدت زيادة النيل في سنوات متعددة إلى غرق بعض الأبنية، أو إلى تهدم البيوت التـــي تجاوره،كما حصل في أثناء زيادته عام 748 هــ [6].

---

[1] انظر: السخاوي، **وجيز الكلام**. ج1. ص 34. ابن تغري بردي، جمال الدين أو المحاسن يوســف الأتــابكي: **النجــوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة**. ط1.م10. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993، ص160.المقريزي، **الســلوك**. ج2. ق3. ص785

[2] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج2. ق3. ص785

[3] انظر: بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**. ص779. الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك: **كنز الدرر وجامع الغرر**. تحقيق هاني روبرت رويمر. د.ط.القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة.د.س . .ج9. ص101 – 102. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج14. ص 27. المقريزي، **السلوك**. ج1. ق2. ص943. ابن تغري بردي، **النجوم الزاهــرة**. ج8. ص161.

[4] انظر: بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**. ص 45. الدواداري، **كنز الدرر**. ج8.ص 160. شهاب الدين النويري، **نهاية الأرب**.ج32. ص130، ابن كثير، البداية والنهاية .ج14.ص259. المقريزي، **السلوك**، ج1. ق2. ص596.

[5] انظر: الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ص 446 –447. النويري، **نهاية الأرب**. ج32.ص228.

[6] انظر: المقريزي، **السلوك**، ج1. ق2. ص769.

وذهب نتيجة لبعض الكوارث الطبيعيّة بعض مصادر العيش الذي اعتمد عليها السكّن في رزقهم كالسفن والمراكب، ففي عام 666ه " هبّت ريحٌ عظيمةٌ بمصر غرّقت في النيـل نحـوَ مائتي مركب " [1]

وكانت الريح عاملاً مساعداً أدى إلى انتشار حريق القاهرة عـام 721هـ إذ " اشـتد هبوب الرياح فسَرت النار في عدة أماكن، وغرقت المراكب ونشرت النار[2]"، "فاحترقت جميـع دور القاهرة في المناطق المجاورة للحريق ، وهدمت من أعلاها وأسفلها والنار تأكل سقوفها[3]".

3. الغلاء والجوع

انعكست الآثار السلبية للكوارث الطبيعية على حركة الأسعار في الدولة المملوكية، مـا أدى إلى زيادة شقاء الناس و فقرهم و بؤسهم. فمن جانب، فإنّ المناطق المنكوبة تؤدّي بسكّانها إلى القيام بحركة هجرة داخلية أو خارجيّة بحثاً عن مأوىً لهم، ومعظم هؤلاء المهاجرين مـن الفلاحين الذين تركوا أراضيهم. ومن جانب آخر يحصل ارتفاعٌ في الأسعار على العامة؛ فعلـى سبيل المثال، تعتمد الأراضي المصرية على نهر النيل، ويشكّل ارتفاع منسوبه و انخفاضه فـي سنة أخرى مشكلة كبيرة لدى الناس.

فإذا قصّر عن الوفاء فاتَ أوان الزرعِ، وما عاد في يد الفلاح حيلة لكسب الرزق، وإذا زاد عن حدّه العادي أغرق الحقول الواقعة على ضفّتيه وجعلها غير صالحةٍ للزراعة. وحين يقلّ ماء النهر عن الحد اللازم للزراعة، يقلق الناس ويخافون من حدوث المجاعـة نتيجـةً لكسـاد الموسم الزراعيّ في ذلك العام، ومن ثمّ يسارعون لتخزين الغلال التي لديهم ضـماماً لقـوتهم وقوت عيالهم، كما يسارع التّجار إلى تخزين الغلال طمعا في الحصول على مزيد من الأرباح، عن طريق رفع الأسعار، و يشتدّ الإقبال على شراء الغلال، بينما يقل المطروح من البضائع في

[1] الذهبي، **تاريخ الإسلام**.ج 49. ص 46

[2] المقريزي، **السلوك**، ج2. ق1.ص220.

[3] انظر: المصدر السابق. ج2. ص221.

الأسواق بطبيعة، ويشتد تزاحم الناس على الأفران وحوانيت الغلال، ويستتبع ذلك بطبيعة الحال زيادة كبيرةٌ في الأسعار التي تمتد إلى كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس[1]

ففي أثناء قصور النيل عام 694هـ " أجدب الوجه الغربي من بُرقة وأعمالها وما يتاخمها فلم يصبها شيء من الوبل و الطل. ولم يزرع بها ما حلّ ولا ما قل[2]" نتج عن ذلك ارتفاع في الأسعار فبلغ سعر القمح بالقاهرة ومصر مائة وخمسين درهماً،و نقرة [3] الإردب[4] والشعير مائة،درهم، والفول والحبوب نحو ذلك[5]".

وارتفعت الأسعار أيضاً حتى إنّ السلع كانت تبقى في الوكالة عشرين يوماً لا يباع منها شيء[6].

واستمر الغلاء حتى عام 695 هـ حتى "بيع الفرّوج الواحد بعشرين درهماً، والبطيخة بمائة درهم، والسفرجلة بثلاثين درهماً[7]".

وتأخر المطر مع دخول الشتاء في السنة ذاتها " فبلغ القمح كل غرارة[8] في دمشق بمائة وسبعين درهماً، والخبز كل رطل بدرهم، واللحم كل رطل بأربعة دراهم ونصف".

---

[1] اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى: **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر**. تحقيق ودراسة د.أحمد خطيط. ط1، بيروت:عالم الكتب. 1986.ص 81

[2] بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة**.ص305 – 306.

[3] ووردت النقير نسبةً إلى ما ورد في القرآن الكريم: " ولا يظلمون نقيرا ". سورة النساء آية 124. وهي وحدة للكيل في بلاد فارس وما وراءها وفي البلاد العثمانية، وترد في بعض الكتب (نقيرة) وهي مختلفة الوزن من بلد لآخر. فاخوري، محمود وصلاح الدين خوّام: **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة**. ط1.، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. 2000.ص 222

[4] وهي من المكاييل التي كان يتعامل بها الناس في مصر، وهي صعبة الحساب، وتختلف من منطقة لأخرى ومن عصر لآخر، إذ كانت مقسّمة إلى ستة عشر جزءا متساوية تدعى كل واحدة (ويبة)، والويبة تقسّم إلى 4 أقسام كلّ قسم يسمّى (ربع) وهو بالتالي مقسّم إلى جزئين متساويين كل جزء يسمى(ملوة)، والملوة إلى جزئين كل جزء يسمى (قدحا)، وكلّ واحدة لها مقدار.انظر:المرجع السابق. ص 231 – 232

[5] بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة**. ص 305 – 306.

[6] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج1. ص 282

[7] بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**. ص309.

[8] وهي "من المكاييل العُرفية التي كانت تستعمل في بعض البلدان العربية والإسلاميّة لاسيّما في بلاد الشام لكلّ الحبوب عامّة والقمح خاصّة، ولم تكن الغرارة ثابتة في مقدارها، بل كانت تختلف من بلدٍ لآخر ومن عصر لآخر". محمود فاخوري، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**. ص 275

وتتوالى الأسعار حتى عام 696هـ، ففي قصور النيل في ذلك العام بلغ سعر القمح مائة وسبعين درهماً وارتفع سعر الفول واللحم والفروج والفاكهة، حتّى "أبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلةُ كل واحدة بثلاثين درهما، وأبيعت قطعة السكّر بثقلها فضّة "[1] ولم تكن الديار الحجازية بمعزل عن البلاء، فزارها القحط وتأخر المطر سنوات متعددة، منها في عام 722هـ، الذي استسقى فيه أهلها فلم يسقط المطر، فوصل القمح فيها إلى مائتين وخمسين درهماً للإدرب[2].

ولم يكن الغذاء وحده الذي ارتفع سعره، بل ارتفع سعرُ الماء أيضاً، فكان الرجل المسافر إذا أراد أن يسقي نفسه أو دابته، عليه أن يدفع درهماً لدابته وربع درهم لنفسه[3].

ولم تسلم الأسعار من تأثير آفة الفأر أو الجراد، ففي عامي 658 –659هـ، هاجم الفأر بلاد الشام فقفزت محاصيلها، فبلغت غرارة القمح أربع مائة درهم بدمشق والمكوك[4] بحماة كذلك[5].

وتسببت الطواعين والأوبئة التي لم تمكّن الفلاحين من زراعة أراضيهم إلى قلّة المحصول، و إلى ارتفاع أسعار السلع، فعندما اشتد الوباء بالشام عام 656 هـ بيع " الفرّوج بدمشق بثلاثة دراهم، وبحلب بعشرة دراهم[6]"

وفي قصور النيل عام 749هـ انتشر الطاعون في مصر" فلم يخضرّ إلّا نصف الأراضي"[7]، وارتفع ثمن الماء حتى بلغت رواية الماء ثمانين درهماً للرجال والحمال[8].

---

[1] انظر: ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق1. ص390.

[2] انظر: المقريزي، **السلوك**، ج2.ق1. ص238.

[3] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج1.ص280.

[4] وهو من المكاييل التي يقاس بها وهو كغيره يختلف من منطقة لآخرى ومن زمن لآخر، ويعادل صاعاً ونصف. فاخوري، محمود، **موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية**. ص 399–340. والصاعُ المقصود به الصاع النبوي، وقد اختلف الفقهاء في تقديره باختلاف مفاهيم، فكانوا يقدّرونه بقياسات مختلفة.المرجع السابق. ص 255

[5] انظر: الداودراي، **كنز الدرر**. ج8.ص85.

[6] المقريزي، **السلوك**. ج1، ق2. ص409.

[7] المصدر السابق. ج2. ق3.ص785.

[8] انظر: المصدر السابق. ج2.ق3.ص 786

إنّ هذا الازدياد المضطرد في أسعار السلع، وانعدام القدرة على تحصيل المواد الغذائية بسبب الغلاء نتج عنهُ موجةٌ من المجاعات التي حلت بالبلاد، فتوالت مشاهد الجوع في أعـوام الجفاف 694 -696هـ، " فلما اشتد الأمر على الناس أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغـال والحمير[1]" وازداد بذلك ثمن هذه الحيوانات إذ بيع كل كلب بخمسة دراهم وكل قط بثلاثة[2].

وتعدى الأمر ذلك حتى أكل الناس الميتة من الحيوانات، فتزايد في الوباء نفسه أكـل " الناس الميته من المواشي والكلاب[3]".

ويَذكر بيبرس المنصوري في مختاره في السياق ذاته، " وشاهدتُ الناس يبيعـون لحـم الميتة على باب القراطين[4]، ورأيتُ أقواماً كلما أخرج شيء من جيف الميتـه بـادروا بسـلخه وأكله[5]".

ولم يكن بيعُ غير المألوف للناس مقتصراً على لحوم الميتة من الحيوانات، بل تعداه إلى بيع لحوم الآدميين، ففي فناء عام 718هـ عندما توقف نزول المطر، أكل النـاس " الجمـادات والحيوانات والميتان، وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم، فبيع الولد بخمسين درهماً، وأقل من ذلك[6]".

وبلغ الأمر ذروته عندما أكل بعض الناس لحوم إخوانهم من بني البَشَـر، يقـول ابـن الفرات في خبر وباء 695هـ " وتزايد الحال إلى أن أكل بعض الناس الميتـه مـن المواشـي والكلاب وبني آدم، وكانت النساء يأكُلن أولادهن[7]".

---

[1] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق1. ص391.

[2] انظر: المصدر نفسه. ج1.ق1. ص191

[3] ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن الفرات: **تاريخ ابن الفرات**. . حققه قسطنطين زريق و نجلا عز الدين.ط1. بيـروت: المكتبة الأمركانية. 1948. ج8. ص208.

[4] باب القراطين أو الباب المحروق، وهو أحد أبواب القاهرة، إذ قام خلافٌ بين أقطاي الجمدار وهو أكبر أمراء البحريـة من المماليك في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وبين المعز أيبك أوّل ملك من المماليك، ثمّ إنّ الأخير دبّر لأقطاي من يقتله وتمّ له ذلك، فقام أصدقاء أقطاي من المماليك ومنهم بيبرس البندقداري وقلاوون الألفي بحرق هذا الباب والهروب من أيبك عام 650ه فسمّي باب القراطين بالباب المحروق أيضا.المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**. تحقيق محمد زينهم و مديحة الشرقاوي. ط1. القاهرة: مكتبة مدبولي.1997. ج2.ص383

[5] بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**، ص102. ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**. ج8. ص208.

[6] ابن كثير، **البداية والنهاية**. ج14.ص86.

[7] ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**. ج8.ص208.

وقد كان للأطفال النصيب الأوفر من هذا السلوك إذ إنّ " الناس من الجوع كانوا يأكلون لحوم الموتى و بخاصّة موتى الأطفال، وكانوا يجدون الرجل والمرأة ميتين وعند رأسهما لحم الميت، وكان يُمسكُ بعضهم، فيوجد معه كتف صغير، أو فخده أو شيء من لحمه[1]".

4- المرض والموت

يُعدّ الموتُ من أبرز النتائج التي تمخضت عنها الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول، لا سيما على الإنسان، ويغلب على المؤرخين استخدام لفظتيّ وباء و طاعون للتعبير عن الأمراض سريعة الانتشار و فتّاكة الأثَر، غير أنّ الطاعون أخصُّ من الوباء، إذ يعدُّ الأخير وصفاً لكلِّ مرضٍ فتّاك ومنتشر.[2]

وليس الغرض هنا عرض آراء من يفرّقون بين الوباء والطاعون، ولكن من ضمن الآراء التي تشرح في أسباب الطواعين، تنسب المرض إلى فساد الهواء، الذي " يقضي تغير الأخلاط وكثرة الأمراض والأسقام، وهذا يقتل بلا مرض، أو بمرض يسير[3]".

وهذا ما سبّب مأساة طاعون عام 656هـ، إذ انتقل الهواء الفاسد الناتج عن تحلل الجثث بعد ملحمة بغداد وسقوطها في يد المغول عبر الرياح إلى بلاد الشام[4].

فاشتد الوباء في الشام بشكل لا يحد ولا يوصف، قد أخذت الأدوية من عند العطارين وعز وجود الأطباء[5]، فكان يخرج من حلب في اليوم الواحد ألف ومائتا جنازة[6]، وكان الأمر سيئاً جداً بدمشق، حتى "عزّ مغسلو الموتى" [7].

---

[1] العيني، بدر الدين محمود: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**. حققه ووضع حواشيه محمد أمين. ط1 القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1987. . ج3. ص302.

[2] انظر: العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر: **بذل الماعون في فضل الطاعون**. ط1. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة.1411 هـ. ص104.

[3] المصدر السابق. ص105.

[4] انظر: الذهبي، **تاريخ الإسلام**. ج48. ص 42

[5] انظر: المصدر السابق. ج 48. ص42

[6] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج1. ق2. ص410

[7] ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى: **تاريخ ابن الوردي**. ط1. القاهرة: دار الكتب العلمية،. 1996م. ج2.ص193

وقد يزداد فيضان النيل في السنوات على غير عادته فيشكل مستنقعات[1] تكَوَن بيئةً جيدة لتكاثر الحشرات التي تؤدي إلى حدوث الأمراض ونقلها وانتشارها[2]، وهـذا مـا حصـل عـام 762هـ على سبيل المثال إذ كثرت المستنقعات الناتجة عن فيضان النيل، فانتشرت الأمـراض بين الناس، وطعنوا في أجسادهم[3].

ومن الأوبئة الشهيرة في العصر المملوكي ما حصل سنة 694 ه حتى 696ه الناتج عن قلة فيضان النيل، فأدى إلى مجاعة سببها ارتفاع الأسعار، وأَفضَت إلى انتشار المرض الموت، وابتدأ القحط ببرقة والوجه البحري بمصر، فهرب الناس من الجدب إلى الإسكندرية والبحيـرة "وامتدّوا في الربى والوهاد، وجلبوا الوخم إلى العباد، ففشت الأمراض العامـة ومُنـي الخلـق بالطامة"[4]

ويشير ابن الجزري إلى سبب آخر لوقوع هذا الطاعون، فيذكر أن الجراد هـاجم أهـل برقة فأكل من لحم أكتاف أهلها،وانتشر الدم الفاسد بينهم، فهاجروا إلى مصر بالألوف المؤلفـة، فهلكوا وأهلكوا أهل مصر معهم. [5]

ومات من الديار المصرية خلق كثير وخلت بعض الدول من سكانها، وامتلأت الأراضي من الأموات بين أزقتها، وكان أكثر من يموت بالقاهرة ومصر لا يجد أحداً يدفنه، بل يبقى ملقىً على قارعة الطريق، إلى أن تأكله الكلاب.[6]

---

[1] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**. ج 14.ص276.

[2] انظر: أبا زيتون، منال أحمد إبراهيم: **المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (**رسـالة ماجسـتير غيـر منشورة**)**. جامعة اليرموك. إربد. الأردن. 1998.ص37

[3] انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**. ج14.ص 276. السخاوي، **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**.ج1. ص131

[4] العيني، **عقد الجمان**. ج3.ص275.

[5] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**، ج1. ص 257. مؤلف مجهول: **عصر سلاطين المماليك**. بيروت: دار القلـم. 1980. ص 36.

[6] انظر: بيبرس المنصوري، **مختار الأخبار**. ص101-102. **زبدة الفكرة**. ص306.

وكان يُحمل يومياً إلى مغسلي الموتى قرابة خمسين ميتاً، وكانوا يُرصّون في حفر عند دفنهم، ويجعل الصغار بين الكبار حتى تستوي الحفرة وبعضهم تجرّه الكلاب،[1] وكان يخرج من مصر من دون القاهرة وما حولها في اليوم الواحد ألف وخمسمائة جنازة. [2]

ومن الطواعين المشهورة أيضاً طاعون 749هـ الذي سبقت الإشارة إليه، فكثر الموت بالناس، وكان إذا دخل بيت أحدهم حصد أهله جميعهم وتضاعفت أعداد الموتى، وقلّ عدد النفوس في البلاد، وكان يأتي إلى الجامع أعداد منهم تزيد عن مئة ميت، وبعض الموتى لم يكن يؤتى به ليصلّى عليه، وكان يموت حول البلد الواحد عدد لا يحصى. [3] وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشرة ألف إلى عشرين ألف في كل يوم،وعملت للناس التوابيت والدكاك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحفرت الحفائر وألقوا فيها، وكانت الحفرة يدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر، وكان المصاب بالطاعون يبصق دماً، ثمّ يصيح ويموت[4].

وانتقل الطاعون العام إلى بلاد الشام فكان ابتداؤه بأراضي دمشق وحلب،ثم عمّ جميع بلاد الشام، وبلاد ماردين وجبالها ، وبلاد أهل الغور، وسواحل عكا، وصفد، وبلاد القدس، ونابلس والكرك، وعربان البوادي، وسكان الجبال والضياع، ولم يبقَ في بلدة جنين سوى عجوز واحدة خرجت منها فارة ولم يبقَ بمدينة اللّد أحد، ولا بالرملة، وصارت الخانات ملآنة بجيف الموتى. [5]

وشمل الموت غزة هاشم، يقول ابن بطوطة في رحلته يصف ما رآه وسمع به في أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين و سبعمئة : بلغني الخبر في حلب أنّ الوباء وقع بغزة،

---

[1] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج1. ص282.

[2] انظر: المصدر السابق. ج1. ص282. ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**. ج8.ص209

[3] انظر ابن كثير، **البداية والنهاية**. ج14. 227.

[4] المقريزي، **السلوك**. ج2. ق3.ص772-773. ابن تغري بردي،**النجوم الزاهرة**، ج10.ص155. ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق1. ص528.

[5] المقريزي، **السلوك**. ج2.ق3.ص774. ابن تغري البردي، **النجوم الزاهرة**. ج10.ص157.

انتهى عدد الموتى إلى زائد على الألف في اليوم الواحد، فسافرت إلى حمص فوجدت الوباء وقع بها ومات يوم دخولي إليها نحو ثلاثمائة إنسان".[1]

وعزّ وجودُ قرّاء القرآن لكثرة الموتى لاسيما في مصر والقاهرة، فكان النّاس يتركــون حرَفهم وأعمالهم ليصبحوا قراءً عليهم"[2]، فقد بلغ عدد الجثث في مصليات القاهرة ثلاثة عشر ألف وثمانمائة عدا من مات في الأسواق والحواري والدكاكين والأبواب من تأخر دفنه، وذلك كله في اليوم الواحد.[3] وقيل بلغ عدد الأموات في اليوم الواحد عشرين ألفاً، وأحصيت الجنائز فقط فــي مدة شعبان ورمضان تسعمائة ألف[4].

وشمل هذا الطاعون الديار الحجازية المقدّسة سنة749ه ، وكان قد ورد عــن الرســول صلى الله عليه وسلم أنّ الطاعون لا يدخل المدينة المنورة، لكنّ بعضَ الفقهاء عزوا ذلك لدخول الكفّار فيها [5]، ودخل الطاعون مكة المكرمة أيضا، فمات به جماعة من أهلها، و لم يعهد أن دخلَ هذه المدينة طاعون قط [6].

وتوالت الطواعين التي حصلت بالبلاد للسبب ذاته، ومن ذلك طاعون عام 764هــ الذي أصاب القاهرة ومصر، فهلكَ الكثير من الناس صغارا و كبارا[7]. وتلاه طاعون عــام 775هــــ الذي سبّب قحطاً في أرض مصر، فكان يخرج من القاهرة نحو ستمائة جنازة يومياً.[8]

وليست الطواعين وحدها – وإن نالت نصيب الأسد– التي سبّبت سقوط ضــحايا مــن الناس، فقد أدت العوامل الجوية والطبيعية السيّئة إلى خسائر بشرية أيضــاً، ففــي ســيل عــام

---

[1] ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: **رحلة ابن بطوطة**. بيروت: دار التراث. 1968. ص639

[2] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج2. ق3.ص782–283.

[3] انظر: المصدر السابق. ج2. ق3.ص 282

[4] انظر: المقريزي ،**السلوك** .ج2. ق3.ص282. ابن تغري بردي. **النجوم الزهرة**. ج10.ص155.

[5]انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت (911ه). **رسالة في الأحاديث الواردة في الطاعون وسببه**.مكتبة مصطفى الإلكترونية. ص 70

[6] انظر: ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج1. ق1. ص530.

[7] المصدر السابق. ج1. ق2.ص6

[8] المصدر السابق، ج1. ق2. ص138.

669هـ " هلك به عشرة آلاف نفس[1]، وفي عام656هـ، واجه أهل الشام خطر البرد الشديد عندما خرج أهل دمشق منها خوفاً على أنفسهم من خطر التتار، فواجهوا جوّا شديد البرودة لم يحتملوه، إذ إنهم خرجوا في قوة الشتاء فمات خلق كثير فيه[2].

و أسفرت الزلازل عن قتل أعدادٍ لم يفصّل فيها المؤرّخون، لكنّهم أشاروا إلى كثرة الضحايا، ففي زلزال عام 702هـ مات عدد كبيرٌ من الناس، ممّن هلكوا تحت الردم[3].

وقتلت الريح السموم الحارقة التي هبت على مصر والقاهرة عام728هـ جماعة من الناس[4]، وأهلكت ريح عظيمة أناساً كثراً، قضوا تحت ردم المنازل التي تهدمت من شدتها[5].

الجانب الإيجابي الاجتماعي

تركت الكوارث الطبيعيّة آثاراً إيجابيّة على الناس، فحجم الموت والمرض والدمار الذي خلّفته هذه الملمّات جعلت نفوس بعض الناس تتغيّر، مغيّرة نظرتها في الحياة الدنيا، وانعكس ذلك على سلوكها.

وتمثّل ذلك في لجوء الناس إلى الله، والتشفّع بالنبيّ الكريم ليخلّصهم مما حلّ بهم، وفي عودة الضالّين منهم إلى الهداية، وتَركِ ما نهى الله تعالى عنه، لمّا أحسّوا بدُنُوِّ آجالهم، وقربِ مفارقتهم للحياة الدنيا.

ومن ذلك ما حصل في أثناء بركان المدينة عام656هـ، إذ تقرّب الناس من الله سبحانه وتعالى بالطاعات فضجّوا بالدعاء،و رثوا حالهم للنبيّ عليه الصلاة والسلام، وقد برز أكثر ذلك

---

[1] ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**، ج2.ص 266.

[2] انظر: ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي: **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، دراسة وتحليل الدكتور سمير طبّارة. ط1. صيدا: المكتبة العصريّة. 1999. ص225

[3] انظر: الذهبي، شمس الدين أبا عبد الله بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي ت (748): **دول الإسلام**. ط2. حيدر أباد: مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. 1365هـ. ج3 . ص161. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت (911هـ): **تاريخ الخلفاء**. ط3. بيروت: دار الجيل.1993، ص 553. ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق1. ص 416

[4] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج2.ص 26

[5] انظر: المقريزي، **السلوك**. ج2.ق1. ص 192.

في الأدب[1]. وتكرّر المشهد نفسه في معظم الملمّات التي وقعت بالناس فيضجّوا بالدعاء إلى الله تعالى لرفع الرياحِ المهلكة مثلا[2]، كريح السموم التي هبّت على مصر عام 745ه فأحرقت حرث أهلها[3] وابتهلوا وقرؤوا القرآن بخشوع وخضوع لتنكشف عنهم الطواعين[4].

و لجأ الناس أيضا إلى السُنّة المشرّفة إذ كانوا يقومون بقراءة صحيح البخاري في أيّـــام متوالية في أماكن مختلفة، ومن ذلك ما حصل في طاعون 749 ه إذ قُرأ النّاس البخـــاري فـــي الجامع الأزهر لعدّة أيّام[5]، وهي عادةٌ جرى الناس عليها في ذلك العصر في الملمّات.

ولجأ الناس إلى أعمال الخير لتنجيهم ممّا هم فيه، كالتصدّق على المحتـــاجين و ذبـــح الأبقار والأغنام الكثيرة ، لتفريقها على الفقراء ،[6] وإراقة الخمور في الأسواق[7]، وإعتاق العبيد[8].

الآثار السياسية: السلبية والايجابيـــة

يُعد الاستقرارُ الداخليّ والخارجيّ للدول من أهم متطلبات التنمية والازدهـــار، لـــذلك تسعى كل دولة للمحافظة على استقرارها بشتى الطرق، وهناك عوامل متعددة تساهم في خلخلة هذا الاستقرار والتأثير فيه، ومن بينها العوامل الطبيعية.

لقد أثّرت العوامل الطبيعية السيئة في الناحية السياسية في الدولة الإسلامية في العصـــر المملوكي الأول، وبدا ذلك واضحاً من جانبين، الجانب الأول من حيث تأثيرها المعنوي علـــى الجيوش والسلاطين، والجانب الثاني من حيث تأثيرها المادي الملموس على معـــدات ومنشـــآت الدولة العسكرية والسياسية، وفي رجالها وقادتها، وكلا الجانبين أثّرا في سياسية الدولـــة، وقـــد تجلت هذه الآثار في الآتي:

---

[1] انظر: الآثار الإيجابيّة للكوارث الطبيعيّة في الفصل الثاني ص 78

[2] المقريزي، **السلوك**،ج1. ق3. ص943

[3] المصدر السابق.ج1.ق3 ص 673

[4] انظر: السخاوي، **وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام**. ج 1 .ص 34

[5] انظر: المقريزي، **السلوك**، ج2.ق3 ص 781

[6] انظر: المصدر السابق. ج2.ق3.ص780-781

[7] انظر: المصدر السابق. ج2.ق3.ص777

[8] انظر: المصدر السابق. ج1.ق2. ص 398

الجانب السلبي للأثر السياسي

أ- الجانب النفسي

يُعدّ الجانب النفسي أحدَ أهمّ العوامل التي تساهم في نجاح العمليات العسكرية للجيوش أو في الاستقرار السياسي للحكم. وقد كان لبعض الملمّات الطبيعية التي ضربت الدولة في ذلك الحين تأثيرَها السلبي على هذا الجانب،ومن ذلك توقّف النيل بمصر، ففي عام 694هـ على سبيل المثال توقف النيل بمصر عن الزيادة، وحلّ القحط والجوع والمرض بسبب ذلك - كما سبق وأشير - ما أدى بالناس إلى التشاؤم من سلطنة كتبغا[1] الذي كان يحكم البلاد إبانها.[2]

ومن الكوارث ما أثّر في الجيش والعسكر، ففي أثناء نزول جيش بيبرس الجاشنكير[3] عام 698هـ في قرية قرتية [4] في مهمة عسكرية هاجمهم الجراد فسدّ "الأفق بحيث حَجب الأبصار عن السماء، فزاد تطيّر العسكر، وخشوا أن يكون منذراً بقدوم العدو وكسرة العسكر".[5]

وفي أوّل نزول للجيش في هذه البلدة سالت عليهم الأودية و"أتلف السيل كثيراً من أثقالهم وتشاءموا به وتطيروا منه"[6]، وزاد قدوم الجراد حالتهم النفسية سوءاً.

وتكرر التشاؤم من السلطان في عام 709 هـ لنقص فيضان النيل، وكان السلطان بيبرس الجاشنكير قد تولى الحكم، فتشاءم الناس من سلطنته وخافوا وقوع الغلاء الذي وقع في أيام كتبغا.

---

[1] هو أحد مماليك السلطان المنصور قلاوون، وقد تولّي السلطة عاما واحدا بعد أن أخذ الحكم من السلطان محمد من قلاوون لصغر سنّ الأخير وتوفيَ عام 702ه. انظر: ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد : **الدرر الكامنة.** القاهرة: دار الكتب الحديثة.د.س. ج3. ص 349

[2] انظر: ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة.** ج8. ص 648.

[3] أمير من أصل مغولي، تولّى السلطة إثر خلعه للسطان محمد بن قلاوون لصغر سنّة. توفي عام 708ه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات.** باعتناء جاكلين سوبلة وعلي عمارة. لبنان: دار الفكر. 1991م. ج10.ص 348

[4] قريه قرب بيت جبرين بفلسطين. الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، ج3، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1990. ص363.

[5] المقريزي، **السلوك.** ج1. ق3. ص885. العيني، **عقد الجمان.** ج 2. ص470

[6] المقريزي، **السلوك.** ج1. ق3. ص885. العيني، **عقد الجمان.** ج2.ص 470

ومنهم من وصل به الأمر إلى الدعوة إلى قتل السلطان، ففي عام 775 هـــ، عنــدما توقف النيل بمصر عن زيادته أيضاً،وعم القحط والغلاء في البلاد، ما كان من رجل من الشعب إلا أن جلس في الطرقات يردد: "اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم، ويجري ماؤكم"[1].

ب- الجانب المادي

أثرت الكوارث الطبيعية في الناحية السياسية من جانب ماديّ، تمثّل في تدميرها لمنشآت وأسلحة ومعدات للجيوش، وفي قتلها بعض أصحاب المناصب العسكريّة.

ومن ذلك أن أغرقت زيادة دجلة خزانة السلاح في بغداد عام 656هـ[2]، وفي عام 683ه أخذ سيل جارف جمال الجيش المصري وأثقاله في أثناء قدومه من دمشق[3]، وغرقت عدد مــن سفن المسلمين أيام حكم الظاهر بيبرس في أثناء توجهها إلى قبرص للقتال، وحصل ذلــك إثــرَ هبوب ريح قوية شديدة حطّمت بعضها وقضت على حياة بعض من كانوا فيها، وأدّت إلى أسْــر ألف وثمان مئة من المقاتلين والبحارة.[4]

وفي عام 685هـ جاءت زوبعة عظيمة على حمص بأمر عظيم اتّصــل تــأثيره مــن السماء بالغيم الأسود إلى الأرض، وانقضّ على عسكر دمشق فيها فما "صادف شيئاً إلا رفعه في الهواء كرمية نشاب وأكثر، وما صادف شيئاً من السروج والجواشــن[5]، والعــدد، والســيوف، والتراس، والقِسيّ، والقماش، والشاشات، والكلوتات[6]، والنحاس، والأسطال، والأحبار طائراً في الهواء... إلى أن صاروا بغير عدّة ولا قماش"[7]

---

[1] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق2. ص124 -125.

[2] انظر: الذهبي، **تاريخ الإسلام**. ج49. ص59. المقريزي، **السلوك**، ج1. ق1. ص594.

[3] انظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**. ج13. ص 303.

[4] نظر: الذهبي، **تاريخ الإسلام**. ج48، ص 32. ابن كثير، البداية والنهاية. ج12. ص 133. العيني.**عقد الجمــان**.ج 3. ص126.

[5] جوشن أو جوسن، والجمع جواشن أو جواسن، وهودرعٌ من الجلد يُلبس حول الجزء الأوسط من الجسم وفي التــدريب على الفروسية. انظر: نجم، زين العابدين شمس الدين: **معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخيــة**. ط1. مصــر: الزهــراء كمبيوتر سنتر.2006.ص 192

[6] الكلوتة وجمعها كلوتات، غطاء للرأس، طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة وتسمى أيضا كلفة، وقيل إنّها لاتينية وقيل معرّبة عن الفارسية. المرجع السابق. ص 453

[7] ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**.ج8. ص 37 - 38

وقد تؤدي الكوارث الطبيعية إلى تلف أدواتٍ حربيّة، ففي عام 746ه في مصر، نشـــبَ حريقٌ عظيمٌ ساعدت الريح في انتشاره كما ذكر المؤرخون، فأحرق جزءاً كبيراً من القلعـــة، و أتلف المنجنيق كله بالنار[1].

وأدّت بعض الكوارث الطبيعية وعلى رأسها الطواعين إلـــى التســـبب بوفـــاة بعـــض الشخصيات السياسية والعسكرية ممن شغلوا مواقع مهمة وحسّاســـة فـــي الدولـــة كالســـلاطين والأمراء[2]، والولاة[3]

ومن هذه الشخصيات الملك الناصر داود[4]، وأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله[5]. والأميـــر بُكلك[6]، والأمير تومان كمر[7]، والأمير أوران[8]، والأمير لاجين[9]، والأمير إيوان[10].

---

[1] انظر:المقريزي، **السلوك**. ج2. ق3. ص695.

[2] وأمراء الدولة في العصر المملوكي هم المسؤولون عن "تفقد حال الأجناد، وتعليمهم رمي النشاب، على الخيـــل بحيـــث يعرفون الطعان والضرب والحرب ". السبكي تاج الدين عبد الوهاب. **معيد النعم ومبيد النقم**. ط1. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. 1986.ص42.

[3] وكان هذا الاسم قديماً لا يسمى به إلا نائب السلطان، وهو الآن اسم لمن إليه أمر أهل الجرائم واللصوص وغيرهم ولـــه حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. المصدر السابق.ص40

[4] الملك الناصر داوود، وهو الملك الناصر داوود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد توفي في طـــاعون عام 656هـــ، إذ استدعاه الخليفة المستعصم بالله ليتولى شؤون قيادة العساكر المجهزة للقاء التتار وكان أيامها في الشوبك، فذهب إلى بغداد ملبياً استدعاء الخليفة. فلما وصل إلى دمشق بلغه دخول التتار إلى العراق وتدميرهم عاصـــمتها، فتـــرك رسول الخليفة إليه، ولم يتمكن من مقاومة العدو في ذلك الوقت ولا بعدها إذ أصابه طاعون تلك السفن ومات فيه. انظر: ابن الوردي، **تاريخ ابن الوردي**. ج2.ص 192. الكتبي، ابن شاكر، **فوات الوفيات والذيل عليها**. تحقيق إحسان عبـــاس. بيروت: دار صادر.1973. ج1.ص 425- 426

[5] الحاكم بأمر الله، وهو أحمد بن سلمان بن احمد بن الحسن القبي الذي يعود نسبه إلى العباس بن عبـــد المطلـــب. تـــولى الخلافة من سنة 742هـــ حتى عام 749هـــ إذ توفي بطاعون مصر في ذلك العام. انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت (764)هـــ: **أعيان العصر وأعوان النصر**. تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبة عمشة ومحمد موعـــد ومحمـــد ســـالم محمد.ط1. بيروت: دار الفكر المعاصر. ج1.ص 220-221

[6] وهو الأمير سيف الدين الجمدار الناصري، كان في صفد والياً، ثم أقام في مصر أمير جـــيش، وتـــوفي فـــي طـــاعون 749هـــ. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**. ج2. ص52. نفسه، **الوافي بالوفيات** . ج10. ص 288.

[7] وهو الأمير سيف الدين الناصري مملوك الملك الناصر حسن، وليّ نيابة طرابلس ثم حمص ثم أصبح أمير جيوش دمشق ثم تولى نيابة غزة حتى مات فيها في الطاعون 764هـــ. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**، ج2. ص142-144.

[8] وهو الأمير سيف الدين السلاح دار، أحد أمراء الجيوش بدمشق، توفي بطاعون عام 749. الصفدي، **أعيـــان العصـــر**. ج1. ص636 . نفسه، **الوافي بالوفيات**، ج9.ص442.

[9] وهو حسام الدين لاجين وكان أمير جيش في دمشق ومصر، وقد توفي في طاعون مصر عام 664. الصفدي، **أعيـــان العصر**، ج4.ص182. نفسه. **الوافي بالوفيات**. ج24.ص389.

[10] وهو الأمير سيف الدين الناصري، أقام في حلب أميراً، حتى توفي في طاعونها عام 749هـــ. الصفدي، **أعيان العصر**. **ج**1.ص672.

الجانب الإيجابي للأثر السياسي

لقد كان للآثار السياسيّة للكوارث الطبيعيّة جانب إيجابيّ، تمثّل في التأثير في الأمــراء والسلاطين و الخلفاء ، وبدا أثره على العسكر أيضا. فالخلفاء كــانوا يســتجيبون للنــداء فــي الملمّات، ويخرجون للدعاء والتضرّع لله لرفعها، ومن ذلك خروج الخليفة لصلاة الاستسقاء مع العامة والخاصة عندما أصاب مصر القحط في أثناء توقّف النيل عام 775 ه.[1]

واهتمّ السلاطين والأمراء بالمحافظة على استقرار البلاد خوفا من ثورة داخلية أو موالاة للأعداء، فقاموا في وقائع مختلفة بطرح المكس لسلعٍ متعدد تخفيفا منهم على النــاس أعبــاءهم الماليّة في ظروفهم السيئة[2]

وقاموا بتفريق فقراء الناس على أغنيائهم لسّد الحاجة[3]، وفــرّق الســلطان الصــعاليك والحرافيش في البلاد على الأمراء[4].

أمّا العسكر، فقد ابتلى الله جنود التتار والفرنجة بملمّات كسرت شوكتهم وكفَــت جنــد المسلمين القتال وحفظت أمنهم، ومن ذلك أن تسببت ريحٌ عظيمة بغرق مراكب للفرنجة جــاءت لنصرة التتار على المسلمين عام 668 [5]كما تسببت ريح هوجاء قلعت الأشجار من مكانها إلــى غرق مراكب للفرنجة كانت تريد الوثوب علــى ســواحل المســلمين فــي عــام 747هـــــ[6].

وتسببت ثلوج كثيفة بعودة التتار من بلاد حلب، عندما لم ينالوا أربهم إذ "تواترت عليهم الثلوج وعدمت عنهم الأقوات والمراعي، وانقطعت بإقامتهم البواعث والدعاوي فرجعوا خائبين"[7]

---

[1] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق 2. ص124

[2] انظر: الذهبي، **دول الإسلام. ج3**. ص145. ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق 2. ص 192.

[3] بيبرس المنصوري، **زبدة الفكرة**. ص306

[4] المرجع السابق، ص 306. العيني، **عقد الجمان**. ج3.ص302. ابن دقماق، صارم الــدين إبــراهيم بــن محمــد بــن أيدمر:**النفحة المسكية في الدولة التركية.تحقيق عمر عبد السلام تدمري** .ط1.بيروت:المكتبة العصرية للطباعة و النشر. 1999.ص 214

[5] انظر: أبا الفداء، إسماعيل بن علي بن أيوب ت(732هــ): **المختصر في تاريخ البشر المعروف بتاريخ أبــي الفــداء**. د.ط. بيروت: دار المعرفة. د.س.ج3 . ص 151

[6] النويري، **نهاية الأرب**، ج39. ص 50. المقريزي، **السلوك**.ج1. ق2. ص 584

[7] المنصوري، **زبدة الفكرة**. ص 351

الآثار الثقافية

ازدهرت الحياة العلمية والفكرية في العصر المملوكي، وكان ذلك ناتجاً عن أسباب متعددة، منها اهتمام السلاطين المماليك بالعلم والعلماء ووقفهم الأوقات لصالحهم، وشعور هؤلاء العلماء بواجبهم تجاه تراث أمتهم [1].

وقد أثّرت الكوارث الطبيعيّة في الجانب الثقافيّ للدولة المملوكيّة الأولى كغيرها من النواحي، ويبدو الأثر السلبي للكوارث الطبيعية واضحاً في منشآت الدولة الثقافية والعلمية، و في علمائها ومفكريها.

ويُقصد بها الأماكن التي يتلقى فيها الناس علمهم ويتبادلون ثقافاتهم العامة والخاصة، كالمساجد والكنائس والمدارس والروابط والخوانق وغيرهما.

ومن الكوارث التي كان لها أثر في المنشآت الثقافية والعلمية، سيل عام 686هـ، إذ دخل الماء إلى الحرم الشريف وأخرب ما بداخله[2].

وفي سيل بعلبك عام 717 هـ تهدم عدد من الجوامع منها الجامع الأموي،وأتلف فيه المصاحف وكتب الحديث الشريف[3]. و هدم ثلاثة عشر مسجداً آخر وعدداً من المدارس[4].

ومن ذلك أيضا الزلازل، ففي زلزال عام 702هـ، الذي هدم منارات الجوامع وجدرانها ومنها منارة الجامع الحاكمي، فأسقط أكثر جدرانه وانشقت منارة المدرسة المنصورية بالقاهرة،ومنارة جامع الفاكهانيين، ومنارة جامع الصالح بن رزيك،وتشققت جُدر جامع عمرو بن

---

[1] انظر: سلام، محمد زغلول: **الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى (648-783هـ)**. القاهرة: دار المعارف. 1971. ص106

[2] انظر: ابن الفرات، **تاريخ ابن الفرات**. ج8. ص 51

[3] انظر:أبا الفداء، **تاريخ أبي الفداء** . ج3 .ص 82

[4] انظر: المصدر السابق. ص 82

العاص، وهدم شيء كثير من منابر الجوامع والمساجد في مصر والقاهرة[1]، وفي زلزال 741 ه تهدّمت جوامع ومآذن كثيرة [2].

كان للعلماء والأدباء دورٌ بارز في أثناء انتشار الكوارث الطبيعية في البلدان الإسلامية في ذلك العصر، فقد كان القاضي والفقيه يقوم على موعظة الناس وحثّهم علــى العــودة إلــى الله،ففي طاعون عام 749ه " أشارت العلماء أنّ الناس تخرج قاطبة إلى الصحراء، تحت الجبل الأحمر، ويفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء؛ فخرجت الناس قاطبة "[3]. وكانت الناس تلجــأ إلــى الشيوخ والفقهاء بعامّة ، وأحيانا تلجأ لمن عُرف من الناس بالصلاح والتقوى، لدرجة أنّ بعضاً من هؤلاء اقترن اسمه بإحدى الكوارث، ومن ذلك ما وردَ عن رجل، أنّه لمّا " توقّف النيل عن الزيادة، توجّه إليه الناس، وسألوه أن يدعوَ إلى الله تعالى بأن يفي النيل، وأن يمنّ عليهم بالزيادة عن قريب؛ فدخل إلى خلوته، وخرج إلى الناس في اليوم الثاني وهو يقول: وفا وفا، فلذلك يسمّى سيدي محمد وفا"[4]

وساهمَت الكوارث الطبيعية وما أدت إليه من قحط وغلاء وانتشــار للمجاعــات، فــي إضعاف الحركة العلمية والثقافية، جرّاء ما لحق بأصحابها من سوء الحال وانتشــار المــرض والموتان.

ومن سوء ما حلّ بالعلم والعلماء، انهيار قيَمهم الثقافية أمام ما وقع فــيهم مــن جــوع، اضطرهم أحياناً لبيع علومهم مقابل الخبز، ففي غلاء عام 694هـ، فُقدت بمدرسة الفاضــلية بالقاهرة جملةٌ عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مئة ألف مجلد، " وكان أصــل ذهابها أن الطلبة التي كانت بها لما وقع الغلاء بمصر سنة أربع وتسعين وســتمائة والســلطان

---

[1] انظر: الداوداري. **كنز الدر**. ج9. ص 101

[2] انظر: الحنبلي، أبو الفلاح بن عبد الحي ابن عماد (1089هـ):**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. ط2. بيــروت: دار المسيرة العلمية. ج6. ص 127

[3] ابن إياس، **بدائع الزهور**.ج1.ق1. ص 531

[4] المصدر نفسه، ج1، ق2. ص 6

يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوري مسّهم الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب "[1]

وأدت الكوارث الطبيعية إلى موت عدد كبير من العلماء والأدباء، الذين اكتفى المؤرّخون بذكرهم دون تفصيل، كموت شيخ في صاعقة على مسجد[2]، لكنّهم فصّلوا في أسماء آخرين وصفاتهم، وترجموا لهم.

وشملت ترجمات هؤلاء العلماء والأدباء مناحيَ عديدة، كالفقه والنحو والشعر والخطابة والرياضيات والموسيقى وغيرها، وكان الواحد منهم يميزه أكثر من علم، فلقد كان العلم موضوعاً لديهم أكثر منه تخصصاً كما في أيامنا هذه، ومن هؤلاء الشاعر والشيخ ابن مكتوم النحوي، [3] والشاعر ابن عماد الدين بن أبي الخوف المعروف بعكوك أو عوكل[4] وشهاب الدين أبو العباس الضرير المعروف بالمادح،[5]ومنهم أيضا شهاب الدين الحاجبي[6] وأبو العباس شهاب

---

[1] المقريزي: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية**، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة، القاهرة: مدبولي .1997. ج2 . ص297.

[2] انظر: ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج1. ص323.

[3] وهو أحمد عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي، الشيخ الإمام العالم الفريد تاج الدين، المعروف بأن مكتوم النحوي اشتغل بالحديث وفنونه، وكان بارعاً في النحو قائماً على غرائبه، عمل تأريخاً للنحاة وله كتاب (الدر اللقيط من البحر المحيط) من مجلدين، نظم الشعر ومات في طاعون مصر عام 749هـ. الصفدي، **أعيان العصر**. ج1. ص 265

[4] وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر، شاعر فقير الحال، أبدع في المطالعات وكان يحفظ من شعر المتأخرين كثيراً، وله فضل في جمع شعرهم، وكان جيد النقد في القريض، توفي في طاعون 749هـ في دمشق وهو في الأربعين من عمره. الصفدي، **أعيان العصر**. ج1. ص 364. نفسه **الوافي بالوفيات**، ج8. ص160.

[5] وهو أحمد بن مسعود بن أحمد بن محمود بن بَرشق، وكان كثير المدح للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ضرير العينين، كانت له قدرة عظيمة على النثر وصفه الصفدي أنه كان "يبدع في أسلوبه فينظم قصيدة في كل بيت منها حروف المعجم، أو في كل بيت في كل كلمة من ضاد أو حرف ظاء، أو غير ذلك من الحروف التي مالها في دور الكلام اعتضاد"، توفي في طاعون مصر 749هـ. الصفدي، **أعيان العصر**. ج1، ص388-389، نفسه. **الوافي بالوفيات**. ج8. ص179. العسقلاني، **الدرر الكامنة**. ج1. ص337.

[6] أحمد بن محمد بن شهاب الدين المعروف بالحاجبي، له شعر بالمعاني الغامض والنظم الحلو القريب من القلب، توفي في طاعون 749 في مصر. الصفدي، **أعيان العصر**. ج1. ص366-369. نفسه، **الوافي**. ج8. ص161.

الدين ابن الأنصاري[1]، والبهاء زهير الشاعر المعروف.[2]

وقاضي القضاة تاج الدين السبكيّ[3] وخليل بن أيبك الصفدي الأديب والشاعر المعروف،[4] والإمام نجم الدين الدهلي[5]،و العلامة علاء الدين الحنفي الصوفي[6]، و الإمام الشاعر ابن

---

[1] وهو أحمد بن محمد بن قيس أبو العباس ابن الظهير الشيخ الإمام شهاب الدين بن الأنصاري شيخ الشافعيين بالديار المصرية مولده في حدود الستين والستمائة، وتفقه على الظهير وسمع من ابن الخطيب المزة ومات على تدريس المشهد الحسيني بالقاهرة في يوم عيد الأضحى سنة تسع وأربعين وسبعمائة شهيداً بالطاعون. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771): **طبقات الشافعية الكبرى**. بيروت: دار المعرفة . ج5 . ص 62.

[2] وهو البهاء زهير بن محمد بن علي بن يحيى الصاحب المنشئ أبو الفضل وأبو العلاء الازدي المهلبي المكيّ ثم القوصي الكاتب، وله ديوان معروف، ولد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة، بمكة، كتب الانساب للملك الصالح نجم الدين ببلاد الشرق، فلما تسلطن بلغّه أرفع المراتب ونفذه رسولاً، ولما مرض بالمنصورة تغير عليه وأبعده، وكان سريع التخيل والغضب والمعاقبة على الوهم، ثم اتصل البهاء بالناصر حاجب الشام وله فيه مداح"، توفي في طاعون 656. الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ت(748هـ)، **العبر في أخبار من عبر**. ط1. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1997. .ج2. ص24.

[3] وهو قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي، ولد عام 727 في القاهرة، أجازه شمس الدين بن النقيب بالإفتاء والتدريس ثم اشتغل بالقضاء وعُزل وأعيد إلى القضاء غير مرّة، وولي الخطابة، وحصلت له فتنة سجن في القلعة أثرها مدة ثمانين يوماً ثم عاد إلى القضاء، درّس في كبرى المدارس والجوامع في مصر والشام، برع في الفقه والحديث والأدب والعربية، وكان ذا بلاغة وجرأة عالية، نال مناصب عليا لم ينلها قاض قبله، لكنه أوذي بسبب مهنته أذىً كبيراً لكنه كان شجاعاً وكريماً ومتسامحاً، له كتب وتصانيف عديدة مثل شرح مختصر ابن الحاجب، توفي في طاعون عام 771هـ وهو في الرابعة والأربعين من عمره. الحنبلي. **شذرات الذهب**. ج6. ص221-222.

[4] وهو خليل بن أيبك بن عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدي، ولد سنة 696 أو 697هـ، مَهَر في الترجمة ثم بَرَعَ في الأدب والخط ونظم الشعر والنثر والتواقيع، أخذ علمه عن شهاب الدين محمود وابن سيّد الناس وابن نباتة وأبي حيان وغيرهم، ألف كتباً كثيرة منها كتب عُنيت بالتراجم كالوافي بالوفيات، واعيان العصر وأعوان العصر، وألف كتباً كألحان السواجع بين البادي والمراجع، وتصانيف مثل جنان الجناس وغيرهما، له مئات المجلدات يُختلف في عددها، مات في طاعون عام 764 في دمشق. انظر: السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى** ج6.ص94.العسقلاني، **الدرر الكامنة**. ج2. ص176-177، ابن عماد الحنبلي، **شذرات الذهب**. ج6. ص210.

[5] وهو سعيد بن عبد الله العالم الحافظ نجم الدين أبو الخير الدهلي الحنبلي، تنقل بين العراق والشام ومصر في طلب الحديث، كان عالماً بالتراجم والوفيات وما فيها من اختلاف في الروايات، وهو أمرٌ لا يعتني به إلا القليل، توفي في طاعون دمشق عام 749هـ. الصفدي، **أعيان العصر**، ج2 .ص 408-409، نفسه، **الوافي بالوفيات**. ج15. ص233، العسقلاني، **الدرر الكامنة**. ج2. ص228.

[6] وهو علي بن محمود بن حميد العلامة البارع علاء الدين أبو الحسن القنوني الحنفي الصفدي، سمع من العلماء كالحجار والجزري ثم أصبح علاّمة ذا قدرٍ وافر وتواضع عالٍ، عرّب لديوان الإنشاء الكتب الأعجمية التي كانت ترد إليه، تولى مشيخة الشيوخ مكان قاضي القضاة شرف الدين المالكي، ووافته المنية 749هـ في طاعون دمشق. الصفدي، **أعيان العصر**، ج3. ص542-543. نفسه، **الوافي بالوفيات**. ج22. ص188.

الوردي[1].

والقاضي علاء الدين بن الآمدي[2]، الشاعر عمر بن آقوش المعروف بابن الحسام الافتحاري[3] ، والشاعر والعالم محب الدين المغربي المعروف بابن الصائغ.[4]

وعلى الرغم من هذه الآثار السلبية على العلماء والأدباء، إلّا أنّ الكوارث الطبيعيّة حرّكت قرائح الأدباء والشعراء، فأبدعوا في التعبير عنها شعراً و نثراً، وتناولوا الكارثة بأسبابها وصوَرها و آثارها، منوّعين في أساليبهم و نوع الفن الذي استخدموه، فمنهم من كتبَ في الشعر فقط، ومنهم من زاوج بين الشعر والنثر، أمّا في الشعر، فمنهم من نظمَ أبياتاً متفرّقة وهي كثيرة ومتنوّعة، ومنهم من رصد للكارثة قصيدة كاملة نظمها في وصفها وبيان تأثيرها، وعددها أربع قصائد.

أما في النثر، فقد ظهرت الرسائل والمقامات والقصص الواقعيّة والخياليّة والخُطب، وقد أكثر الأدباء من وصف الكارثة في الرسائل، التي أتاحت لهم التفصيل في وصفها وعكس

---

[1] عمر بن مطفّر ابن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، الشيخ الإمام الفقيد النحوي الأديب الشاعر الناثر زين الدين أبو حفص بن الوردي المعريّ الشافعي، كان فقيهاً وأديباً وشاعراً فاضلاً ومتميزاً، متفنناً في العلوم مجيداً لشعره ونثره، تولّى القضاء في حلب، وترك أمر الولايات ورفضها، وبقي يزوّد الطالبين بعلمه و أدبه، وكان آخر ما كتبه رسالة مبدعه أسماها (النبا عن الوبا) تتحدث عن الوباء في حلب عام 749هـ، وهو عينه الطاعون الذي توفي فيه في السنة ذاتها. الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص 677-608، نفسه، **الوافي بالوفيات**. ج3، ص157، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد **ت** (852ه): **الدرر الكامنة**. القاهرة: دار الكتب الحديث . ج3. ص272. السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**. ج6. ص243، الحنبلي. **شذرات الذهب**. ج6. ص161.

[2] وهو علي بن إسماعيل بن جعفر، إمام الحساب، فما يكاد المرء ينطق بتفاصيل الشيء حتى يحسبها له، عمل في الديوان الأوقاف، ولم يكن بين كتاب المسلمين له نظير في عصره، فكان عالماً بما أعطاه الله من تألق في الكتابة وسرعة وعدم تأنٍ في الحساب، توفي عام 764 هـ في طاعون دمشق. الصفدي، **أعيان العصر**. ج3. ص301.

[3] هو زين الدين أبو حفص الشبلي الدمشقي الذهبي الشافعي، ولد عام 684هـ، كان ينظم الشعر، ويسمع الحديث، وكان حسن الصحبة طهور اللسان، توفي في طاعون دمشق عام 749هـ. الصفدي، **أعيان العصر**.ج3.ص598، نفسه، **الوافي بالوفيات**.ج22. ص437، الكتبي، **فوات الوفيات**.ج3. ص131.

[4] وهو محمد بن عبد الله بن محمد الأموي المروي، كان شاعراً جزلاً، وعالم لغة فريد يعرف غوامض الكلام وعامته، وكان على معرفة تامة بالعروض، تعلم الحديث الشريف على يد شيوخ ونحويين، فبرع في اللغة وجاء بالفريد منها. الصفدي، **أعيان العصر**، ج4. ص540. نفسه، **الوافي بالوفيات**. ج3.ص375. الحنبلي، **شذرات الذهب**. ج6.ص165.

آثارها، ومناجاةِ من وَجّهوا إليهم رسائلهم، وكانت معظمها تأتي على صـــورةِ مكاتبـــاتٍ بـــين أديبين، يصف كلّ منهما ما رآه و عانى منه.

وقد عكست تلك الفنون صدى الكوارث الطبيعيّة في نفوس الناس، وفي كلّ مـــا يحـــيط بهم، عندما شاهد الأدباء وسمعوا ما حلّ بالعالم الإسلاميّ في ذلك الحين.

الفصل الثانـي

الدّراسة الموضوعيّة

الفصل الثاني

الدّراسة الموضوعيّة

يُعدُّ الأدب الذي تحدّث عن وَصف الطبيعة من أبرزِ الأغراض التي نظمَ فيها الشــعراء وكتب عنها الكتّاب على مرّ العصور، فوصفوا مظاهر الطبيعة التي لفتت انتبــاههم وداعبــت خيالهم وغيّر أمزجتهم، ووصفوا في الوقت نفسه مظاهر الطبيعة القاسية بوجهٍ لا يشبِهُ وجههــا الباسم الهادئ، بل بوجهٍ عبوس لا يوجدُ فيه تلكَ الدعةَ والراحةَ وذلكَ الأمانَ والرفقَ، وغيرَ ذلكَ ممّا وجدتهُ في حديثهم عن وجهِ الطبيعةِ الباسم.[1]

وانبرى الشعراء والكتّاب من خلالِ ما نظموا وكتبوا، بالحديثِ عن الكوارث و النَكبات الطبيعيّة التي ألمّت بالعالم العربيّ والإسلاميّ، وفصّلوا الحديث فيهــا، فكتبــوا فــي أسـبابها، وصوّروا أثرها، وأجملوا نتائجها، وفي الآتي عرضٌ مفصّلٌ لذلك كلّه:

الصورة العامّة للكارثة

لقد تحدّث الأدباء عن جوانب مختلفة للكارثة الطبيعيّة، ففسّرها بعضهم، وتحدّث آخرون عن انتشارها وعمومها، وعبّر آخرون عن شدّتها وعنفها، و في الآتي تفصيل في ذلك:

أوّلا: تفسير الكارثة

تعدّدت الكوارث الطبيعيّة التي لاقت صدىً في أدب العصر المملــوكي الأوّل، وكانــت الطواعين هي الكارثة الأبرز انتشاراً في الأدب، يليها الحديث عن الزلازل التي ضَرَبت بكــلّ قوّتها كلّ ما على الأرض وما شابهها مثل بركان المدينة المنوّرة، فعبّر الأدباء عن رأيهم فــي تفسيرِ الكوارث الطبيعيّة التي عاصروها، أو عايشوها، أو سمعوا عنها، فبرزت أسبابٌ عزاهــا بعض الأدباء إلى الطبيعة، كالمقريزي الذي أوضَحَ أنّ ما يحدثُ من قحطٍ وأوبئة " إنّما يحــدثُ من آفاتٍ سماويّة في غالب الأمر كقصورِ النيل بمصر، وعدمُ نزول المطر بالشــام والعــراق

[1] انظر: الهيب، أحمد فوزي: **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**. ط1. بيروت: مؤسسة الرســالة. 1986. ص 335

والحجاز وغيره، أو آفةٍ تصيبُ الغلال من سمائم تحرقها أو رياحٍ تهيّفها، أو جرادٍ يأكلها، أو ما شابه ذلك "[1]، بل كانت لهم نظرةٌ وتحليلٌ خاص.

ورأى المقريزي كغيره من الأدباء أيضا، أنّ أسباب الكوارث تعود إلى البعدِ عن الــدين والأخلاق الحميدة، فوجّه النقدَ إلى بعضِ السوكيات السلبيّة التي كان الناس يقومون بها، ما جلبَ عليهم وعلى غيرهم هذه الغمّة، يقول:

"هذه سنّة الله تعالى في الخَلقِ إذا خالفوا أمره، وأتَوا محارمه، أن تصيبهُم بذلك جزاء ما كسَبت أيديهم"[2]. ومن الأمثلةِ على ذلك أيضا، ما نظمه ابن الوردي في طاعون 749هــ:

قــــالوا فَســــــادُ الهَـــوَى يُــــرْدِي   فَقُلْـــــتُ يُـــــرْدِي هَـــوى الفَســـــادِ
كَــــــمْ سَــــــيّئاتٍ وكَــــــمْ خَطايــــــا   نــــــادى عَلَـــيْكُمْ بِهـــا المُنـــــادي[3]

في البيتين السابقين، يفصحُ الشاعر عن رأي العامّة بالطاعون، فهو في رأيهــم كارثــةٌ سبّبها الهواء الفاسد الذي ينقلُ المرضَ من منطقة إلى منطقة، لكنّ ابن الوردي يردّ علــيهم ، أنّ الفسادَ الأخلاقيّ هو الذي أوصل الناس إلى هذه النتيجة، لكثرةِ سيّئاتهم وخطاياهم التي جعلــت قدَرَهم يأتي على هذا النحو

. ويورد ابن الوردي في أبياتٍ لَه كيفَ يُقرُّ الناس بذنوبهم في أثناء الكوارث الطبيعيّة، فيرونَ أنّ ما فعلوه من ذنوبٍ قد استوجبَ عليهم هذا العقاب، ألا وهو الكارثة، وفي ذلك يقــول في طاعون 749هــ:

إنّــــا اعتَرفنـــا بِالــــذُّنوبِ كُلُّنـــا   عـــاصٍ مُســـيءٌ للعَـــذابِ اســـتَوجَبا
إن كـــانَ لا يَرْجـــوكَ إلّـــا مُحْسِــــنٌ   فــي العــالَمينَ فَمَــنْ يُجيــرُ المُــذْنِبا[4]

---

[1] المقريزي: **إغاثة الأمّة بكشف الغمة**. دراسة وتحقيق كرم حلمي فرحات. القاهرة: عين للدراسات. 2007.ص 115

[2] المصدر السابق. ص 115

[3] ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى :**الديوان**. تحقيــق أحمــد فــوزي الهيــب . ط1 . الكويــت : دار القلــم . 1986.ص87

[4] المصدر السابق. ص 372

يعكس ابن الوردي في هذين البيتين إيمانه وإيمان الناس الكامل بالله تعالى، فهم مسيئون بحق الله تعالى، ولذلك استحقّوا ما أوقعه الله عليهم، لكنّهم يأملونَ الصفحَ عنهم حتّى لَو كانوا مسيئين.

ويتّفقُ الصفدي مع ابن الوردي في هذا التحليل، إذ إنّه يرى أنّ الناسَ كانوا في غفلةٍ من أمرهم، ولذلك حَقّ عليهم ما حلّ بهم، فيقول:

رَعَى الرَّحمنُ دَهْراً قَدْ تَولّى ... يُجازي بِالسّلامَةِ كُلّ شَرْطِ
وَكانَ النّاسُ في غَفَلاتِ أَمْرٍ ... فَجا طاعونُهُم مِنْ تَحْتِ إِبْطِ[1]

فالله تعالى كان يمهلُ الناس الذين يخطئون ويرحمهم، لكنّهم نسوه، فأرسلَ إليهم الطاعون، ردّا على غفلتهم.

وَيَرى البوصيري في بركان المدينة، أنّه غضبٌ من الله تعالى على عباده الذين أخطؤوا وأذنبوا، وغفلوا عن سنّة نبيّهم المختار أيضا، فيقول:

ولَمّا أَساءَ النّاسُ جيرَةَ رَبِّهِمْ ... ولَم يَرْعَها مِنْهُمْ رَئيسٌ وَلا وَغْدُ
أَرى لَهُم مَقاماً لَيسَ يُرعى لِجارِهِ ... ذِمامٌ ولَمْ يُحْفَظْ لِساكِنِهِ عَهدُ[2]

فالناس على اختلاف طبقاتهم لم يحسنوا في سوكياتهم وأخلاقهم، فأساءوا بذلك لدين الله تعالى ونبيّه الكريم .

ويتساءَلُ أديبٌ آخر عن تباهي الناس بسوء أعمالهم، وعدمِ تدبّرهم للقرآن وما فيه من أوامر ونواهٍ، وما فيه من ذكرٍ للموتِ وليومِ القيامة، يقول أحدُ الخطباء في زلزلة 702ه:" أيّها الناس، إنّ المعاصي كَثُرَ عمّالُها، حتّى تباهَيتُم في أعمالها، وفشَت في ساير الأرضِ وأعمالها

---

[1] الصفدي، خليل بن أيبك :**ألحان السواجع بين البادئ والمُراجع.** تحقيق محمد عايش . ط1. بيروت :دار الكتب العلمية.2007 . . **ج**1. ص 114

[2] البوصيري، محمد بن سعيد: **الديوان** .ط1. بيروت: دار المعرفة.2007. ص 86

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1] فلذلك ﴿زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾[2]، ﴿وَقَالَ الإنْسانُ مَا لَها﴾[3] ولولا رحمةُ الله لأخرجَت الأرضُ أثقالها، فيا لَها من ساعةٍ يالها "[4]

ويستشهد الخطيب في خطبته هذه بآياتٍ قرآنية ليدللَ على سوءِ عاقبة الناس الذين كثرت معاصيهم لربّهم، فحقّ بذلك عذابهم، فيقرنُ بينَ ما حصلَ معهم في هذه الزلزلة وبينَ الزلزلة التي وعدَ الله تعالى به عبادَه، وهي يومُ القيامة، وما يتبَعُها من أهوال.

ويُجمِلُ بعضُهم مِحَناً وكوارثَ حلّت بالناس خلال حقبة زمنيّة معيّنة، على أنّها إنذارٌ من الله تعالى. ومثال ذلك ما نظمه السيوطي بعد مجموعةٍ من الكوارث الطبيعية كان آخرها سيلُ 687هـ. يقول:

فَهذِهِ جُملَةٌ أَتَتْ نُذُراً مُسْتَوجِباتٍ لِلخَوْفِ وَالقَلَقِ
فَلْيَحْذَرِ النّاسُ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ بِالأوّلِينَ مِنْ حَنَقِ[5]

في هذين البيتين، يلخّص الشاعر نتيجة غير كارثة حلّت بالناس، كالسيلِ والقحطِ وهبوط النيل والزلازل، فلم يكن كلّ ذلك في رأيه إلّا نتيجةً لعصيان الله ، فهو ينذر الناس ويحضهم على الخوف والقلق على مصيرهم، ويحذرهم كي لا يحلّ بالناس ما حلّ بالأمم السابقة التي غضب الله سبحانه وتعالى عليها.

وتعكس بعض الأشعار، أنّ السبب في هذه الكوارث، هو إقبال الناس على شهوات الدنيا، رغم خوفهم من الموت، لكنّ الأولى تكون الغالبة دوما، فيقول أحدُ الشعراء في أثناء طاعون 749هـ:

تُرَوّعُنا الجَنائِزُ مُقْبِلاتٍ وَنَلْهو حينَ تَذْهَبُ مُدبِراتِ[6]

---

[1] سورة محمد، آية(24)

[2] سورة الزلزلة، آية(1)

[3]. سورة الزلزلة، آية(4)

[4] الدواداري، **كنز الدرر**. ج9. ص 102. مؤلف مجهول، **عصر السلاطين المماليك**. ص 137

[5] السيوطي،جلال الدين بن عبد الرحمن بن محمد: **حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة** ..بيروت : دار الكتب العلمية . 1997. ج1. ص 69

[6] ابن إياس ، **بدائع الزهور** .ج1.ق1.ص532

ويرى ابن الوردي في موضعٍ آخر أنّ الكوارث كلّها مقدّرة من عند الله سبحانه وتعالى أيضا، ويرى أنّها نزلت لتأديب الناس ووعظهم، فهو بذلك يؤمن بقضاء الله وقدره، فيقول في سيل أصاب دمشق:

إنَّ المَصائِبَ بالأقْدارِ كائنَةٌ لَكِنْ عَلَى حَسَبِ الأَقْدارِ تُحْتَسَبُ
وَإنْ دُهِمْنا بِسَيْلٍ أَوْ بِنَوعِ أَذى كَالثَّلْجِ وَالنّارِ حِرْنا ما هُوَ السَّبَبُ
أَقْسَمْتُ بِاللهِ لَولا حِلْمُ خالِقِنا لَكانَ مِنْ عُشْرِ ما نَأْتي بِهِ العَطَبُ[1]

لا يرى ابن الوردي غير القدر سببا لكلّ مصيبة تصيب الناس، والقدر شيء مكتوبٌ من الله تعالى، وأنّ أخطاء الناس هي السبب في هذه المصائب، لكنّ الله لطيف بعباده، إذ إنّ القليل من أعمالهم السيّئة، كفيلةٌ بإهلاكهم.

وهذا الإيمان يثبته في كارثة أخرى وهي زلزلة عام 744ه، فلقد عاقبت هذه الكارثة المحسنين أيضا ممّن لَم يرتكبوا المعاصي، لكنّهم مؤمنون بأنّها قدرٌ من الله، وَجب عليهم الصبر عليه، يقول:

قَد واثَبت بِالهَجم مَن لا عَصى وَعاقَبَت بِالرَّجمِ مَن لا زَنى
حُكْمُ عَزيزٍ قادِرٍ قاهِرٍ في كُلِّ حالٍ لَمْ يَزَل مُحْسِنا[2]

ويصوّر بعض الشعراء كيفَ عزا بعض الناس كالمنجّمين وعلماء الفَلَك، أسباب بعض الكوارث كيفما يَرَون، مؤكّدين على إصرارهم رَدّ الأحداث العظيمة في الكون إلى صاحب التدبير، إلى الله عزّ وعلا، وفي ذلك ينظم ابن الوردي في زلزلة عام 744هـ:

إنّي بِفِعْلِ اللهِ أوّلُ مُؤمِنٍ وَبِما قَضاهُ النَّجمُ أَوّلُ كافِرِ
كَذَبَ الحَكيمُ فَما لَهُ مِن قوّةٍ وَ ذَوو النُّجومِ فَما لَهُمْ مِن ناصِرِ[3]

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص183
[2] المصدر السابق. ص150
[3] المصدر السابق. ص 150

يُظهر الشاعر في هذين البيتين إيمانه بقضاء الله وقدره الذي تمثّل في هذه الزلزلة القوية، في الوقت الذي شاعت فيه آراء الحكماء وآراء المنجّمين، ويرجعونَ الرأيَ فيها إلى حركة النجوم، عن غير علم، وهم في نظرِ الشاعر مخطئون.

وليس عامّة الناس وحدهم العاصونَ، بل كان كثيرٌ من الساسَة يسيؤون و يَظلمون، وبذلكَ حقَّ عليهم غضب الله تعالى، بوقوع الكارثة عليهم، فبعض البلاد اشتهرت بظلمِ حكّامها، ومنها معرّة النعمان،[1] فقال ابن الوردي في ذلك:

رَأَى المَعَرَّةَ عَيْنَاً زَانَها حَوَرٌ لَكِنّ حاجِبَها بِالجَورِ مَقرونُ
ماذا الذي يَصْنَعُ الطّاعونُ في بَلَدٍ في كُلِّ يَومٍ لَهُ بِالظُّلمِ طاعونُ[2]

قالَ ابن الوردي هذين البيتين في طاعون عام 749ه، إذ إنّ الطاعون في ذلك الوقت، لم يكن قد دخل معرّة النعمان، وقد تناول ابن الودري هذه الواقعة وعزا سببها لظلم صاحب السلطة فيها، فإذا كانَ الطاعون يأتي على سكّان البلد فيتسلّط عليهم بجبروت فتكه، فإنّ هذه البلد قد يكفيها ما بها مِن الظلم الواقع عليها، فهو كالطاعون الدائم. ويظهر في البيتين السابقين، براعة الشاعر في اقتناص الحَدَث لنقد سلطان ظالم، فكلاهما محنةٌ على الناس، الطاعون و الحاكم الجائر.

وينقد الأدباء الحكّام مباشرة ، فيذكرون أسماءهم وصفاتهم، ويجعلون الكارثة الواقعة عليهم حجَّةً في النقد، ومن ذلك قصيده لشهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشارمساحيّ[3]في مدح السلطان الملك الناصر[4] يهجو فيها المظفر بيبرس[5]، وَالناس في أثناء فترة حكمه، يقول:

---

[1] انظر:عبد الرحيم ، رائد: **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي ت (749هـ) دراسة نقدية، مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية).** ع5. م 24 / 1503

[2] ابن الوردي،**الديوان**، ص89.

[3] هو شاعر مصري ولد سنة 663ه في منطقة شارمساح قرب دمياط ، توفي وهو شاب . انظر:الصفدي، **الوافي بالوفيات.** ج7.ص 36 . العسقلاني ، **الدرر الكامنة** .ج1. ص 174

[4] الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو أصغر أبناء أبيه، ولد عا 684ه ، تولى السلطنة وهو في التاسعة من عمره ، وأقصيَ عن الحكم غير مرّة. مات في عام 741 ه. الصفدي. **الوافي بالوفيات**.ج4. ص 353.

[5] ركن الدين بيبرس البرجي الجاشنكير، كان له ملك وسلطة في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، إذ استولى على السلطة بعدما انقلب عليه، لكنّ الناصر تمكّن منه وقتله عام 708ه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**.ج10.ص 349-350

فَقُلْ لِبيبَرْسَ إنَّ الدَّهْرَ أَلْبَسَهُ أثوابَ عاديَةٍ في طولِها قِصَرُ
لَمّا تولّى تَوَلّى الخَيْرُ عَنْ أُمَمٍ لَمْ يَحْمُدوا أَمْرَهُمْ فيها وَلا شَكَروا
وكَيْف تَمْشي بِهِ الأَحوالُ في زَمَنٍ لا النّيلُ وافٍ وَلا وافَهُمُ قَطَرُ[1]

يوجّه الشاعر نقده للسلطان بيبرس، فيبدو في نظره أنّه ليس أهلا للحكم، ويتّضح ذلك من خلال عَرضِه لحال مصر في ذلك الوقت، فالنيل متوقّف عن الزيادة فيها، والمطر مُنقطع، والناس غير مطمئنة وراضية عن ذلك، وبذلك فإنّ السلطان هو مَن تقعُ عليه مسؤولية هذه الظروف العصيبة التي تصيب الأمّة، فهو ليسَ كفئاً لإدارة البلاد، والدليل على ذلك، أنّ القصيدة نُظِمت في مَدحِ سلطانٍ آخر، أجاد حكمَ البلاد، فأحسن إدارة شؤونها.

وقد قال الناس في عهد بيبرس أشعاراً أخرى عاميّة، تناقلها الناس بينهم، ومن ذلك ما جاءَ على لسان العامّة في مصر:

سُلطانُنا رُكَينْ وَنائِبنا دُقَينْ يِجينا الماءْ مِنينْ
جيبوا لَنا الأَعْرَجْ يِجيء الماءْ وِ يِتْدَحْرَجْ[2]

في هذا الشعر الشعبيّ الذي يعتمد اللغة المَحكيّة، يظهر أنّ الناس كانوا ناقمين على السلطان بيبرس بسبب القحط وغلاء الأسعار ، فلقّبوه بالرُكين وهو تصغير لاسمه (ركن الدين)، ولقّبوا نائبه سلار [3]بالدُقين لقلّة الشعر في ذقنه، آملين أن يعودَ ليحكمهم (الأعرج) وهو الملك الناصر الذي كان يعاني من عَرَج في رجله.[4]

وقد أكّد على ذلك المقريزي الذي تناول بعض الكوارث الطبيعيّة في ذلك العصر بالعَرْض والتحليل، فيقول في هذا الشأن: " وكان قد ظهر الخلل في الدولة لقلّة المال وكثرة النفقات فتعدّدت المصادرات للولاة والمباشرين، وطرحت البضائع بأغلى الأثمان على التّجار"[5]

---

[1] السيوطي، **حسن المحاضره**.ج1.ص118. ابن تعزي بردي،**النجوم الزاهرة**،ج9.ص48.

[2] ابن تغري بَردي، **النجوم الزاهرة**،ج8.ص 189.

[3] وهو من أبرز أمراء المماليك في عهد الملك الناصر محمد، وكان نائب السلطة أيضا. توفي عام 710ه. انظر: الصفدي، **أعيان العصر**. ج2. ص 489

[4] انظر: في حاشية ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**.ج8.ص 189

[5] المقريزي، **إغاثة الأمة**. ص107. انظر أيضا: **صورة المجتمع في العصر المملوكي**. (رسالة دكتوراة غير منشورة) جامعة دمشق . 2006- 2007. ص36

يأتي رأي المقريزي هذا إبّان الغلاء في زمن السلطان كتبغا، يوم أقحطت البلاد بسبب قلّة المطر، فيرى أنّ الدولةَ قَد قصّرت في مهامها تجاه الناس في تلك الظروف، وأنّ ما حلّ بهم مردّه إلى سوء تدبير الحكّام، فالكارثة تحدث جدباً وقلّةً في الموارد والسِّلَع، لكنّ سياسة الحاكم في دولته هي التي تزيد الأمر سوءاً على الناس.

ومن الأسباب التي ذكرها الأدباء في نصوصهم، قرب يوم القيامة بظهور علامة من علاماتها التي ذكرها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، مثل وقوع بركان المدينة المنوّرة[1]، وقد قال في ذلك ابن قزل:

فَقُلْتَ كَلاماً لا يَدينُ لِقائِلٍ	**سِواكَ وَلا يَسْتَطيعُهُ رَبُّ مِقْوَلِ:**
سَتَظْهَرُ نارٌ بِالحِجازِ مُضيئَةٌ	**لأَعْناقِ عيسٍ نَحْوَ بُصرى لِمُجتَلي**[2]

يرى الشاعر في هذين البيتين أنّ النار التي انتشر شعاعها، وأرهبت الناس وآذتهم، قد تنبّأ الرسول الكريم بها مِن قبل، وهذا أمر لا يحدث لأشخاصٍ عاديين.

وصدْقُ النبوءة هذا هو الأمر الذي اعتمد عليه غير شاعر، ليكونَ مقدّمة للحديث عن أثر الكارثة، فها هو الصرصري يصوّر إيمانه بما ورد عن النبيّ الكريم في هذه النار، فيقول:

لَعُمري لَقَدْ شاهَدْتُم صِدْقَ وَعْدِهِ	**بإظهارِ نارٍ مِنَ الحِجازِ تَوعّرا**
رَواهُ البُخاري الصَدوقُ وَمُسْلمٌ	**بِأَنّ رَسولَ اللهِ قالَ مُخَبّرا**
سَتخرُجُ نارٌ بِالحِجازِ مُضيئَةٌ	**بِبصْرى لِأَعناقِ الركائبِ تُبصَرا**
فَشاهَدْتُمُ مَرأىً فَظيعاً وَ شِدّةً	**تَكادُ لَها الأَحشاءُ أَنْ تَتَفطَّرا**
أَيْنَ مَجالُ الشَكّ فيهِ وَمَنْ يَعِشْ	**يَرى الشّمْسُ حَيْثُ الغَرْبُ طالِعةً تُرى**[3]

في هذه الأبيات يُقسم الشاعر بصدق نبوءة الرسول الكريم، التي وردت في صحيحي الحديث الشريف، وهي نارٌ عظيمة الانتشار، فلم يقتصر أثرها على منطقة واحدة، لذلك فهو يجدُ

---

[1] إشارة إلى الحديث: "لا تقومُ الساعةُ حتّى تخرجَ نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى" . البخاري، محمد ابن إسماعيل ت (256هـ): **صحيح البخاري**. بيروت: دار إحياء التراث. ج9. ص73

[2] **ابن** قزل، سيف الدين المشد علي بن عمر: **الديوان**. تحقيق مشهور عبد الرحمن الحبازي . القدس : مركز التعاون والسلام الدولي . 2003 .ص337

[3] الصرصري، جمال الدين يحيى بن يوسف :**الديوان**. تحقيق مخيمر صالح.إربد: جامعة اليرموك.د.س.ص 172

في هذه النار وعداً على المسلمين، ولا بدَّ أن يراهُ الناس ويعانوا من أثره، فيكونُ هــذا الوعــد الصادق من النبيّ الكريم مدخلاً ليكون باباً لعفوه.

وَوُجدت أسبابٌ تتعلّقُ بالجانب الغيبيّ، وتُعزا إلى ثقافةِ المجتمعِ الســائدة، التــي يقــومُ بعضُها على الإيمانِ بالجن، ودورهِ في التأثيرِ في حياة البَشَر، وكان رأيُهم هذا مستنداً إلى حديثٍ شريفٍ للرسولِ صلّى الله عليه وسلّم،[1] لم يَثبُت وجوده في الصحيحين، لكنّه ذُكرَ فــي أســانيدَ أخرى، يقول: " الطاعون وَخزُ أعدائكم من الجن "[2]

ففي قصّةٍ تناقلها الناسُ بينهم في أثناءِ طاعونِ 745ه، أنّ رجلاً: " رأى الجنَّ عياناً على جبلٍ كالجراد المُنتَشر، و بأيديهم رماحُ بعضِ أزقة الصالحية[3]، وطاعَنَهم وطاعَنوه، وصارَ يحدُّ بذلك، ويحلفُ عليهِ الناس، والناسُ بينَ مصدِّقٍ و مُكذّب، ولَم يلبَث أن طُعِنَ ومات، وَرُؤيَ فــي بدنهِ أثرُ الطَعَنات "[4]

في هذه القصّة الشعبيّة، يظهرُ مدى تأثّر الناس بالحديث الشريف، لدرجةِ أنّهم نَسَــجوا قصصاً عن وجود الجنّ وتأثيره في وجود هذا المرض الفتّاك، فالرجلُ يحلفُ أنّــه رأى الجــنّ عياناً، وأنّهما طاعنا بعضهما، وأرَى الرجلُ الناس آثار هذا الطعن، ما جعل الناس في حيرةٍ من أمرهم، إذ إنّ الثابتَ أنّ الجن كائنات لا يستطيع الإنسانُ رؤيتها بعينه المجرّدة، لكنّها بقيت قصّةً تعبّر عن سبب الطاعون، تلك الكارثة التي أذهلت الناس وروّعتهم، على الرغم من أنّ سببها لَم يستَنِد إلى حديثٍ صحَّ ذكرهُ في الصحيحين، ولا إلى تفسيرٍ يقبلهُ العقلُ والمنطق.

ثانيا: انتشار الكارثة في البلاد

ذَكَرَ الشعراء والكتّابُ في نصوصهم الأماكن التي وقعت فيها الكارثة ووصــلت إليهــا، وذلكَ للتدليلِ على انتشارها، وعِظَمِ بلائها؛ إذ لَم تنحصر في مكان واحد.

---

[1] العسقلاني، **بذل الماعون في فضل الطاعون**. ص118-119

[2] ابن حنبل، أحمد بن محمد: **مسند الإمام أحمد ابن حنبل**. م4. ط1. بيروت: دار الفكر. د.س.ص 295

[3] قرية في دمشق، انظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**. ج3. ص390

[4] السخاوي، **وجيز الكلام**. ج1 .ص 199

ويُظهر بعض الأدباء كيف وصلت الكارثة إلى أماكنَ واسعةٍ في العالم الإسلاميّ، وكان للطواعين النصيب الأكبر في ذكرِ المناطق التي وصلت إليها الكارثة، ومما ورد ذكرهُ في الطواعين، ما كتبه ابن الوردي في طاعون عام 749هـ في مدينة حلَب، وهي المدينة التي كتَب رسالة " النبا عن الوبا " في طاعونها، فيقول:

إنّ الوَبا قَدْ غَلَبا وَقَدْ بَدا في حَلَبا[1]

يتحدّث الشاعر عن شدّة الطاعون الذي وصل إلى مدينة حلب، فهو غالب على مظاهر الحياة فيها،ثمّ يذكرُ مدناً أخرى في الشام وصلها الطاعون، منها مدينة حماة. يقول:

يا أيُّها الطّاعونُ إنَّ حَمَاةَ مِن خَيرِ البِلادِ ومَن أعزِّ حُصونِها
لا كُنتَ حين شَمَمتَها فَسَمَمتَها ولَثَمتَ فاهاً آخِذاً بِقُرونِها [2]

يبرز الشاعرُ أنّ حماةَ من أفضلِ البلاد، وأكثرها حصانة وقوّة ومنعة، لكنّ الطاعون استطاعَ أن يدخلها، ويصوّر ابن الوردي في البيت الثاني دخوله إلى مدينة حماة، وكأنّ حماة فتاة شريفة جاءها الطاعون مغتصباً، موضّحاً الطريقة التي يفتك بها الطاعون بالناس، وهو استنشاقُ الناس للهواء الفاسد، فيدخلُ السمّ إليهم، ويصيبهم بالوبا.

ولَم يحصر ابن الوردي الكارثة في العالم العربي والإسلامي فحسب ، بل إنّ طاعون 749هـ، الذي استمرّ زمَنه خمسة عشر عاماً [3]، وشمل دولاً وقارات و ابتدأ خبره من "ماصين عن الصين".[4] وشمل أراضيَ في الهند وما تلاها من بلدان كثيرة ووصل قارة افريقيا و أوروبا أيضاً.[5]

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص 90

[2] المصدر السابق. ص 89

[3] المصدر السابق. ص 86

[4] المصدر السابق. ص 86

[5] ابن الوردي ، الديوان .ص87. انظر أيضا: عبد الرحيم ، رائد: **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي ت (749هـ) دراسة نقدية. ص**1499

ويتحدّث الصفدي أيضا عن سير الطاعون في بلاد الشام بادئاً من مدينة غزة، فقال في وصول الطاعون للشام شعرا:

قَـــدْ قُلْـــتُ لِلطّـــاعونِ وَهُـــوَ بِغَـــزّةٍ قَدْ حـــالَ مِـــنْ قَطْيـــا[1] إِلـــى بَيْـــروتِ[2]

ووضّح الصفدي مسير هذا الطاعون في الشامِ نثراً إذا قال:

"أولّ ما دخل هذا الطاعون إلى الشام من غزّة، وأدخل إصيبع كل أحد في رزيّته [3]تحت رزّة، وفعل فيها وفي تلك الناحية ما فعل، ورمى فلم يخطئ المقاتل كأنّما هو رامٍ من بني ثُعل[4]، وما قُطّ عنها حتّى وثب إلى قطيا، وبات يبري سهامه في بيروت بريا ".[5]

يظهر الصفدي في الفقرة السابقة، تأثير الطاعون في الشام، إذ دَخَلَ إلى مدينة غزّة التي يشكّل موقعها مكاناً استراتيجياً واصلاً بين قارتي آسيا وافريقيا، أو بينَ مصر والشام على وجه الخصوص، وشبّهه وكأنّه مقاتلٌ هُمام لا تُخطى رميتُه، ولا يتوقّف عند حدٍّ معينّ، بل إنّ فتكَـــهُ امتدَّ إلى قطيا، وبيروت شمالاً.

ويصف البوصيري تأثير بركان المدينة المنوّرة على محلّة بصرى، فيتوهّج ضوء النار القادم من المدينة شدّة وخُفوتاً، كما لو أنّها البصرة العراقية في مدّ بحرها وجزره، فتضيء مـــن شدّتها الليل ويرى أهلها الإبل العتاق كأنّهم في وَضَح النّهار، فهي في شدّتها وانتشارها في غيرِ مدينة تعكسُ قدرة الله تعالى وصدق نبوءة نبيّه. يقول:

وَقَدْ أَبصـــرَتْها أهـــلُ بُصـــرى[6] كَأنّمَـــا هيَ البَصرَةُ الجاري بها الجَـــزرُ والمَـــدّ
أضـــاءَت عَلـــى بُعـــدِ المَـــزارِ لِأَهْلِهـــا مِـــنَ الإبِـــلِ العِنـــاق وَاللّيـــلُ مُرْبَـــدّ
أَشَـــارَتْ إِلـــى أَنّ المَدينَـــة قَصْـــدُها قَرائنُ مِنها لَيْسَ يَخْفـــى بِهـــا القَصْـــدُ[7]

---

[1] بلدة على الحدود المصرية. انظر: ابن بطوطة، **رحلة ابن بطوطة.** ص50
[2] الصفدي، **ألحان السواجع.** ج1. ص112
[3] وهي المصيبة الشديدة. انظر: ابن منظور، **لسان العرب.** مادة رزء
[4] هو موضعٌ معروفٌ بنَجد. انظر الحموي، ياقوت: **معجم البلدان.** ج2. ص 112.
[5] الصفدي، **ألحان السواجع.** ج1. ص 112.انظر أيضا:ابن تغري بردي،**النجوم الزاهرة.**ج10. ص 16
[6] مدينة جنوب مدينة دمشق. ياقوت الحموي، **معجم البلدان.** ج1. ص441
[7] البوصيري، **الديوان.** ص 86

ويذكر بعض الأدباء اسم بلدٍ لا اسم مدينة، ليعبّروا عن امتداد الكارثة في هذا البلد بكلّ مدنه وريفه، كذكرهم فلسطين، يقول الصفدي:

يـــا عـــامَ طـــا مـــيم ذال فيـــكَ عَنـــاً قاســـى الأَنـــامُ رِداءَهُ مِـــنْ فِلَسْـــطينِ[1]

ويصوّر الشاعرُ الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب[2]، كيف يطوف الطاعون في البلاد كأنه مسافر بلا وجهة محددة حاصداً أرواح الناس. فيقول:

إنَّ هــذا الطــاعونَ يَفْتِــكُ فــي العــا لَــمِ فَتْــكَ امْــرِئٍ ظَلُــومٍ حَسُــودِ
وَيَطــــوفُ الـــبِلادَ شَـــرْقَاً وَغَرْبَـــاً وَيســـوقُ الخُلُـــوقَ نَحْـــوَ اللّحـــودِ[3]

يعدّ الشاعر الطاعون في هذين البيتين، متجبرا، يحلُّ ظلمُه بالعالم من جهاته كلّها؛ ليفتكَ بالبشر.

وقد تعمّ الكارثة إلى حدّ يرى فيه الأدباء أنّه لا يوجد بقعة فـــي الأرض إلّـــا وشـــملتها الكارثة بمصائبها، وأكثرُ ما جاء هذا الوصف في ذكرِ الطواعين دون غيرها، إذ إنّها كالوبـــاء يسهلُ انتشاره، يقول شاعر في طاعون 749هــ:

مُصـــــيبَةُ الطّـــاعونِ قَـــدْ أَصْـــبَحَتْ لَم يَخْـلُ مِنْهـــا فـــي الـــوَرَى بُقعَـــة[4]

وإن كانَ الطاعون أكثر الكوارث الطبيعيّة التي أبرزت انتشار الكارثة في الأدب، إلّا أنّ بعض الكوارث الأخرى أظهرت ذلك أيضا، كالسيول التي يتسبّب فيها مطر قويّ، أو ثلجٌ غزير، وكان معظمها دونَ ذكر منطقة بعينها، بل ذَكرت الأماكن بتضاريسها، ومن ذلك وصفُ الصفدي للثلوج التي انهالت على الجبال، وغمرت كلّ المرتفقات والمنخفضات، ولكنّ انتشار الثلجِ لَم يكن مَدعاةَ سرورٍ للناظر، بل سبباً في الهلاك. يقول:

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص113

[2] وهو شاعر من مدينة حلب، ولد عام 710ه ،وكان صاحبَ علم وأدب، وله مؤلّفات عديدة، من أبرزها كتاب نسيم الصبا. توفي عام 779هـــ. الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج12.ص 166

[3] المقريزي، **السلوك**. ج2.ق3. ص790

[4] المصدر السابق. ج2.ق3.ص791

"وقد هال الجبال أمره فشابت من المفرق إلى القدم، وغمرت سيوله الأباطح والربا ولكن من الزيادة بدم.[1]

يتّضحُ مما سبق أنّ كثيراً من الكوارث لم يقتصر أثرُها على المنطقة التي حَدَثت فيهــا فقط، بل عمّت مناطق أخرى مجاورة لمنطقة الحَدَث، وقد يكون هذا الانتشار ظاهرياً دون وقوع أذىً مدمّر، فيقع الناس فريسة الخوف مِن وصول الكارثة عليهم، أو تؤثّر في طُــرُقهم عنــدما يتنقّلون، وقد يكون الانتشار واسعاً و عظيم التأثير كــذلك، إذ ينتقــل أثــر الكارثــة بالعــدوى المرضيّة، وكانت الطواعين والأوبئة أكثر هذه الكوارث شيوعا ، وقد عبّر الأدباء عن ذلك ، في تصويرهم للكارثة .

ثالثا: عُنف الكارثة وشدّتها

عكست أدب الكوارث الطبيعيّة محاولات كثير من الأدباء، التعبيرَ عن شــدّة الكارثــة وآثارها المدمّرة، من خلال نصوصهم المختلفة، فأطَلّت بوجوهٍ متعدّدة تصوّر قسوَتها.

ومن هذه الصوَر، أنّ الطبيعة تبدو غاضبة هائجة، لا يستطيع أحدٌ الوقوف في وجهها، أو السيطرة عليها أو النجاة منها، ومن ذلك ما قالهُ أحد الشعراء في بركان المدينة المنوّرة:

بَحرٌ مِنَ النَّــارِ تَجــري فَوقَــه ســفُنٌ   مِنَ الهِضابِ لَهــا فــي الأَرْضِ إرْســاءُ
كَأنّمـــا فَوقَـــهُ الأجْبـــالُ طافِيَـــةٌ   مَــوجٌ عَليــه لِفــرطِ الــبَهْجِ وَعْثــاءُ[2]

فالبركان تسري ناره وحممه دون توقف كالبحر، وهذا يعكس الخوف منه والإحســاس باقتراب الموت، لعموم مياهه على وجه الأرض.

وتتكرّر صورةُ الطبيعة الهائجة الغاضبة، وذلك من خلال تصوير ظواهرها العنيفة، فها هو بركان المدينة يقذف نيرانه، وذلكَ لشدّة الضغط الذي يعانيه من الأرض، وفي ذلــك يقــول البوصيري:

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2. ص 28

[2] أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم الدمشقي المقدسي: **تراجم رجــال القــرنين المعــروف بالــذيل علــى الروضــتين..** ترجمة.محمد زاهد بن الحسن الكوثري. مراجعة عزت العطار الحسيني ط2.بيروت: دار الجيل. 1974.ص 192

وَ تَرْمي إِلى الجَوّ الصّخورَ كَأَنَّما بِباطِنِها غَيْظٌ عَلى الجَوِّ أَوْ حِقْدُ
وَتَخْشى بُيوتُ النّارِ حَرّ دُخانِها وَيَزْدادُ طُغياناً بِها الفُرْسُ وَالهِنْدُ
فَلَوْ قَرُبَتْ مِن سَدٍّ يَأجوجَ بَعدَما بَنى مِنهُ ذو القَرْنَينِ دُكَّ بِها السّدُّ[1]

وتظهرُ صورَة الكارثة فيما سبق قويّة وشديدة، فالنار تسودُ العالمَ إذا غضبت، فتقذفه بحممها الحارقة، و تزيد عزيمة المتجبّرين مّمن يعبدونها، و تدمّر لشدّتها ما لا يقدر عليه أحد.

ويقول الصفدي في موضعٍ آخر، مصوّراً غَضب الطاعون، الذي يأتي على كلّ كائن حيّ، فيفتكُ به. يقول:

كَمْ قَد رَأَيْنا فَناءً فِيهِ نَهْرُ فَنا تَدورُ مِنْهُ طَواحينُ الطَّواعين [2]

وفي سيل بعلبك سنة 717ه، ينزل المطر بشكلٍ غير مألوف، ومن ذلك ما وردَ في رسالة عنه: "نزل من السماء عمودُ عظيمٌ من نارٍ بأوائل السيل، و رأوا الدخان"[3]

وتظهر الطبيعة هنا متجبّرة في عليائها، فهي لا تُرسل المطر المدرار فقط، بل تتقدّمُه بمظهر مفزع، وكأنّ النارَ تسبقُ المطر فتنذر بكارثيّته.

في هذه الصورة الشديدة، يبدو أنّ ذلك المطر الهائل الذي أحدث سيل بعلبك الجارف، قد سبقه برق ورعدٌ شديدان لم يعهدهما الناس، أو ربّما سبقته صاعقةٌ أذهلتهم، وأعيت فَهمهم، فجَعَلَتهم يتصوّرون ويتخيّلون، أنّ السماءَ أرسلت إليهم مطراً كأنّه عمودٌ من النار.

وتظهر السحب الكثيفة وكأنّها إنسانٌ صاحب سطوة أيضا، فيرسلن ثلجهن دون رأفةٍ أو رحمة، وفي ذلك يقول ابن الوردي أيضا:

إنَّ السَّحائِبَ قَدْ طَغَيْنَ بِجِلّقٍ وَبَثَثنَ ثَلْجاً لا سَلِمْنَ سَحائِبا [4]

فالسحب تتوقّف عن عمل ما يحلو لها، ولا خيرَ فيما تعطيه، لذلك فهي متجبّرة ولا حيلةَ لأحدٍ أمامها.

---

[1] البوصيري، **الديوان**. ص 85

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص113

[3] الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ج1 . ص424

[4] ابن الوردي، **الديوان**. ص 185

وتبدو الطبيعة في مواضع أخرى، شيئاً ينفرُ الناس منه، ومن ذلك ما عبّر عنه الصفدي في إحدى مكاتباته عن السيول والثلوج:

فَلَيْتَ هذا الشّتاءَ الصَّعْبَ مُذْ وَقَعَتْ عَيْني عَلَيْهِ افْتَرَقْنا فُرْقَةَ الأَبَدِ[1]

فالشتاء الذي هو فصل الخير، وهو الفصل الذي ينتظره الناس لبركة مطره، وهو الذي جعل الناس في هذه السنة، يتمنّونَ انقضاءَه إلى الأبد، من شدّة عنفه.

وتظهر الطبيعة قويّة جدّا، مثل حيوانٍ مفترس، في ذلك يذكرُ ابن الوردي في بيتٍ لـه وصولَ الطاعون إلى مدينة اسكندرية:

اسْكَنْدَرِيَّةُ ذا الوَبَاءِ سَبعٌ يَمُدُّ إِلَيْكَ ضَبْعَهُ[2]

وتظهر صورةٌ مشابهةٌ، في كارثة أخرى كالسيل، ومن ذلك

سَحائِبُ البَرَدِ المُرْفَضِّ صائِلَةٌ عَلَى جِنانِ دِمَشْقَ صَوْلَةَ الأَسَدِ[3]

تظهر السحب في هذه الصورة مغرورةً وعنيفة، فهي تسيطر على البلاد التي تمرّ فوقها.

وتتشابهُ الصورة العامة لدى جميع الكوارث الطبيعيّة، فهي كوارثُ قويّةٌ و مدمّرةٌ، يظهر الإنسان ضعيفاً أمامها، فهي تنسِف ما يعترض طريقَها، وكأنّ بها غضباً شديدا تريد أن تعبّر عنه، فربَطها الأدباء بالإنسان المُسيطر أو الحيوان المفترس،الذي لا حول ولا قوّة لردّهِ إلّا بالله تعالى.

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 169

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص87

[3] المصدر السابق. ص186

رابعا: نتائج الكوارث الطبيعيّة

نتج عن الكوارث الطبيعيّة نتائج متعدّدة، منها نتائج سلبيّة، تمثّلت بالحالة النفسية للناس في أثناء الكارثة، والأثر الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ لها، وأخرى إيجابيّة، تمثّلت في التغيّر الاجتماعي والسياسيّ، وبروز الشكوى لله والمديح النبويّ، كأحد موضوعات هذا الأدب.

الآثار السلبية

أ. الأثر النفسي للكارثة

1- الخوفُ والقلق

أثارت الكوارث الطبيعيةُ حالةً من الخوف والفزع عند الناس الذين عاصــروها، فعبّــر الأدباء عن هذا الخوف عندَ التحدّث عن كلّ مظهر من مظاهر الدمار، ومن ذلك ما نظمه ابــن دانيال الموصلّي في خبر زلزلة 702هــ التي أسقطت البنايات:

أَهْــوى لَهـــا بُنْيـــانُ كُـــلِّ مَشـــيدٍ وَارْتـــاعَ ذُعْـــراً مَـــنْ رَأى أَهوالَهـــا [1]

يعبّر الشاعر عن خوفِ الناس عندما تسقطُ بيوتهم وعمائرهم، فإذا كانت الزلزلة قــادرة علــى تدمير كلّ شديد غليظ من البنايات، فكيف بحال الإنسان الضعيف ؟

ويعبّر الأدباء عن مظاهر متعدّدة للخوف، ومن هذه المظاهر حالةُ الذهول التي أصابتهم عند حلول الكارثة، ومن الأمثلةِ على ذلك، قول الصفدي في تواتر المطر والثلج عام 753ه الذي أصاب الناس بالبأساء: " أما ترى هذا النوء الذي ذمّ نواله، و حمدَ نواه، وأذهل الصــائم عــن صومه فما بيّت أمره، ولا نواهُ وشغلهُ عن حسّه، فما يدري أأفطر على تمرة أم نواة ".[2]

يُظهر الصفدي في عبارته السابقة، حالةً من الذهول وعدم الوعي التي أصابت الناس .

---

[1] ابن دانيال، شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي الكحال: **المختار من شعر ابن دانيال**. اختيار الإمام صلاح الدين خليل ابن أيبك الصفدي، حققه وعلّق عليه واستدرك محمد نايف الديلمي، د.ط. الموصل: مكتبة بسام. 1979 م. ص192

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2. ص 27 -28

ومن مظاهر الخوف أيضا، أنّ الكارثة تجعل الناس في حالة من القلــق والأرق، ومــن ذلك قول ابن قزل في نار المدينة المنورة:

ولَمّا نَفى عــنّي الكَرَى خَبَــرُ الـــتي أَضاءَتْ بإذْن ثُمَّ رَضْــوى [1]وَيذبُـــلِ[2]–[3]

يُظهر الشاعر في هذا البيت حالة الأرق التي أصابت الناس في أثناء هذا البركان، فقــد امتدّ شعاع النار وكأنّها قريبة منهم ، فشعرَ الناس بالخوف الذي منعهم من النوم ، وظنّوا حدوث الضرر و الأذى.

وتتجلّى الصورة ذاتها في كوارث متشابهة، كالزلازل والبراكين مثلا، فكلاهما يحــدثان حركةً غيرَ اعتيادية في طبقات الاأرض، وهزّات في أوقات زمنيّة غير متوّقعة، فهما من أكثــر الكوارث الطبيعيّة التي يخاف الناس منها حتّى في أوقات الهدوء، التي تــوهمهم بــأنّ الكارثــة انتهت، فتجعلهم في حالة من القلق الشديد، ومن الأمثلة على تأثير الزلازل قول ابن الوردي:

نَعـــوذُ بِـــالرّحمنِ مِـــنْ مثِلِهـــا زَلْزَلـــــةً أَسْـــــهرَت الأَعْيُنـــــا[4]

يعكس الشاعر في هذا البيت شدّة الزلزلة، ويستعيذ من شرّها، فهي من قوّتها لا تجعــل الناس ينامون خوفا، فَتُجافيهم الرّاحة في النهار والليل.

وجعلت الكوارث الطبيعية الناسَ يُقلعون عن الأكل والشرب كما جعلتهم يقلعــون عــن الرقاد، ومن ذلك ما جاء في رسالةٍ أوردها أبو شامة، في خبر نار المدينة:

"ولها دويٌّ ما يدعنا نرقدُ، ولا نأكلُ، ولا نشرب، وما أقدر أصف لكَ عظَمَها، ولا مــا فيها من الأهوال"[5]

---

[1] جبل في المدينة المنورة.انظر: الحموي، **معجم البلدان**. ج2.ص 51

[2] جبل مشهور في نجد. انظر: المصدر السابق. ج 5. ص 433

[3] ابن قزل، **الديوان**. ص336

[4] ابن الوردي. **الديوان**. 150

[5] أبو شامة، **الذيل على الروضين**.ص 192

يظهر أبو شامة سبب الخوف الذي أصاب الناس، فقد كانَ للبركانِ صوتٌ قــوي ولّــد الذعرَ في قلوبهم،فجَعَلَهم يُقلعون عن عاداتهم ونشاطاتهم اليوميّة.

ويورد أديبٌ سببا آخر لفقدان الناس القدرة على الهدوء النفسيّ والرقاد، وهو التخــوّف من الإصابة بالأمراض التي تطيحُ بحياتهم، إذ شكّلت الطواعينُ رعباً حقيقياً للناس، فلَــم يعــدْ الأمر مقتصراً على سقوط البنايات أو سماعِ أصواتٍ مخيفة، بل بالجيوش الزاحفة التي تغــزو جسدَ البشَر دونَ استئذان، يقول الصفدي في طاعون 749ه،:" فإنّه قد عمّ البلاد والعباد، وغــمّ النفوس وأذاب الأكباد، وفد مصرَ في أوّل السنة، فَفقد أهلها القرار والسِّنة، وقدم بعســكرٍ مــن المنايا، وألقى الرعب في قلوب البرايا، وأبقى في صدورهم البلايا " [1]

وعبّر الصفدي عن سوء حال الناس في هذا الطــاعون، إذ كــانوا ينتظــرون المــوت ويتوقّعونه، مذعورين خائفين، فقال:

"فالناس بين ميتٍ و مائت، ومتوقّع للفوات وفائت، وأصبح كلّ جبّار وهو خائف، ويظنّ أنّ الموت على بابه واقف، ومات كلّ حيّ بالقوّة، وجهّز أهب الموت نحوه"[2]

إنّ مصدرَ الرعبِ الذي أصاب الناس في الطاعون، هو إدراكهم أنّ الوباء لا يفرّق بين أحد منهم، فلا أحد يستطيع النجاة منه مهما فعَل، فإن أتاه الطاعونُ فلا رادّ لوقوعه.

ومن مظاهر الخوف صراخ الناس، الذي يعدُّ تعبيراً عن حجم الذعر الذي نــزل فــي نفوسهم، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالةٍ عن زوبعةِ الغسولة[3] التي انتهت بسيل جارف، فرأى الناسُ من الزوبعةِ "عمودَ هواءٍ عظيم ورأوا الدخان، وسُمع من الصرخات في الأكوان ما يضعف الحيل. "[4]

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص109

[2] المصدر السابق. ج2.ص 109

[3] قرية من قرى دمشق. انظر: الحموي، **معجم البلدان**. ج2. ص 204

[4] الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ج1. ص 417

ومن المظاهر البارزة للخوف أيضا، أنّ الكوارث الطبيعية ذكّرت الناس بمشـــاهد يـــوم القيامة، فقرنوها بها لشدّتها، فأوردوا بعضَ صفاتها في أدَبهم؛ للتدليل على وطأة ذلك اليوم، ومنه ما أورده ابن قزل في بركان المدينة إذ قال:

وَأَخْبَـــرتَ عَنْهـــا فـــي زَمانِـــك مُنْـــذِراً بيومٍ عَـــبوسٍ قَـــمْـــطَرِيـــرٍ مُطَـــوَّلِ[1]

و في هذا البيت يورد الشاعر كيفَ أنّ بركان المدينة المنوّرة، كان يوما موعودا، إذ تنبّأ النبيّ الكريم به في زمانه، لكنّه أرادَ وَصف ذلك اليوم، فهو يومٌ كريه، عظيم الهول، تعبس فيه الوجوه عبوساً شديدا، وهي بعضُ أوصاف يوم القيامة، وأثرها على العباد.

ومن مظاهر يوم القيامة أيضا، خشوعُ الناس، و إيمانُهم بقـــدرة الله ســـبحانه وتعـــالى، وذهولهم من شدّة الكارثة، ومن ذلك ما ورد في رسالة الصفقة القبلية عن سيل عجلون:

"ولم تزل الأمطار متواترة الهطل والبروق تلمع، وأصداء الجبال و الأودية بأصوات الرعود للقلب تصدع، حتى ظن أهلها أن قد أزفت الآزفة، فارتفعت الأصوات بأن ﴿**لَيْسَ لَها مِنْ دونِ اللهِ كاشِفَةٌ**﴾[2] وكشفت الرؤوس، ووجلت القلوب،وطاشت الألباب "[3]

ومن صور الذهول أيضا ما أوردَه شافع بن عليّ [4]في مقامته عـــن زلزلـــةِ 702هــــــ: "وأكبّها الخوف على وجوهها، فمرغت في الترابِ الجباهُ، وبلغت القلوب الحناجر "[5]

ومن مشاهدها أيضا، نفخُ إسرافيل في البوق، ومن ذلك ما يصّوره شافع بن عبد الظاهر في مقامتة، كيف ظنّ الناس أن إسرافيل نفخ في الصور لشده ما رأوه، فيقول: " لحظةً ظُنّ بمـــا أرَته أنّ إسرافيل نفخَ في الصور، وداهية أزالت ظلماتها الأنوار "[6]

---

[1] ابن قزل. **الديوان ص**337

[2] سورة النجم ، آية(58)

[3] ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج2. ص 274

[4] هو شافع بن علي بن عباس العسقلاني المصري،ولد عام 649ه ، له نظم وشعر كثير، وباشر ديوان الإنشاء بمصر حتّى أصابه العمى.توفي عام 730ه.انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج 6. ص77

[5] السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن الخضيري، **كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة**. تحقيق عبـــد اللطيـــف السعداني، ط1 .الرباط : وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي . 1971 .ص 54.

[6] المصدر السابق. ص 53

ويعدُّ هذا المظهر من أكثر المظاهر الدالّة على الخوف، فهو مظهر يدلُّ على انتهاء الحياة الدنيا وبداية القيامة، وتعيدُ المخيّلة للتفكير في شكل المَلَك وماهيّة الصور وما يتبَع ذلك، واستحضارُ الأديب لهذا المظهر دليلٌ على شدّة الخوف الذي أصاب الناس، وأربكَ تفكيرهم.

ومن مظاهر الخوف أيضا، هروب الناس مِن مساكنهم، وقد عبّر ابن دانيال عن هذا المظهر في أثناءِ تصويره حال الناس في زلزلة 702هـ:

يا قَومُ أَرْضُكُم الكَريمَةُ هَذِهِ   قَد زُلْزِلت عِندَ الضّحى زِلْزالُها
وَقَد خَرَجْنا هارِبينَ مَعَ الرّدى   أَوْ قيلَ عَنّا أَخْرَجَتْ أَثْقالَها[1]

يخاطب الشاعر هنا الناس، متأثّرا بالآية الأولى من سورة الزلزلة في عجز البيت الأول، بما تضفيه من اقترانٍ معنويّ بين يوم القيامة و زلزلة 702ه، بأنّ الأرض الخيّرة التي سكنوا فيها، قد تهدّمت بفعلِ الزلزال، فخرج الجميع منها هاربين من الموت .

ويصوّر الأدباء اختيار الناس للصحاري أو الفَلَوات للهروب من كارثةٍ معينة، حتّى لا يصابوا بالأذى الذي توقعُه، ومن ذلك ما يذكره ابن الوردي في زلزلة 744هـ، فيقول:

إِنّا نُبِذْنا بِالعَرا   لِخَوْفِ زِلْزالٍ طَما
لا مَا عَلَيْنا مِنَ الصَّحْراءِ   سِوى قَطْرِ السَّمَا[2]

يصوّر الشاعر كيفَ خرج الناس إلى المناطق الأكثر أمناً في أثناء الزلزلة، وكرّر هذا المظهر غير مرّة نثرا أيضا في الرسالة نفسها، إذ وصفَ الصحراء بأنها أصبحت سكنا للناس الهاربين من الكارثة، فقال: " وسكنوا من خوفه الصحاري و الفلوات "[3]

---

[1] ابن دانيال، **المختار من شعر ابن دانيال**.ص192. انظر أيضا: هناء سبيناتي، **صورة المجتمع في العصر المملوكي**. ص47

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 151

[3] المصدر السابق. ص 140

وفي هذا التكرار، دليلٌ التشرّد الذي أصاب الناس، خوفا على حياتهم. وهذا المظهر، هو المظهر نفسه الذي كان قد عبّر عنه شافع بن علي بن عبد الظاهر في مقامته التي كتبهـا فـي زلزلة 702هـ، فقال فيها إنّها "نبذت سكانَ المدن بالعراء"[1]

ويختلفُ مكان اللجوء حسَب نوع الكارثة، فالكوارث التي تُحدثُ انهياراً فـي المبـاني وتشقّقا في الأرض، يلجأ الناس فيها للهروب إلى الأماكن المنبسطة الخالية حتّـى لا يواجهـوا انهيار خطَر الأبنية والعمائر، وفي كوارث أخرى كالسيول، يلجأ الناس إلى المنـاطق العاليـة، لدَرء خطر الماء الذي يهددّ حياتهم بالغرق، ومن ذلك ما جاء في إحدى رسـائل ابـن فضـل العمري[2] إلى الصفدي، إذ قال: "والركَبُ قد حَبس وما انطلق، ولجأ إلى ذروةٍ وخاف الغرق"[3]

في الحالة الأخيرة، يصوّر الكاتب كيفَ اختار الناس اتّقاء السيل بالهروب إلى منطقـة جبلية مرتفعة، تحميهم من الخطر المحدق بهم.

وفي المناطق التي يصيبها الجَدب، يظهر الناس غير قادرين على التعـايش مـعَ قلّـة المصادر الغذائيّة، وارتفاع أثمان المتوفّر منها، فيضطر الناس لتَرك أماكن سكَنهم، للتوطّن فـي مناطق أخرى، ومن ذلك أيضاً ما وصفه ابن صقيل الحرّاني[4] في مقامةٍ له بعنوان (اللاذقيـة)، يصف فيها كيف أجدبت وانتشرت المجاعة فيها ما جعله غير قادرٍ على إطعام صبيته، فيقول:

"نويتُ مفارقة اللاذقية والأقرانِ المماذقية، لغلبةِ غلباء، وسنةٍ شهباء، مـا لمعـت لهـا بروق،ولا لمعت بها لامع ولا بَروق، وكنت ُ في تلك المجاعات وتهافت الجماعـات، صـاحِبَ صِبية"[5]

---

[1] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص 53

[2] كاتب الإنشاء بالشام ومصر، وهو أديب ومؤرّخ، ولد في دمشق عام 700ه. وتوفّي في طاعونها عام 749ه. الصـفدي. **الوافي بالوفيات**.ج8.ص 163

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 166

[4] كاتب، ومسند الديار المصرية ولد 594ه و توفي 686ه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج18. ص 523

[5] البغدادي،أبو الندى معد بن نصر الله بن رجب (المعروف بابن الصيقل الجزري):**المقامات الزينيـة**. دراسـة وتحقيـق عباس مصطفى الصالحي.دار المسيرة.1981 .ص 111.

يكشفُ ابن صيقل عن مظاهر الجدب الذي عانت منها اللاذقية في تلك السنة، فلم يكـن فيها مظهرٌ من مظاهر فصل الشتاء، ولا استبشارٌ بالخير، ونتج عن ذلك ظهورُ المجاعات، التي جَعَلت الناس يهاجرون منها بالجماعات طلباً للكلأ والماء.

ويصوّر ابن صيقل أيضاً أنّ مفارقته لمدينته كانت مفارقةً صعبةً ، لكنّ شُحّ الخَصـبِ فيها أجبره على ذلك، فكأنّ كلّ شيء فيها أجدب حتّى خصوبته حتّى النساء، فأصبحت اللاذقيّـة مدينة قاحلة يسودها الغبار، وكأنّ الخَضار لَم يَكُن سِمَتَها المعروفة، فهاجرَ منها الأديب هجـرةً قسريّة، شبّهها بطلاق زوجةٍ حبيبة، فيقول:" فحينَ نجَمَ دخان خضرائها، وأنجم دخان غبرائهـا، وتنجزم نسل نسائها، وانجرمَ النسل بأرجائها.. منحتُها مُرّ الطلاق "[1]

ومع تزايد القَحط في البلاد المنكوبة، ينصح الشعراء الناس بالانتقال إلى مناطق أخرى، بحثاً عن مكان يليق بالسَكَن ومُتَطلّباته، دونَ الإشارة إلى وجودِ عاملٍ اجتماعيّ، كإطعامِ الأطفال أو غيرهم، أو وَصف للمكان الذين سيلجؤون إليه، فيكفيهم ما حلّ بهم من القحط، ومن هـؤلاء البدر ابن حبيب، الذي دعا في شعره إلى تَرْكِ مدينة حَلَب، يقول:

لا تَقُـمْ بـي عَلـى حَلَـب الشَّـهباءِ وَتَرَحّـل فَأخضَـرُ العَـيشِ أَدْهَـمُ[2]

في البيت السابق، يدعو الشاعر الناس إلى تركِ حلَب، فلقد تحوّلت إلى منطقة مقفرةٍ، إذ أذهبَ الجدبُ خضارها ويناعتها، والعيش الهنيء فيها.

وينفرُ أديب آخر من المكوث في بلد ما، لتتابع الملمّات عليها، ومن ذلـك مـا نَظَمـه إبراهيم ابن عبد الرحيم بن جماعة[3] في الطاعون 776هـ:

ومـا بِـمِصـرَ مِـن المُؤلِـماتِ فَـذو اللّـب لا يَرتضـي يَسْكـن
فتركٌ وجورٌ وطـاعونٌ وفـرطُ غـلاءٍ وهـمٌّ وغـمٌّ والـسرّاج يـُدَخّـنُ[4]

---

[1] البغدادي، **المقامات الزينية**.ص112

[2] السخاوي. **وجيز الكلام**. ج1. ص 213

[3] وهو قاضِ القضاة في مصر والشام وكان إماما و فقيها معروفا. توفي 799ه. انظر: السبكي، **طبقات الشافعية الكبـرى**. ج3. ص 139

[4] السخاوي، **وجيز الكلام**. ج1.ص205

يجمل الشاعر في البيتين السابقين، بعضَ ما يعانيه الناس في مصر، فَهُم يتركونَ سَكَنهم لما أصابهم من تتابع في المصائب، ويعانون من ظلم سياسي ، و وباء عظيم ، وارتفاعٍ في الأسعار، وتعاسة وبؤس.

2- الحزن والألم والنظرة السلبية للحياة

رافق الخوف من الكارثة حالةٌ نفسيّة سيّئة، تمثّلت بالشعور بالحزن والألم، والتشاؤم من الحياة، فدعا بعض الشعراء إلى عدم الثقة في الحياة ، ما يعكس الصورة القاتمة التي تشكّلت لديهم ولدى الناس الذين عاصروا الكوارث الطبيعية وعايشوها، ومن ذلك ما قاله الصفدي في الطاعون:

لا تَثِقْ بالحَياةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فـي زَمانٍ طاعونُهُ مُسْتَطيرُ
فَكَأَنَّ القُبورَ شُعْلَةُ شَمْعٍ وَالبَرايا بِها فَراشٌ يَطيرُ[1]

يدعو الشاعر إلى عدم الركون إلى الحياة الدنيا، فالطاعونُ كفيلٌ بأن يهزّ هذه الثقة، فالناس قد انتشرت مقابرهم في كلّ مكان، وكأنّهم هم الذينَ يطلبون الموت بأنفسهم، ويُقبلون عليه، كالفراشاتٌ يذهبنَ بأرجلهن إلى مصدر النار الذي يحرقها.

وتغيّرت نظرة الناس إلى الخير الآتي من الطبيعة، فلم تعد الطبيعة تأتي بالخير والبركة، بل بالهموم والمشاكل، ومن ذلك ما قاله ابن الوردي في سيل دمشق:

أَظْمَتْني الدُّنْيا فَلَمّا جِئْتُها مُسْتَسْقِياً مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصائِبا
سُحُبٌ بَوارِقُ أَوْ ثُلوجٌ خِلْتُها زِنْجاً تَبَسَّمَ أَوْ قِذالاً[2] **شائِبا**[3]

يعكس الشاعر في البداية شكواه من قلّة المطر، وعندما دعا الله لذلك، أمطرت السماء بخير لا خيرَ فيه، فقد كانت الظاهر الطبيعيّة المرافقة لذلك المطر شديدة، لدرجة أنّها أصبحت

---

[1] المقريزي، **وجيز الكلام**.ج2. ق3.ص 788
[2] جِماعُ مؤخر الرأس من الإنسان. ابن منظور، **لسان العرب**. مادة قذل
[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص185

مصدر نازلةٍ ألمّت به، فصوّرت الحياة في نَظَره سوداء مظلمة، ليس فيها سوى بعض هذا البياض الذي أحدثه الثلجُ فيها.

وصوّر أدباءُ آخرون كيفَ تحدثُ الكوارث من تغيّر حياةَ الناس وأمزجتهم، فكلُّ شيء ينقلبُ إلى ضدّه السيء في نظرهم، ومن ذلك ما عبّرَ عنه ابن فضلٍ العمري في رسالةٍ للصفدي في وصف الشتاء والسيول، فيتساءل: " كيف يهنأ العيش وبروق الجوّ سيوفٌ تخترط، نفسُ هذه الرعود يخرجُ بعدما حُبسَ في حشا و انضغط، وإلحاح سائل هذا المطر فلو كان قطره درّاً لما مدّ الفقير إليه كفّاً ولا التقط "[1]

ويصوّر الأدباء كيف فقد الناس الإحساس بالأيام، فهي متشابهةٌ لا تغيّر فيها، ومن ذلك ما وصفه ابن فضل العمري في رسالةٍ أخرى إلى الصفدي، في ثلوج دمشق وسيولها :

طالَتْ عَلَيْنا لَهُ أَيّامُ مُدَّتِهِ　　كَأَنَّ أَيّامَهُ أَضْحَتْ بِلا عَدَدِ
لَقَدْ جَرى وَهُوَ مُمْتَدُّ العِنانِ بِلا　　نِهايَةٍ في مَدى سَبْقٍ وَلا أَمَدِ[2]

فقد أتعبَت أيام الشتاء قلوب الناس، فلا شيءَ يميّز اليوم السابق عن اللاحق، ولا شيء يوقِف دوران هذه الأيام الصعبة التي تبدو لا نهاية لها، فيبقى الناس منتظرين فرصة الانعتاق من هذا البَرد المخيف، الذي مَنَعهم من ممارسة حياتهم الطبيعيّة.

ويصوّر في موضعٍ آخر كيفَ أصبحت الحياة في نَظَر الناس شيئاً سرمدياً، لا تعاقب فيه للأيام، ولَم تَعُد مظاهر الكون تسري كما هي عليه، فعمّت الوَحشة قلوبَ الناس، وانعدمَ الأمل:

"كأنّ الأيام قوافٍ اندمجت في الليل، أو النجوم أقاحٍ ولكن غطّاها تراكم السّحَّاب الذيل، أو كأنّ الله جعل الزمن سرمداً، فلم يتعاقب شمس ولا قمر، ولا تصفو لُجَّةُ الأفقِ بضوءٍ ولا

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2. ص28

[2] المصدر السابق. ج1. ص 164

ترميها الدياجي بِكَدَر، وقد تزاحمت الغياهب على المواقيت بالمناكب، وجُهلت المدد فيا وحشتا لحاجب الشمس ومحيّا القمر وعيون الكواكب "[1]

وضاعفت الكوارث الأحزان في قلوب الناس، ومن ذلك ما قاله ابن الوردي في الثلج الواقع على دمشق:

أَثُلوجُ ضاعَفْتِ الهُمومَ وَطالَما كَلَّفْتِني ما ضَرَّني تَكْليفُهُ[2]

يقول الشاعر إنّ الثلوج زادت في الحزن الذي في قلبه، فقد ترتّب على هذا الكمّ الكبير منها عبءٌ كبير في نفسه ، وجعلته يفكّر فيما تضَعهُ الثلوج من معيقات.

وتحسّر بعض الأدباء على مَن فقدوهم في أثناء الكوارث، وحزنوا عليهم كثيراً، فقد زادَ موتُ الأحبّة في نفوسهم حسرةً فوق حسرةِ الكارثة ونتائجها، ومن ذلك ما قاله الصفدي في رثاءِ الشيخ الإمام شمس الدين أبو عبد الله الأنصاري المعروف بابن الأكفاني[3]، في أثناء الطاعون:

مِنَ الطّاعونِ قَلْبي في انْقلابٍ فَإنَّ لِكُلٍّ مَنْ تَلقاهُ فاني
ولَمّا ماتَ شَمْسُ الدّين نادى كَفاني فَقْدُ أكفاني كَفاني[4]

فالصفدي يعاني حسرةِ الموت، فقلبه ينفطر للأعداد الكبيرة التي قَضَت في الطاعون، و عندما عَرَفَ بموتِ الأكفاني، لم يستطع قلبه التحمّل، فكفاهُ مَن سَمِعَ خبَره.

ويكشف الصفدي في موضع آخر ، كيفَ أثّر الطاعون في نفوس بعض الفئات الاجتماعية كالحرافيش ، الذين أصابهم الغمّ من شدّة الجوع وقلّة القوت بأيدي الناس ، فما عادوا يطلبون منهم حتى القليل منه :

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2. ص 28

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص184

[3] ولد في سنجار، وأصله مصري، جمع أشتات العلوم وبرع في علم الحكمة وخاصة الرياضية والهندسة والحساب. توفي749هـ. انظر: العسقلاني،**الدرر الكامنة**. ج3. ص366

[4] الصفدي، **أعيان العصر**. ج4. ص 230

فقد صوّر الأدباء، عزوفُ بعض الحرافيش عن السرقة فـي أثنـاء حلـول الكـوارث الطبيعيّة.

وَأَصْـبَحَ الحُرْفُـوشُ صـاحِبَ كَسْـرَةٍ مِـنْ طَلَـبِ الكِسْـرةِ فـي شُـغلِ[1]

يتّضح ممّا سَبَق، كيفَ أثّر الكوارث الطبيعيّة في مشاعر الناس، فخَلَقت قلقـاً وإرباكـاً وخوفا، وشعوراً بالتعاسة وقصور الأجَل.

ب- الآثار الاقتصادية والاجتماعيّة

وَصَفَ الأدباءُ الطبيعة القاسية وما تُحدِثُه من آثارٍ سـلبيّة و مـدمّرة علـى النـاحيتين الاقتصاديّة والاجتماعيّة، فمنَ الآثار التي تَركَتْها الكوارث الطبيعية، ما دَمّرَ الأبنيةَ و العمـائر السَكَنيّة والحربيّة والثقافيّة وغيرها.

1- أثرُ الكوارث في المنشآت العُمرانيّة والثقافيّة

من الكوارث الطبيعيّة ما لا تقوى المنشآت العظيمة على الوقوف أمامه، فيأتي على كل ما حوله حتى البنايات العالية والضخمة، ومن ذلك ما قيل في بركان 654 هـ الـذي زلـزل الأرض زلزلةً عظيمةً فأحدثَ هزّةً عنيفةً في طبقات الأرض، وطالت الأحجار الصلبة بالضرر، ولَم تسلم منها حتّى البروج العالية. يقول أحد الشعراء فيها:

زِلْزالٌ تَخْشَـعُ الصّـمُّ الصِّـلابُ لَهـا وَكَيفَ يَقوْى عَلى الـزِّلْـزالِ شَمّـاء
وَقَـد أَحـاطَ لَـظاها بِـالبُروجِ إِلـى أَنْ كادَ يَـلْحَـقها بِالأَرْضِ إهـْواءُ[2]

يتساءل الشاعر عن شيء يستطيع أن يقف في وجه البركان، فكلّ ما هو قاسٍ ومنيعٌ لا يستطيع الوقوفَ في وجهه، وهي إشارة منه إلى قوّة البركان وأثرِه في البنايات، وهو ما أكّده في البيت الثاني عندما أشار إلى أنّها وصلت البروج، بما تحمله هذه البروج مـن معـاني المنعـة والعلوّ، فتضرّرَت منها، حتّى كادت النار تطيح بها.

[1] الصفدي،: **تحفة ذوي الألباب فيمن حكَم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب.** ق2. تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصـي وزهير حميدان الصمصام. ط1.دمشق: منشورات وزارة الثقافة.1992. ص 274

[2] أبو شامة ، **الذيل على الروضتين**. ص193

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما أورده ابن الوردي، الذي قال:

طـارَت لِـقَـلعِ القِـلاع زَلْـزَلَـةٌ   مـا خَشِـيَتْ رَامِيـاً وَلا صـائِدْ
إذا دَرى الحِصْنُ مَـن رَمـاه ُ بِهـا   خَرَّ لَـهُ فـي أَسـاسِـهِ ساجِـدْ [1]

يصوّر ابن الوردي كيف تأتي الزلزلة على القلاع دون مانعٍ يمنعها، وكيف تأتي على الحصون بقوّتها لتسوّيها بالأرض، وكأنّ شيئا لَم يكن.

ويوضّح بعضُ الأدباء، أثَرَ الكوارث الطبيعيّة على المباني التي تتعلّق بالحياة اليوميّة للناس، كالأسواق والحواري والعَرَصات وغيرها، وهي أشدُّ تأثيراً من غيرها من المباني المنيعة، إذ إنّ العوام لا يعتنون بمنشآتهم كما يعتني أصحاب السُلطة بمناعة القلاع والحصون والأبراج، لما لها من أغراضٍ عسكرية، ومن ذلك ما وَرَد في رسالة والي الصفقة القبلية لما حصل من أثر في سيل عجلون، فمن الناس مَن " احتسبَ عند الله جميع ماله وعقاره وغرسه، فأخذ هذا السيل العظيم ما كان في ممره من الدور والقياسر [2] والأسواق، ودخل الطواحين والبساتين، وأخذ جانبا من حارة المشارقة المجاورة للوادي، وأخذ العرصَة، وسوق الآدميين، وسوق القطانين، وبعض دار الطعم، وسوق الأقباعيين، وسوق الخليع، وقيسارية التجار المعروفة بإنشاء الأمير سيف الدين بكتمر، والقيسارية القديمة. وأخذ من قيساريّة مولانا ملك الأمراء الموقوفة على المارستان الذي بصفد عشرين حانوتاً وضعضع بقيّة الجدُر، وهدم الأبواب، وهدم سوق الصاغة وأخذه، وهدم سوق الفاميّة الذي بقرب العين " [3]

ويصفُ الفاخري هنا تأثير السيل في حياة الناس، فمنهم مَن فقد كلّ ما لديه، إذ أفقدَ هذا السيلُ عجلونَ بعضَ أسواقها بما تشتمل عليه من سِلَعٍ ضرورية لحياة الناس، ما سبّب خسائر ماديّة للتجار، وتشويهاً للشكل الحضاري والعمرانيّ للبلدة، وتهدّمت حَوارٍ بأكملها بما حويه من بيوت سكنيّة خسرها أهلها، وتشرّدوا بضياعها، إضافةً لإغراق بعض البساتين والأوقاف الخاصّة بالجوامع.

---

[1] ابن الوردي. **الديوان**. 152

[2] هي صفة للمنيع الشديد القوي من الأبنية، انظر: ابن منظور، **لسان العرب**. مادة قسَرَ

[3] الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ج1. ص436

ويصور بعض الأدباء، ما حدث لمعالم عمرانية من تدمير كليّ أو جزئيّ، و هذا يبدو في رسالةٍ أوردها الفاخري في كتابه عن سيل بعلبك، فيقول:" فلمّا اجتمعت وثقلت خُرق من الصّور ما مساحته أربعون ذراعاً، مع أنّه محكم البنيان، شديد الأركان، و حصل لما يليه التصدّع مع أنّ سمكه نحو خمسة أذرع، وأخذ برجاً على حاله على التمام والكمال، وبعض بدنه عن الشمال، وهذا البرج ذَرَعه من كلّ جانب خمسة عشر ذراعاً فحمله الماء وهو على حالته لم ينتقص حتى مرّ على فسحة عظيمة نحو خمس ماية ذراع من الأرض "[1]

يصوّر الكاتب في ما سبق أثر سيل بعلبك على منشآت عمرانية دون سواها، فالسيل خَرَق السور، وأحدث صدعاً في الجزء الباقي منه، رغم متانةِ بنائه، وعندما أتى على أحد الأبراج في المدينة هدّمه، وأخذهُ في أثناء مسيره.

وذكر بعض الأدباء تأثير الكوارث الطبيعيّة على المنشآت دونَ أن يذكروا اسم هذه المنشأة، بل جعلوا تأثيرَ الكارثة كاسحاً لدرجةِ أنهّ كانَ يأتي على كلّ ما يعترضه، فقد تَقسمُ كارثةٌ ما البلدَ الواحدَ إلى قسمين، ومن الأمثلة على ذلك، ما فعله سيل بعلبك كما وصفه الفاخري في قوله:

"وانفرق على البلد فرقتين، فرقة في الناحية الشرقية بقبلة سالت حتّى انتهت إلى بحر النهر، وبحّرت بحرة عظيمة على الصور، حتّى كادت تبلغ شرفاته ارتفاعاً، وتزايدت في طوله عظما واتّساعاً، ولطف الله سبحانه وتعالى، وثبَتَ الصور وما كاد، وتصرّف مع جريان النهر، ولم يحصل بحمد لله تعالى بسببه كبير ولا كثير فساد. والفرقة الثانية ركبَتْ البلد ما بين باب دمشق وباب نحلة شرقيّ البلد بشمال، وانزجرت هنالك على الصّور نحواً من ذلك المنوال "[2]

يصوّر الكاتب ما فعله السيل ببعلبك بعدَ أن قسمها قسمين،القسمُ الأول أخذَ ما أخذه من سور المدينة، الذي خلّف بعده بحيرةً من الماء تجمّع في الثقب الحاصل فيه من قوّة السيل،

[1] الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ج1.ص423

[2] المصدر السابق. ج1. ص 423

ومشى بمخلّفات الصور وما أخذه بالطريق حتّى وصل إلى النهر، والقسم الثاني كانَ تأثيرُه على بابين من أبواب المدينة، وفعل بجزءٍ من السور كما فعلَ القسمُ الأولّ من السيل فيه.

إنّ هذا الانقسامَ الذي تُحدثُه بعضُ الكوارث في المناطق المنكوبة، يغيّر بعضاً من ملامح الأرض وشكلِ تضاريسها، فمن الكوارث ما تمحو آثارَ المكان فلا يُعرف بعدها، ومن ذلك ما ذَكَرَهُ القاضي بدر الدين الغزيّ[1] عن أمطار وسيول الشام في رسالة لهُ، فيقول في طرقها: " والطرقُ قد شرّقت بالسيول فلا تنطق آثارها المغرّبة ولا المشرّقة " [2]

يعكس القاضي الغزيّ هنا كيف تحوّلت طرق الشام المحروسةِ إلى أماكن مقفرةٍ من المعالم، فلا يكاد ناسها يعرفون آثارها في مناطقها كلّها ، وذلك لعظم ما فعله السيل فيها.

وتؤثّر المظاهر السلبيّة التي تتركها الكوارث الطبيعية في الطرُق على المسافرين، وبشكل خاص على الحجّاج، الذين لا يملكون سوى وقتٍ محدّد لسفرهم في كل عام، فتأتي الكارثة لتغيّر في الطُرق، فتسدّها أو تجعلها صعبة، فتجعلُ الناس يتّجهون إلى طرقٍ أخرى أقلّ صعوبة للوصول إلى مبتغاهم، ومن ذلك ما عبّر عنه ابن فضل العمري في إحدى رسائله للصفدي في سيول الشام:" وكان الركبُ الحجازيّ في هذه السنة بحراً يعجُّ عجاجه، وبرّاً يضيقُ بنازليه فجاجه، و أكثر القومُ غرباً فجاؤوا من بعيد المسرى، وأتوا من خلف دار قيصر وكسرى، وركبوا الأهوال، وبذلوا الأموال، وخاضوا الأوحال، إلى هذه الأحوال "[3]

ومن الأمثلة على ذلك أيضا ما فعلهُ بركان المدينة، الذي سالت ناره المتوهّجةُ في طرقاتها وما فعلته من تغيير في الطُرق، يذكر أبو شامة في إحدى الرسائل التي كتبها في النار:

"وقد سالت أودية منها بالنار على وادي شطا سيل الماء، وقد سدّت سبيل شظا وما عادت بسبيل، والله طلعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسير نيرانا وقد سدّت الحرة طريق الحاج

---

[1] حسن بن علي بن حمد بن حميد بن شنار، قاضٍ وكاتب الإنشاء في الشام.ولد سنة 706ه و توفي عام753ه. انظر:الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج12. ص 157

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2. ص 27

[3] المصدر السابق. ج1. ص 166

العراقي، فسارت إلى أن وصلت الحرّة، فوقفت بعد أن أشفقنا أن تجيء إلينا، ورجعت تسير في الشرق "[1]

في النص السابق، يَظهر كيفَ حفَرت النار في الأرض على شكل أودية، وسدّت بعض الطرق المفتوحة كطريق الحجّاج العراقيين، وبقيت تسيل في الطرق حتّى توقّف وَحدها محدثَـــةً بعض التضاريس التي لم تكن موجودة، ففي الرسالة نفسها، يصف الكاتب كيف كوّنـــت النـــارُ وادياً، بعدَ أن كانت الجبالُ تذوب من شدّة النيران، فيكتب: "وقد سال من هذه النـــار وادٍ يكـــون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال، وعُمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الإنك، فإذا خمد صار أسود، وقبل الخمود لونه أحمر "[2]

يصوّر الكاتب هنا كيفَ أذابت النار الصخور التي تعترضُ طريقها، فحفرَت بذلك وادياً بمساحة تدلّ على شدّة حرارتها، و تكوّن نوعاً من الصخور البركانية التي تشكّلت بعد ذوبـــان الصخر الأصليّ، وخمول البركان و برودِ حمَمه.

وأثّرت بعض الكوارث الطبيعيّة على المنشآت العلميّة الثقافيّة كالمســـاجد والمـــدارس، ودمّرت محتوياتها، ومن ذلك ما ورد في رسالة والي الصفقة القبلية يذكرُ فيها عن السيل:

"وأخذَ المدرسة النقيبية، وهدم رواق الجامع القبلي، وباب الجامع الشـــرقي.... وأخـــذ طهارة الجامع "[3]

كما وصفَ الأدبُ ما حلّ بالمراكز العلميّة من خراب، ففي سيل بعلبك يصوّر الكاتب ما حلّ بمقتنيات المساجد من كتب علميّة ومصاحف شريفة، فقال:

---

[1] أبو شامة ، **الذيل على الروضتين**.ص 190

[2] المصدر السابق. ص 191

[3] ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج2.ص 275.

"ثمّ لم ينزل حتّى دخل الجامع الأعظم والمدرسة التي تليه فانزجر بها حتّى كاد يبلغ رؤوس العُمُد في تناهيه، فأتلف ما فيها من المصاحف والربّعات، وكتب العلوم والأحاديث النبويّة، فشعّث فيهما وخرّب وغرّق "[1]

يصوّر النص السابق، تدمير السيل مقتنيات هذه المؤسساتُ التعليمية والدينيّة ، وهذا يعكس حرصَ الأدباءِ على تصوير أثرِ الكارثة على الناحيّة العلمية والثقافيّة في البلاد الإسلامية.

وبيّن الأدباء أيضا كيف منعت الكوارث الطبيعيّة إقامة الصلوات و الدروس، ومن ذلك ما كُتبه الصفدي في سيل بالشام:

"وساءَت أحوال المدينة، وطاف طوفانه بالجامع وغرّق السفينة.. وآذى المواذن و المؤذنين، وأخرس القرّاء والمؤمنين "[2]

يبيّن الصفدي النتيجة النهائية لكل ما حلّ بالمنشآت العلمية والثقافيّة من دمار، إذ إنّ الدروس العلمية والصلوات لم تَعُد تقام فيها، فَلم تَعُد هذه المنشآت تقومُ بعملها وتقدّم رسالتها للناس، ولَم يَعُد الناس ينتفعونَ منها، ما أثَر بالتالي على الحركة العلميّة في ذلك العصر.

يُلاحظ مما سبق، أنّ الأدباء كانوا حريصين على وصف الكارثة بدقّة تعكسُ اهتمامهم بها وانفعالهم برؤيةِ آثارها، كوصفهم ما تُحدِثُه مِن تغيير، وكيفية حصول هذا التغيير، بل ومساحته الفعلية على الأرض، وما أحدثته بالتالي من خسائر اقتصادية لمَن شملتهم هذه الكوارث، وما تسبّب عنه من نتائج اجتماعيّة أو ثقافيّة، تمثّلت في تشريدهم عن بيوتهم المنكوبة.

2- آثار الكوارث الطبيعيّةِ في الزراعة

صوّرت نصوص الأدباء في هذا العصر ما فعَلته الكوارث الطبيعية في المزروعات والأراضي الزراعيّة، فمن الأدباء من تحدّث عن أثر الكارثة في المحاصيل، ومنهم مَن صوّر أثرها في الأرضي الزراعيّة بعامّة.

---

[1] الفاخري، **تاريخ الفاخري**.ج 1.ص423- 424

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1. ص158

أمّا المحاصيل، فعكست بعضُ النصوصِ تأثيرَ كارثة ما على سلعةٍ زراعيّة بعينها، ومن ذلك ما قاله أحدُ الشعراء، عن كارثة الجراد الذي غزا محصول القمح عام 701هـ، يقول:

مَرَّ الجَرادُ عَلى زَرْعي فَقُلتُ لَهُ مُدَّ الجَناحَ وَلا تَجْنَحْ لإفْسادِ
فَقالَ مِنهم خَطيبٌ فَوقَ سُنبلةٍ أَنا عَلى سَفرٍ لا بُدّ مِنْ زادِ[1]

يصوّر الشاعر تأثير الجراد على سنابل القمح بشكلٍ ساخر، إذ جرى بينهُ وبينَ أحد المزارعين حوارٌ، يحاول المزارعُ من خلاله إقناعَ الجراد بعدم المساس بمحصوله، لكنّ الجراد يردُّ عليه جواباً مقنعا، فهو حشرةٌ لا تستقرُّ في مكان، ومَن يسافر عليه أن يحمَل معه ما يقوّيه، وسنابل هذه المزارع هي طعام هذا الجراد الذي لَم يُبقِ ولَم يَذَر.

إنّ هذا النوع مِنَ الخسائرَ لا يقتصرُ على الناحية المادية للمزارع فقط، بل يقّلل من كميّة الغذاء ونوعيّته.

ويذكر أدباء آخرون تأثير الكارثة على عدد من المحاصيل الزراعية المهمة، ومن ذلك ما أوردَه المقريزي في أثَرِ الريح السوداء التي حلّت بمصر عام 695ه، وأفسدت بطريقها غلالها: "فعند إدراك الغلال هبّت ريحٌ سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوبا عاصفاً، وحملت تراباً أصفرَ كسا زروعَ تلك البلاد، فهافت كلّها ولم يكن بها إذ ذاكَ إلا زرع قليل، فَسدت بأجمعها، وعمّت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية ومرّت إلى الصعيد الأعلى، فهاف الزرع، وفسَد الصيفيّ من الزرع، كالأرُز والسمسم والقلقاس وقصب السكر، وسائر ما يُزرع على السواقي، فتزايدت الأسعار "[2]

يعكس المقريزي هنا الحالة التي صارت عليها المزروعات عندما حان وقتُ حصادها، الذي تزامن مع هبوب تلك الريح المفسدة التي عمّت مناطق كثيرة، فَكثُر ضرررَُها، وعدّد أربعاً من المحاصيل التي فسدت، وكلّها محاصيلُ مهمّة يطلبها العامة، فكانت قلّتها تمهيداً لازدياد أسعارها في السوق.

---

[1] المقريزي، **السلوك**. ج1.ق2. ص 923

[2] المقريزي، **إغاثة الأمة**. ص 107

ويصوّر ابن فضل العمري في رسالته عن الثلج، إهلاكَ المطــر وَ الــثلج للمحاصــيل الزراعية في الشام إذ إنّه أتلف " من الأموالِ والمتاعِ والغلالِ ما لا يُعدّ "[1]، وهي إشارة منه إلى فساد المُنتج الزراعيّ في ذلك الشتاء، ثمّ يعكس بصورة مؤلمة كيفَ تدخل الآلاتُ لجرف الــثلج المتراكم على المحاصيل، فيقول: إنّ الأراضي الزراعيّة التي شملها الثلجُ بضرره قد " دخلتهــا بالجواريفِ البقرُ لجرف الثّلج، وما دخلت آلة الحرث دار قوم "[2]

فبدلَ أن تدخلَ الآلاتُ التي تجرّها الأبقارُ لحصاد المحاصيل الناضجة، ها هي معــدّات الجرف تدخل الأرض لإزالتها بَعد أن أفسدها الثلج، لدرجة أنّ الناس لَم يستخدموا آلات الحرث في تلك الفترة، بسبب كسادِ محاصيلهم ذلك الشتاء.

وقد يحصدُ موضع حدوث الكارثة أو مسيرها مزيداً مِن الأضرار علــى المزروعــات، فبعض الأمطار كانت تسيل مع السواقي، وتلتقي مع مجاري الأنهار، ما يؤدّي إلــى فيضــانها، فتزيد الكميّة المطلوبة للنبتة، ما يؤدي إلى الإضرار بها وتلفها، ومن ذلك ما أشار إليه ابن فضل العمري أيضا في رسالته، إذ تساءل عن الحال في تلك الأيام، فيقول في المطر: "وغَــرَّر هــذه الأيام المغرورة، وسواقي هذه الغيوث المذروره، وذرّر هذه الأنواء الرّواء بالأرض المضرورة، وسيوف هذه السيول الحرّة المطرورة، ونزول هذه الثلوج بعقد الــبلاء المصــرورة، ومشــي الخلائق في أردية هذه السحب المزرورة، وعبوس هذه الثنايا الضاحكة وما هــي مســرورة، و نوازل هذه الأمطار التي وُلدت بمواقعها النهر مسرورة، وعواصف هذه الأيام التي كأن بها جِنّة أو هي لكثرة المرور ممرورة "[3].

يعدّ ابن فضل هنا تلك الأيام الشتوية العاصفة بأنّها مغرورةٌ بقوّتها، فقد ســالت حتّــى أضرّت بالأرض، فكانت كالسيف عليها، ونزل بعدها ثلجٌ جلَب البلاء لها، فكان كلُّ مــا عليهــا مستاءً ممّا حصل، فتكاتفت الأمطار والثلوج على الأرض، وكذا العواصف القوية المجنونة التي أوقَعَت الضرر بالمحاصيل.

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 157

[2] المصدر السابق. ج1. ص 159

[3] المصدر السابق. ج1. ص 158

يتّضح فيما سبق، أنّ الأدباءَ عبّروا عن تأثير الكوارث الطبيعيّة على الجانب الزراعي، من خلال إشاراتهم لأنواع هذه الكوارث التي تؤثّر على التربة و المحصول، وبالتالي على المزارع والتاجر، إذ إنّ الأوّل عانى من كساد محصوله الذي هو مصدر رزقه الذي يعتاش منه، والثاني الذي لَم يجِد بدّاً من رفعِ سعرِ المحصول لقلّته، أو احتكاره في بعض الأحيان، الأمر الذي انعَكس على عامّة الناس، التي عانت نتيجة لذلك من قلّة الغذاء.

3- الغلاء

عاشَ الناس الذين عاصروا الكوارث الطبيعية في هذه الفترة الزمنية في ضيقٍ اقتصاديٍّ شديدٍ، وتشرّدٍ وقلق، نتيجة ما خلّفته هذه الكوارث من خراب في المنشآت العمرانيّة والقطاع الزراعيّ، ولَم يعُد الأمر محصوراً بهؤلاء الناس، بل مَسّ الناس بعامة بطريقة غير مباشرة، من خلال ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكيّة ولا سيّما الغذائيّة.

ويفصّل بعضُ الأدباء كالمقريزي، أثمان الزروع والسلع التي ارتفعت، فقال في غلاء 695ه:" وبيع الفرّوج بثلاثين درهما، والبطيخة بأربعين، والرطل من البطيخ بدرهم، والسفرجل ثلاث حبات بدرهم،والبيض ثلاث حبات بدرهم، وتزايد القمح إلى مائة وتسعين الأردب والشعير إلى مائة وعشرين، والفول والعدس إلى مائة وعشرة دراهم، وأقحطت بلاد القدس والساحل ومدن الشام إلى حلب، فبلغت الغرارة من القمح إلى مائتي درهم وعشرين، والشعير بالنصف من ذلك، واللحم الرطل إلى عشرة دراهم، والفاكهة إلى أربعة أمثالها "[1]

يتّضح من السابق الترابط بين السلع الغذائيّة للإنسان، فالمقريزي يبدأ كلامه بذكر ثمن الفرّوج الذي يعدُّ ثمنه أغلى من غيره من السلع النباتية في الأحوال الطبيعيّة، فيصوّر بشكل غير مباشر كيف أنّ الناس استثنت في تلك الفترة الاعتماد على السلع الحيوانية، وكيفَ أصبحت الفاكهة أغلى ثمناً من غيرها، فيُنهي حديثه بثمنها المضاعف عن ثمن اللحوم، فالغطاء النباتي لَم يكن وَحدَه المتضرّر، بل الحيوانات التي تعتمد عليه، ما أدّى إلى نفوق الحيوانات نفسها.

[1] المقزيزي، **إغاثة الأمة**. ص 108

ويصوّر الشيخ محيي الدين النووي في رسالةٍ لَه عن الجدب في الشام: " أهل الشام في هذه السنة في ضيق عيشٍ وضعفِ حال، بسبب قلّة الأمطاء وغلاء الأسعار، وقلّة الغلّات والنبات، وهلاك المواشي وغير ذلك " [1]

وحوَت بعض النصوص صورةً ساخرةً، تبيّنُ الحالة التي وصل إليها الناس في أثناء الغلاء وقلّة الغذاء، إذ أصبَح الناس يخبّئون الطعام في أماكن خاصّة عن عيون أبنائهم لتجزيئه على اليوم بأكمله، وهي صورةٌ تبيّن حجمَ المعاناة التي كان الأهالي يعانونها مع أطفالهم على وجه الخصوص، ومن ذلك ما نَظَمه ابن دانيال في وصف حالته مع أطفاله يَوم أقحطت مصر لتوقّف النيل فيها، يقول:

إنَّ عِندي مِن عِيالي صِبيَةً مِثْلَ الخَبايا
يُخرِجون الخُبزَ لَو خَبّأ تُه تَحتَ الحَشايا
ولَو أنّي كُنتُ بَحراً شَرَّبوني بالرَّوايا [2]

يصوّر الموصلي أطفاله يطلبون الخبز ويبحثون عنه ولو كان في الأحشاء، وهي صورةٌ تعبّر عن قسوةِ الحالة التي كان يعيشها الشاعر مع أطفاله جرّاء قلّة الغذاء، وهو أمرٌ من بَدَهيات الحياة للاستمرار فيها، لكنّ هذا الطَلَب يُواجَهُ بالسخرية من الشاعر الأب كما هي الحال في البيت الأخير، في هذه السنة المجدبة الذي ارتفع فيها سعرُ كلّ شيء.

ومن ذلك أيضا وَصفُ البدر بن حبيب، كيف تضاعفت أثمانُ بعض السلع الأساسية في حلَب:

كَيفَ لي بِالمُقامِ وَالخُبزُ فيها كُلُّ رَطلٍ بِدرهمين وَدرهم [3]

يتساءَل الشاعر في البيت السابق، عن الحال الذي سيعيشه لو بقيَ في حلَب التي عانت من كارثة الطاعون، وضرَب مثالاً على سلعةٍ أساسيّة فيها وهي الخبز الذي بَلَغ ثمن رطله ثلاثة دراهم.

---

[1] السيوطي، **حسن المحاضرة**. ج1. ص 105

[2] ابن دانيال، **المختار من شعر ابن دانيال**. ص 180

[3] السخاوي، **وجيز الكلام**. **ج1** .ص 213

ويزدادُ الغلاء مع استمرار الكارثة، ويجوع الناس ويعاني الأطفال، فيزداد إقبال النـــاس على النزوح من بلادهم إلى مناطق أخرى تُوَفّرُ لهم الأمن الغذائي، ليضمنوا عيشـــهم وعـــيش أولادهم، وهم يظنّون أنّ الهجرة ربّما تكون حلّا لمشكلتِهم.

4- انتشار الموت

حظيَ تصويرُ الموتِ بنصيب وافرٍ عندَ الأدباء؛ لما في المـــوتِ مـــن صـــدمةٍ نفســـيّة للإنسان، ومعاناةٍ مضاعفة له، لا سيّما في هذه المرحلة التي قاسى فيها الناس كثيراً من الكوارث الطبيعيّة وآثارها، التي سبّبت لهم كثيراً من الأضرار النفسيّة والاقتصاديّة،وتسبّبت في تـــركِهم ديارَهم بحثاً عن مكان آمِن لهم ولأطفالهم، تتوفّر فيه مقوّمات الحياة، وكانَ ذلـــك شـــائعا فـــي المناطق الريفيّة التي يعتمدُ سكّانها على الفلاحةِ حرفةً لهم، فإذا عمَّت الكوارث أرضَهم كالجراد أو الفيضانات أو القحط، كانت تلك السنة سنةَ لعنةٍ عليهم.

وبعضُ الناس لَم يستطيع التحمّل أكثر، لا سيّما المهاجرين، الذي كان نزوحهم يتطلّـــب غذاءً وماءً ودواءً لمرضاهم وقوّةً بدنيّةً لتحمّل مشاقّ السفر، ففقدوا بعضَ أحبّتهم جـــرّاء ذلـــك، وازداد الموتُ بينهم جوعاً وعَطَشا، وتراكمت الجُثث، وحَمَلت الرياح معها الهواءَ الفاسد النـــاتجَ عن انتفاخ بعض الجثث، ما سبّب انتشار الطواعين والأوبئة بينهم.

ويشير المقريزي إلى انتشار الطواعين في المناطق الريفية تأثّرتْ بالكارثة أكثـــر مـــن غيرها، فيقول: " عظمَ الوباءُ في الأريافِ والقرى، وفشَت بالقاهرة ومصر، وعظمَ الموتان "[1]

فالبلاءُ الأكبرُ في نظر المقريزي في المناطق الزراعية، إذ ماتَ الكثيرُ منهم فلَم يُدفَنوا، وخرجَ آخرونَ منها فنقلوا المرضَ أو هَلَكوا على الطريق، وساعدَ فسادُ الهواء في نقل المرضِ إلى المناطق الحَضَرية،التي سرعان ما تأثّرت بالأوبئة، فانتقلَ المرَض، ومَن لَم يُصَب بالمرض، تأثّر بالغلاء والجوع، فحصَل لَهُ ما حصَل لغيره.

[1]المقريزي، **إغاثة الأمة**. ص109

واهتمّ الأدباء بتصوير الأمراض التي شاعَت بينَ الناس، وأدّت إلى ظهور وباءٍ اجتـاح مناطق واسعة من العالم في ذلك الوقت، فصوّروا أعراضه و طُرَقَ انتشاره وسُرعَةَ نفاذه في مناطقَ متعدّدة، وكانَ أكثرُ ذلك في الشعر.

وكانت أعراضُ مَرَض الطاعون أكثرَ ما صوّره أدباء العصر المملوكيّ، فأكثروا من ذكر المواضع التي يظهرُ فيها المرضُ ، فكانَ من أهمّ أعراضه ، خروجُ بَثراتٍ أو حبوبٍ من جسدِ المريض، بما كان يُعرف بينَ العامّة بالطُلوع أو الكُبّة.

يقول جمال الدين ابن نباته مصوّراً ذلك:

سِرْ بِنا عَنْ دمشْقَ يا طالِبَ العَيْشِ فَما في المُقامِ للمَرءِ رَغْبه
رَخُصَت أَنفُسُ الخَلائِقِ بالطّاعونِ فيها فَكُلُّ نَفْسٍ بِحبّه [1]

يدعو ابن نباتة إلى ترك مدينة دمشق بسبب وجود الطاعون فيها، فقد رخصت حياة الإنسان التي باتت تساوي في أيام المَرض خروج حبّة من جسمه تؤدي به الى الهلاك.

وأورد غيرُ أديبٍ هذا الغرَض في أبياتٍ مختلفة، مصوّرين أثَرَهُ على مدينة دمشق، وها هم الأدباءُ يدعونَ لها بالصلاح في صورةٍ مؤثرّة، وكأنّها هي المسؤولةُ عن هذا المرض، وفي ذلك يقول ابن الوردي في طاعون 749هـ:

أَصلَحَ اللهُ دِمَشقاً وَحَماها عَنَ المَسَبَّه
نَفْسُها خَسَّتْ إِلى أَنْ تَقْتُلُ النّاسَ بِحَبَّه [2]

وقد يستعيرُ الأدباء أسماءً أخرى للمدينة نفسها، كي يعبّروا عن هذا العَرَض الذي انتشر في أفيائها، فأدّى بالناس إلى الهلاك، فعلى سبيل المثال، استخدام الشعراء اسم " جلَّق " وهو اسم من أسماء مدينة دمشق، يقولُ الصفدي:

أَسَفي عَلى أكناف جِلَّقَ إذ غَدَا الطّاعونُ فيها ذا زِنادٍ وَاري

---

[1] المقريزي، **السلوك**. ج2.ق3.ص775

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 88

المَـوتُ أَرخَـصُ مـا يَكـونُ بِحبّـة وَالظُلـمُ زادَ فَصـارَ بِالقِنطـارِ[1]

يأسفُ الصفدي على الحالة التي وصلت إليها مدينة جِلق " دمشق "، وهو يصفها بالمدينة الظالمة، إذ إنّها أصبحت رمزاً للموت، تطلقه على كلّ مَن فيها، بوساطةِ حبّة تظهرُ عليهم، حتّى أصبحت هذه المدينة مكاناً لهذا المرض الذي باتَ يُعرَف من خلال بروز هذا العَرَض.

ويعبّر بعضُ الأدباءُ عن هذه الحبّة القاتلة دونَ ذكرِ مكان معيّن، مصوّرا رُخص حياة الإنسان فيها بفعل الطاعون، ومن ذلك قول جمال الدين بن المعمار:

قَـبُحَ الطـاعون داءً فُقِـدَتْ فيـه الأَحبّـة
بِيعَـت الأَنفُـسُ فيـه كُـلُّ إِنسـانٍ بِحَبّـة[2]

يعبّرُ الشاعر في البيتين السابقين أثر داءِ الطاعون، فهو المسؤول عن موتِ مَن نحبّهم، بحبّة تظهر في أجسادهم.

يظهرُ من السابق أنّ عناية الأدباء بذكر هذا العَرَض في أشعارهم؛ فهو العَرَضُ الذي أقلقهم وأفزعهم، وارتبطَ بالموت لديهم، وزادَ في ذلك أنّه لَم يكن سوى حبّة تظهر في جسد المريض، وصَفَها الصفدي في رسالته عن الطاعون بأنّها " يَعزُّ نعتها على مَن وَصَفَ أو شبّه"[3].

ومنَ المناطق التي تظهَرُ هذه الحبّة الصغيرةَ ، هي منطقة خلف الأذن، وفي ذلك يقول الصفدي متعجّبا من ذلك:

تَعَجَبت مِـن طـاعونِ جِلّـقِ إذْ غَـدَا وَمـا فـاتَت الآذان وَقـعَة طَعنَـه
فكَم مُـؤمنٍ تَلـقـاه أذعـنَ طـائِعـاً عَلى أَنَّهُ قَدْ مَـاتَ مِـن خَلْـفِ أُذْنِـه[4]

ويصفُ الصفدي في أبياتٍ أخرى موضعاً آخر تظهر فيه الحبّة القاتلة، وهو تحتَ إبطِ المريض، وهو مكانٌ خفيٌّ قد لا يدركُه المريض بعينه بشكل مباشر كالموضع السابق، وقد عبّر عن ذلك الصفدي في بيتين يشيران إلى ذلك الموضع.[5]

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 113

[2] ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**.ج10.ص168،ووردت في المقريزي، **السلوك**،ج2.ق3. ص791: " كل نفسٍ بحبيبة".

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 113

[4] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 114. **المقريزي**، السلوك.ج2.ق3. ص 789

[5] انظر: تفسير الكارثة 33

ويذكر الشعراءُ عرَضا آخرَ يظهر على المريض، وهو خروج شيء على جسده يشبه شكلَ (الخيارة)، فسمّيّ بهذا الاسم وورد في الشعر هكذا، كما يبدو في قول الصفدي معبّرا عمّا نزل بمدينة دمشق من قضاء الله وقدره:

ثَلَّ هذا الطاعونُ عَرْشَ دِمَشقٍ بِقَضاءٍ مِن رَبِّنا سُبحانهْ
فَلَكَم ماتَ بالخيارةِ شَخصٌ كان يَبدو كَأنّه رَيحانهْ[1]

ويصوّر الصفدي في موضع آخر من رسالته في الطاعون هذا العَرَض، فيقول: " وقاسى النّاس منه أهوالاً وشدّة، ثمّ إنّه جاء بخيارة، تطلع في الأربية مما كان للنّاس منها الخِيَرة، ولا نجّاهم التسليم والانقياد ولا التشاؤم "[2]

يعكس الصفدي في قوله هذا، معاناة الناس من ظهور (الخيارة)، وهي تظهر في المناطق المرتفعة الظاهرة من جسد الانسان، فتكون سببا في هلاكهم، ولا ينفعهم ما يتّخذونه من سُبُلٍ تقيهم هذا العَرض.

ويصوّر الأدباء أعراضاً أخرى تصيب المريض وتكونُ مصاحبةً لظهور الحبّة أو الانتفاخ في الجسد، يشعرُ بها المريض ويعاني منها أياماً أو أقل، ثمّ يموت، ومن هذه الأعراض، بصقُ المريض الدَّمَ من فمه، وفي هذا العَرَض يقول الصفدي:

كَم هالكٍ نَفَثَ الدَّما مِن حَلقهِ أوَ ما تَراهُ بِغير سكّينٍ ذُبِح[3]

يبدو من البيت الأخير أنّ الأدباءَ كانوا يعكسون نَظرتهم للمرض، بوصفه شيئاً يدمّر المصاب به من الداخل، فلا يجدُ المريضُ في البداية غير حبّة خلف أذنه أو تحتَ إبطه، ثمّ يجد أنّه يتفتّت من داخله، بدليل خروج الدم من داخل جسده عبر فمه إلى الخارج.

ويعرض ابن الوردي نظرتَهُ إلى المرض، وكأنّه يسخرُ من أعراضه التي لا توازي نتيجته، فيقول في أعراض طاعون 749هـ:

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 114

[2] المصدر السابق. ج1. ص 114

[3] المصدر السابق. ج1. ص115.المقريزي، **السلوك**. ج2.ق3.ص789

أَصــــــبحَت حَبَّـــــــةَ ســـــــوءٍ تَقتـــــــلُ النّـــــــاسَ بِبَزقَـــــــة[1]

يجمع الشاعر في هذا البيت بين عَرَضين للمرض ترافقا للفتك بالناس، وهما حبّة يعرف بها المريض بإصابته، وبصقةٌ تطيحُ به إلى الموت.

ومن أهمّ النصوص التي صوّرت أعراضَ المرض أيضاً، القصص الشعبية التي رواها الناس في أثناء المرض، وتناقلوها فيما بينهم، فصاغها الأدباء والكتّاب في مؤلّفاتهم، فتناولـت العرَضَ وشكلهُ في جسد المريض، وليسَ هذا فقط، بل صوّرت كيفيّة انتقال العدوى بينَ الناس، وسُرعةَ انتشاره، ومن ذلك ما كتبه ابن تغري بردي في قصّة مغسّلة للموتى في أثنـاء انتشـار الطاعون، إذ قال: "دخلت امرأة غاسلة لتغسّل امرأة، فلما جرّدتها من ثيابها، ومرّت بيدها علـى موضع الكُبّة،صاحت الغاسلة وسقطت ميتة، فوجدوا في بعض أصابعها التي لمست بها الكبّـة، كبّة قَدْر الفولة "[2]

تصوّر القصّة السابقة أمرين مهمّين، هما طريقة العدوى وسرعة انتشارها، فالحبّة التي تظهر على جسد المريضة، انتقلت بشكل سريع إلى الغاسلة بمجّرد لمسها لها، وقد ظهر مكانهـا في المنطقة التي لامست فيه الغاسلة الحبّة مباشرة، وكانت النتيجة سريعة جـدّا، إذ إنّ الغاسـلة لفظت أنفاسها فورا.

وقَد قدّمَ الأدباءُ صوراً مختلفةً للمرض، تدلّ على سرعةَ فتكه بالناس، فهـذا الصـفدي يصوّر الطاعون بالوحش المفترس الذي ينقضُّ على فريسته على حين غرّة فيقتلها في حينها:

لمّـــــا افترســــــتَ صِـــــحابِي يـــــا عـــــامَ تِســـــعٍ وَ أَربعينـــــا
مـــــا كُـــنـــــــتَ واللهِ تِسْعــــــــاً بَـــــل كُنـــتَ سَبعـــــاً يَـــــقينا[3]

يُصوّر الصفدي سرعة الموت، فقدّم صورةَ (الافتراس) كأفضلِ صورةٍ تعبّر عن سرعةِ انتهاء أجل المريض بالطاعون، فهذا العام وهو 749ه، لم يَكُن عاماً عادياً، بل كانَ عامَ الموت، فينقضُّ الموتُ على الناس مُسرعاً كما ينقضُّ السّبعُ على فريسته.

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص 91

[2] ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**. ج10. ص 164

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 113. ابن إياس. **بدائع الزهور**. ج1.ق1..ص 532

ويصوّر الصفدي سرعةَ فَتكِ الطاعون بالناس في أبياتٍ أخرى، تؤكّد قضاءَه على أسَرٍ بأكملها، وهي صورَةٌ حزينةٌ انبرى شعراءُ وكتّاب لتصويرها، فيقول في هذا:

قَدْ نَغَّصَ الطّاعونُ عَيشَ الورَى وأذهلَ الوالدَ وَالوالدَهْ
كَم مَنزِلٍ كَالشَّمعِ سُكّانُهُ أَطفَأَهُم في نَفخةٍ واحِدَهْ[1]

تأتي الصورةُ في هذين البيتين حزينةً تعبّر عن مأساةٍ اجتماعيّة وفاجعةٍ إنسانيّة كبيرة، فالإنسانُ الذي يعيش سنواتٍ وسنوات لينشئَ أسرةً لَه، يأتي الطاعون بلمحِ البصَر ليقضي عليه وعلى أهلِ بيته كلّهم، فإن بقيَ أحدٌ منهم، فإنّه يعيش لكَدَر العيش، لا سيّما الوالدين.

ويصوّر ابن الوردي أيضا ما يفعله الطاعون عندما يدخلُ إلى بيوت الناس:

يَدخُل الى الدّارِ وَ يَحْلِفْ ما يَخرج إلاّ بِأَهلِها
معي كِتابُ القاضي بِكُلِّ مَنْ في الدّارْ[2]

يعكس الشاعر هنا أثرَ الموت الفتّاك بشكلٍ قاسٍ، إذ إنّ الوباء يأخذ الناس بالجُملة، وكأنّه مكلّف بذلك، وهي صورةُ تؤكّد سرعةَ انتشارِ المرض، لا سيّما في المناطق المحصورة.

ومن الكوارث الطبيعيّة التي صوّر فيها الأدباء الموت السيول، وهي مشابهةٌ في صورتها لصورة الطاعون، فالسيلُ القويّ إن دَخَل على قريةٍ أو بيتٍ دمّره، وجاءَ على كلّ مَن فيه، لا سيّما الأهلَ والأحبّة، ومن ذلك ما رواهُ الأدباءُ من قصص واقعيّة، مثل قصّة حصلت للقاضي تاج الدين ابو سعد السعدي المعروف بابن البارنباري[3] أنّه " في سنة خمسٍ وأربعين وسبع مئة، كان في الشّتاء نائماً هو وأولاده فجاء سيلٌ عظيم، وكانت داره على النهر،وكان للسيل ضجّة من الناسِ وضوضاء، فقامَ من فراشه ليعلم ما الخبر وعاد فلم يجد داراً ولا سكاناً، وراحَ البيتُ وولداه،وأحدهما موقّع والآخر ناظرُ الجيش، وجميعُ ما في البيت الى البحر، وانتبه

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ص115

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 93

[3] محمد بن محمد بن عبد المنعم، وهو قاضٍ وكاتب وشاعر وناثر، ولد سنة 696ه ،عمل كاتب إنشاء في مناطق متعدّدة، مات في القدس سنة 757هـ. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج1. ص 259

الناس لهذه المصيبة العظمى، وركب النائبُ وتوجهوا إلى البحر إلى أن طلع الضـــوء وقــذف الموج ولديه وهما ميّتَان"[1]

تعكسُ هذه القصّة معاناةَ الناس في أثناء كارثة السيل، فهيَ تأتي فجأة، ولا يدري عنهـــا أحد، فمن أحسّ بها هو الذي نجا منها،وتكشّفت لَهُ آثارها بفزعٍ بعد انتهائها، فهذا القاضي، لَــم يجد بدّاً من استيضاح أمرِ السيل الذي عمّ القرية، فقام من أجله فزعا من نومه، فما عـــادَ إلّـــا والسيل قد أتى على أهل بيته وأهلكهم، و دمّر بيته معهم، وكلّ مَن كـــانوا قـــريبين مـــن ذلـــك الموضع، ليجد جثّتي ولديه على الشاطئ، وهو منظرٌ مؤلم.

ويبدو من خلال القصّة أنّ هناك بعض الأمور التي ساعدت على زيادة قوّة السيل فـــي إهلاكِ الأنفس، وهو وجود النهر، الذي زادَ من قوّة دفعِ السيل، فلم يدمّر المنشآت فقط، بل أهلك الناس أيضا.

وتصوّر بعض القصص تدرّج الكارثة في التدمير، فبعضُ الكوارث تدمّر المنشآت، ثـــمّ تعود لتهلك الناس الذين لَم يبقَ لهم شيء من قبل، فتأتي على أُسَرٍ بأكملها، ومن ذلك مـــا رُوي عن عاصفةٍ هوجاء في نواحي طرابلس، قتلت نحو ستّة عشرَ فرداً في موضعٍ واحد، في الوقت نفسه، ومن بينهم رجلٌ كانت لَهُ بيوتٌ هناك، جاءت العاصفة عليها و " بقيت على بيوته ســـاعة زمنية تروح عنه يميناً وشمالاً، ثمّ تعود إلى البيوت، فما تركت له شيئاً، لا من البيوت، ولا من الأثاث، فلمّا عاين ذلك الرجل قال: يا ربّ قد أخذتَ جميع الرزق و تركتَ العائلـــةَ بـــلا رزق، أيش تركتَ لي حتى أُطعمهم ؟ فعادت الريح على بيوته صورة تنّين، فأهلكته، وأهلكت زوجته، وابنته و ابني ابنته، وجاريته، وجماعة عددهم إحدَ عشر نفراً "[2].

تصوّر هذه القصة كيفَ تأتي الكارثة على عائلة بأكملها، وعلى كـــلّ شـــيء يخصّـــها، وتأخذ طابعا مميّزا هو ضرورةُ إيمانِ الناس بقضاء الله وقَدَره، فجاءت العاصـــفةُ المخيفـــة ردّاً على عدم ثقته بما قدّر الله تعالى.

---

[1] الصفدي، **أعيان العصر**. ج5. ص 171

[2] الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ج1. ص 431

وقد تأخذ القصص طابع المفاجأة السارّة فيما يتعلّقُ بالموت، حينَ يُظنُّ أنّ أحدَهم ماتَ، ثمّ يخرجُ من المحنةِ على قيد الحياة، وهو طابعٌ تغلبُ عليه ميزة الأعجوبة، ومن ذلك مـــا رويَ عن بائعِ لبَن دُفن تحت ردم زلزلة عام 702ه لثلاثةِ أيّام، وفي ذلك " قيل إنّ شخصاً كان يبيعُ اللبن، فسقطت عليه الدار، فظنّ النّاسُ أنّه مات، فأقامَ تحتَ الردم ثلاثةَ أيّامٍ بلياليهـــا، فلمـــا شالوا عنه الردم، وجدوا فيه الرّوح، وقد تصلبَ عليه أخشابُ الدّار فسلم، وسلمت معه جرّة اللّبن التي كانت في يده، وهذا من العجائب."[1]

تصوّر هذه القصّة حجمَ المعاناة التي كان يعاني منها الناس في أثنـــاء الـــزلازل، إذ إنّ معالمَ الكارثةِ تستمرُّ وقتاً على الحالة نفسها من الدمار، وقَد تحملُ بينَ هـــذه المعـــالم ضـــحايا بعضهم يدفَن من غير تابوت، وبعضهم يكون على قيد الحياة، ينتظرُ فرصة النجاة.

يتّضحُ ممّا سبق، أنّ الموتَ كان من أبرز النتائج التي رافقت حلول الكوارث الطبيعيّة، فكان الناس يموتون بالكارثة بشكل غير مباشر؛ وذلك عن طريـــق الأمـــراض التـــي تســـبّبت الكوارث بشيوعها بينهم، فانبرى الأدباء لتصوير المرض وكيفَ يودّي فـــي النهايـــة للمـــوت، وصوّروا الموت كيف يحلّ بطريقة مباشرة ودون مقدّمات، فورَ حدوث الكارثة، وذلك باستخدام فنونٍ أدبيّة مختلفة، تظهر فداحة الكارثة وطرقَ فتكِها بالناس، والأعداد الكبيرة التي كانت تقْضي فيها.

5- مظاهر سلبيّة أخرى

انتشرت مظاهر سلبيّة أخرى في أثناء الكوارث الطبيعيّة، منها شماتَةُ الناس ببعضـــهم، فبعدَ الطواعين التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في العصر المملوكيّ وما خلّفتـــه مـــن مـــآسٍ إنسانيّة، تعرّض هذا المجتمعُ للشماتة من أعدائه، ومن ذلك ما عكسه ابن الـــوردي فـــي أثنـــاء طاعون 749ه، يقول:

[1] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج2.ق1.ص 416

سكّانُ (سـيسَ)[1] يَسُـرّهُمْ مـا سـاءَنا وَ كَـذا العَوائِـدُ مِـنْ عَـدُوّ الـدّينِ
اللهُ يَنْقُلُـــــه إلـــــيهمْ عــــاجِلاً لِيمـــزّقَ الطـــاغون بالطـــاعون [2]

يصوّر حالة الفرح التي اعترت سكّان هذه البلاد، لما حلّ في البلاد الإسلاميّة من وبـاء عاصف، وهو يستبشرُ بوصول الوباء إليهم، ليردّ الله كيدهم. [3]

وعكسَ ابن الودري في الموضع ذاته حالةَ الغضب التي اعترت المسلمين جـرّاء هـذه الشماتة، يقول: " وممّا أغضب الإسلام، وأوجبَ الآلام، أنّ أهل سيس الملاعـين، مسـرورون لبلادنا بالطواعين، حتّى كأنّهم منه في أمان، أو عليه أن لا يقربهم ضمان، أو كأنّهم إذاً ظفروا، وربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا "[4]

يعكسُ ابن الوردي نظرته إلى الشامِتين بمصائب غيرهم، فالوباء هو أمرٌ محتوم لا رادّ له، ولا تستطيع أيّة أمّةٍ اختيارهُ أو الهروب منه، وفي ذلك تتسـاوى الإنسـانيّة فـي المـرضِ والموت، وشماتة الأمم ببعضها هو أمرٌ يصوّر ازدراءَ بعض الشعوب لبعضها وقـتَ حـدوث الكوارث، وهو قيمةٌ اجتماعيّة سلبيّة، لا تعكسُ رقيّ الجانب الإنسانيّ في هذه المجتمعات.

وتناول الأدباء في مواضع أخرى، ظواهرَ سلبيّة انتشرت في المجتمع الإسلاميّ الـذي عانى مِن وقعِ الكارثة، ومِن أهمّ مظاهرها،انتشار السرقات بين العامة، ومـن ذلـك مـا رواه المقريزي في إمساك المطر عن مصر وتعرّضها للقحط عام 695هـ:

"واشتدّ الأمر بمصر، وكثر الناس بها من أهل الآفاق، فعظم الجوع، وانتهب الخبز مـن الأفران والحوانيت، حتى كان العجين إذا خرج إلى الفرن انتهبه الناس فلا يحمل إلى الفرن، ولا

---

[1] ويقال له سيسة أيضا، وهي من أعظم الثغور الشامية، ارتبط اسمها بمَسكن سلاطنة الأرمن فيها. انظر: الحموي، **معجم البلدان**.ج 3.ص 297-298

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 94

[3] انظر أيضا: عبد الرحيم ، رائد ، **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي ت (749هـ) دراسـة نقديـة**. ص 1504

[4] ابن الوردي، **الديوان**.ص92 انظر أيضا: عبد الرحيم ، رائد ، **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابـن الـوردي ت (749هـ) دراسة نقدية**. ص 1504

يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة يحملونه بالعصا من النهابة، فكان من الناس من يلقي بنفسه على الخبز ليخطف منه، ولا يبالي بما ينال رأسه من الضرب، لشدّة ما نزل به من الجوع "[1]

يرى المقريزي أنّ السرقة كانت من أبرز النتائج الاجتماعية السلبيّة التي انتشرت في المجتمع الذي حلّت به كارثة طبيعيّة، وضَرب المثل على ذلك بما حلّ بأهلِ مصر إذ زاد الجوع بينهم، وبالتالي لجؤوا لسرقة الخبز والطحين أيضا، ويبدو أنّ مَن قاموا بالسرقة هم من العوام العاديين، إذ لَم يُشِر المقريزي إلى كَونِ هؤلاء من اللصوص، والدليل على ذلك أنّهم قاموا بسرقة الخبز، وهو القوتُ الرئيسي الذي يقوم به جسد الإنسان، ولم يشِر إلى سرقةِ أشياءَ أخرى ثانوية، كما أنّ هؤلاء الناس كانوا يحتملون ما يتعرّضون له من عنف في أثناء انقضاضهم على الخبز، الذي كان عيانا بين الناس، وهذا دليل على أنّ الغرَض الرئيس من السرقة هو سدُّ غريزة الجوع.

ومن الظواهر الاجتماعيّة السلبيّة، ما كانَ بعيداً عن الدين والثقافة الاجتماعيّة البعدَ كلّه، وانتشر بين بعض الناس، ففي أثناء الكوارث، روى الأدباءُ في نصوصهم ما شاعَ بينَ الناس عن بيعهم أولادهم لشراء الطعام، ومن ذلك ما يرويه المقريزي: "وعدم القوت ببلاد اليمن واشتدّ الوباء، فباعوا أولادهم في شراء القوت. "[2]

يعكس المقريزي صورةً تبعثُ على الدهشة والعجب والألم في الوقت نفسه، إذ إنّ الآباءَ لجؤوا لبيعِ أطفالهم مقابل الحصول على مالٍ لشراء الطعام أو مقابل الطعام نفسه، وهي صورةٌ تعكسُ حالةَ القهر التي وصَل إليها الناس في ذلك الوقت،وانحطاطَ المبادئ والقيَم الاجتماعيّة لديهم.

ومن المظاهر السلبيّة التي تتعارض معَ الدين ومع قيم المجتمع وثقافته، أكلُ الناسِ لموتاهُم، وهي ظاهرةٌ غريبةٌ على المجتمع العربي والمسلم، أخرجت الإنسانَ عن آدميته، فجعلت من بعضهم مثل آكلي لحوم البشر، وقد كثرت القصص التي تحدّثت عن هذا الجانب

[1] المقريزي، **إغاثة الأمة**. ص 108

[2] المصدر السابق. ص 108

الاجتماعيّ المأساويّ، ومِن ذلك ما رُوي على لسان رجلٍ كانَ يخدمُ في ديوان نقيب المماليــك السلطانية، يقول:

"طلعتُ في الغلا ذات يوم فنظرتُ تحت القلعة إلى جماعة كبيــرة مجتمعــين وبيــنهم شيء،فأتيتُ إليهم فوجدت ثلاث نفرٍ قد مسكهم متولي القاهرة، واحد مــع الجمداريــة [1]صــغير سباعي العمر،قد قطّعت يداه ورجلاه وجوّف ودهن بزعفران، وقد شُوي كما يُشوى الجَــديُ أو الخروف، فسألت، فقيل لي، إنّ هؤلاء الثلاثــة وجــدناهم جلوســاً يريــدون أكلــه، فهجمنــا عليهم،وقررناهم،فاعترفوا أنهم فعلوا بالأمس بأخرى مثل هذا الفعل، فرسم بشنقهم، فشنقوا ببات زويلة،ولم يصبح منهم شيء، فقد أكلهم غيرهم، فكما أَكَلوا أُكِلوا، وهذه من غرائب البلايا ".[2]

تعكس القصّة السابقة لجوء بعضهم إلى أكلِ الميتة من الناس، والكيفيّة التي كانوا يأكلون بها، فكان الميتُ يقسَّم وينظّف كما تنظّف الحيوانات التي يأكلها الإنسان في العادة، وتضاف إليه النَكَهات التي تجعل طعمه مقبولاً للآكلين، ويُشوى حتّى ينضج كما لَو كان لحما سائغاً للأكــل، وكان الفاعل يعترف بذلك وينال عقابه من الدولة، حتّى إذا نالَ جزاءَه وشنق، نالَ بعدَ موته كما فعل مِن قبل، فيلتقطه آخرون جائعون ويأكلونه، ويظهر من خلال القصّة أنّ لحومَ الأطفال كانت مستساغةً أكثر مِن غيرها لدى الآكلين، وقَد يرجعُ السبب في ذلك أنّ الأطفال كانوا مــن أكثــر الفئات التي تتعرضُ للموت، أو ربما كان طعمُ لحمها مستساغاً أكثر من غيره.

ولا يقتصر الأمر على الرجال، فللنساء نصيب من أكل لحوم الآدميين أيضا، لا ســيّما الأطفال، ومن ذلك ما رواهُ المقريزي في قحط عام 749ه، عن قصّة المرأة التي وجدها بعــض الأمراء تستعطي عند باب في السوق فأخذها أحدهم الى داره فأطعمها وسقاها وكانت فــي كــل

---

[1] هو " من يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير لباسه " دهمان، محمد أحمد: **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملــوكي**. ط1. لبنان:دار الفكر المعاصر. 1990.ص 54

[2] الدواداري، **كنز الدرر**. ج8. ص 364

مرة يأتي لها بإناء طعام تشتكي الجوع فيلحقها بإناء آخر حتى استندت في آخر أمرها الى حائط ونامت، ثم ماتت، ووجدوا معها جِراباً [1]فيه أطراف طفل.[2]

ويتعدى الأمر ذلك إلى أكل الآباء أبناءهم كما تروي القصص أيضاً، ومن ذلك ما يرويه ابن الجزري في تاريخه على لسان أحدهم الذي روى له القصّة في أثناء مروره بالديار المصرية إلى مدينة دمشق، يقول:"كنتُ راكباً في طريق قلعة القاهرة، وأنا أساير بعض الأمراء،وإذا بامرأة وقدامها لحم مشوي وعليه أبازير جرة،فقيل لها، أيش هذا ؟ فقالت هذا ولَدي، فلاموها على ذلك، فقالت: وهذا وحده ؟ قد عملت باثنين قبله مثله ".[3]

تبدو القصّة السابقة الأكثر عجباً ومأساويّة، فالأمُّ التي هي رمز التضحية والحب تصبحُ آكلةً للحوم أبنائها الموتى، وهي لا تشعرُ بالندَم كما يظهر من خلال القصّة، بل إنّها قد أكلت غير ولدٍ من أولادها، وتبدو ظاهرةُ أكل لحوم الأطفال وكأنّها شائعة ومألوفة، فالأمراء وهم رمزٌ من رموز السلطة، لاموا المرأة على تصرّفها، ولَم يذكر الراوي العقاب الذي وَقع عليها، واكتفوا بإظهار اللوم، لأمٍّ لَم تحاول إنكار فعلتها أو الكذب، فلقد أجابت عن سؤال الأمراء بإجابة محسومة العواقب، بل واعترفت أيضا بجرائم أخرى دون أن تُسأل عن ذلك.

يظهر مِمّا سبق، أنّ هناكَ ظواهر اجتماعيّة سلبيّة رافقت الكوارث الطبعيّة، وزادت الأوضاعَ سوءاً على الناس، وبعض هذه الظواهر ما كان بينَ مجتمعين مختلفين، ومنها ما كان داخل المجتمع الواحد، ويلاحظ أنّ القصص هي أكثر فنّ تناول هذه الظواهر، وقد بدت قصصاً غريبةً، وربّما مبالغاً فيها، لكن المُلاحظ أيضا أنّ غيرِ كاتبٍ أوردَ قصصا مشابهة، تعكسُ الصورة نفسها التي تظهرُ هذه العادات الاجتماعيّة السلبيّة التي ظهرت في المجتمع الإسلاميّ، و التي خلّفتها الكوارث الطبيعيّة في ذلك العصر.

---

[1] وعاء من القماش توضع فيه الأشياء، ويقال له جراو أيضا ومفرده جرواة. انظر: دهمان، محمد، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المموكي**. ص52

[2] انظر: المقريزي، **السلوك**، ج1.ق3. ص814

[3] ابن الجزري، **تاريخ ابن الجزري**. ج1.ص 284

ج- الآثار الإيجابيّة في أدب الكوارث الطبيعيّة

رصدَ بعض الأدباء الذين أنتجوا أدباً للكوارث الطبيعيّة في العصــر المملــوكي الأول، نتائج إيجابيّة على المجتمع أحسّوا بوجودها رغم الدمار الكبير الذي خلّفته هذه الكوارث.

فقد عكست بعض النصوص شجاعَة الأدباء في التصدّي للكارثة، فهم ينأونَ بأنفسهم عن الخوف الذي يعتري الناس في الكوارث الطبيعيّة، ويدعونَ إلى الإيمان بالموت الذي هــو أمــرٌ محتوم على الخَلق، وهو نهاية كلّ حيّ، وقد قيل في ذلك:

نَحْــنُ بَنــو المَــوْتِ فَمَــا بالُنــا   نَخــافُ مــا لا بُــدَّ مِــنْ شُــرْبِهِ

تَبْخَــــلُ أَيْـــــدينا بِأَرْواحِنـــــا   عَلَــى زَمــانٍ هِــيَ مِــنْ كَسْــبِهِ [1]

ومن المظاهر الإيجابيّة التي سطّرها الأدباء، هو احتسابُ الموتى في الكوارث الطبيعيّة شهداء، وفي ذلك ينظم ابن الوردي في قتلى زلزال:

ولَيْسَــتْ وَفــاتُهُمْ بِــالرَّدْمِ نَقْصــاً   لِقَــدْرِهِمْ فَفــي الشُّــهَداءِ صــاروا

وَما لَيْسَ فــي سَــطْوَةِ الخَلّــاقِ عَيْــبٌ   وَلا فــي ذِلّــةِ المَخلــوقِ عــارُ [2]

يرفع ابن الوردي من منزلة الذين قَضَوا نحبهم في الزلزلة التي جاءت على حين غرّة، فلم يتمكّن بعض الناس الهروب من دمارها، فهم لَم يموتوا ميتةً تنقص مِن قدرهم كونَهم هلكــوا تحت الأنقاض، بل هم مُكرّمون عند ربّهم، وهذا يعكس إيمان الشاعر بربّه، واعترافــاً بقوّتــه وجبروته.

وبرزت مظاهر إيجابيّة عندَ الطبقة الحاكمة في أثناء الكوارث الطبيعيّة، تمثّلت في تغيّر أخلاق الحكّام، وحُسن تصرف بعضهم في أثناء الأزمات، ومن ذلك ما قيل عن أميــر المدينــة المنوّرة وقت بركان المدينة، إذ عاد إلى العدل وأرجع الحقّ إلى نصابه: " حصل بطريق هــذه

---

[1] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق2. ص 66

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 153

النار إقلاع عن المعاصي والتقرب إلى الله بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها "[1]

يظهر مما سبق كيفَ أصلحت نار المدينة حال أولي الأمر فيها، فخرجوا عن معاصٍ كانوا اقترفوها بحقّ العباد.

ومن الأدباء مَن فصّل في أمر هذا التغيّر الإيجابيّ الذي حصَل للساسة وقت اندلاع الكوارث، ومن ذاك ما يذكره المقريزي في السلطان كتبغا عندَما أصاب الجدب مصر، قال: "فلمّا تجاوز الأمر الحد أَمَر السلطان بجمعِ الفقراء و ذوي الحاجات، وفرّقهم على الأمراء، فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير، وعلى أمير الخمسين خمسين، حتّى كان لأمير العشرة عشرة، فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثروداً من مرقَة الخبز، يمدّه لهم سماطاً يأكلون جميعاً. ومنهم من يعطي فقراءه رغيفاً، و بعضهم كان يفرق الكعك، و بعضهم يعطي رقاقاً، فخفّف ما بالناس من الفقر "[2]

يكشف قول المقريزي اهتمام السّاسة بأمر ذوي الحاجة من الرعيّة وقت الكارثة، وذلك بإعداد خطّة تتضمّن توزيع المحتاجين على الأمراء المقتدرين، واختلف اهتمام الأمراء بالمحتاجين، غير أنّه كان لبعضهم دورٌ إيجابيٌّ في تخفيف حدّة الأزمة.

وبعض السلاطين مَن وضعَ خطّة اقتصاديّة تتضمّن طرح مدّخرات السلطان نفسه والأمراء من السلع الأساسية في السوق، وبيعها بسعرٍ يناسب الناس، وكان مِن هؤلاء الملك الناصر محمد ابن قلاوون، إذ امتنع النيل في زمنه عن الفيضان، ما أثّر في أحوال الناس وتدبّرهم لحاجاتهم، فجمع السلطان الأمراء وقال لهم: " يا أمراء ! شهرٌ عليكم، وشهرٌ عليّ، وشهرٌ على الله،ففتح الأمراء الشّون، وباعوا كلّ إدرب بثلاثين درهماً، ففرّج عن النّاس، وفتح

[1]أبو شامة، **الذيل على الروضتين**. ص191

[2]المقريزي، **إغاثة الأمة**. ص 109

السلطان حواصله في شعبان، و باع كلّ إدرب بخمسة وعشرين درهماً، ودخل الفول الجديـد و الشعير، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان، فجاء القمح الجديد، و انحلّ السعر "[1]

وأوردت الرسائل التي كُتبت في هذا الشأن عن مواقف للطبقة الحاكمة تعكس اهتمامها بالتخفيف عن الناس، ومواجهة الكوارث والمشاكل .

ومن ذلك ما يرويه ابن الجزري ممّا وصلت إليه الأخبار" إلى دمشق ، بأمر السيل الكائن ببعلبك، فعند ذلك رسّم الأمير سيف الدين تنكز[2] ، للقاضي كمال الدين الشَّريشي[3] وكيل بيت المال المعمور بالشام المحروس بالسفر إلى بعلبك بسبب الحَوطات على أموال من عُدم، والاحتراز على ذلك "[4]

وصوّر الأدب دورَ العلماء في التخفيف عن الناس في ظلّ ما حلّ بهم من كوارث، فقد قام العلماء بدورٍ إيجابيّ، نَتَجَ عنه حراكٌ دينيّ وثقافيّ في المناطق المنكوبة، فقد عرف هؤلاء أنّ سبب هذه الكوارث هو ظلم الحاكم وفسادُ الناس، ومن هنا راحوا يعظونهم؛ ليخفف الله عن الأمة محنتها، ومن هؤلاء القاضي تاج الدين السبكي، الذي قال:

"فمن لا يعلمُ حقارة الدنيا وكَدَرتها،وامتزاج لذاتها بالهموم فاسد العقل،فإن المشاهدة والتجربة ترشد العقلاء لذلك"[5]

وخصّ العلماء الحُكّام بهذه العِظة، ففي كتاب ورد عن بركان المدينة المنورة، يصوّر كيف لزمت النار مكانها، وخفّ لهيبها، فإن ذلك مكرمة من الله تعالى وإيذاناً بضرورة العودة إليه، إذ صعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظانه.[6]

---

[1] المقريزي، **إغاثة الأمة**. ص 113

[2] نائب السلطنة في الشام، توفي 742ه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج10 . ص 420

[3] ولد بسنجار، وهو إمام في المذهب الشافعي أيضا، و تولّي عدّة مناصب مها شيخ دار الحديث في بعض المدارس. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج7. ص 337

[4] الفاخري، **تاريخ الفاخري**. ج1. ص 425

[5] السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**. ص 95

[6] انظر: أبو شامة، **الذيل على الروضتين**. ج1. ص 192

ويذكر قاضِ المدينة المنورة شمس الدين سنان بن عبد الوهاب الحسيني[1]، في كتاب أنشأه في بركان المدينة ما قام به من وعظٍ وإرشادٍ للأمير، ونتائج ذلك كلّه في الناس: "وطلعتُ إلى الأمير وكلّمته وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله، فأعتق كل مماليكه وردّ على جماعة أموالهم، فلما فعل هذا قلت له اهبط الساعة معنا إلى النبيّ صلى الله عليه سلّم فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعا، والنسوان وأولادهم ولا بقي أحد في النخيل ولا في المدينة إلّا عند النبي صلى الله عليه وسلّم"[2]

وقد حفلت كُتب التاريخ والأدب في العصر المملوكي بالكثير من الممارسات و الأخلاق السلبية التي ذكرها مؤلفوها لِما كان شائعاً في تلك الفترة كالبخل ،وطفيف الكيل ، و اختلاس أموال الناس بالباطل ، وانتشار اللواط وغيرها، وكان إقلاعُ كثيرٍ من الناس عن بعض هذه الممارسات السلبيّة إثر أيّ كارثة تثبيتاً لوجودها.

ومن الأدباء مَن رصَد مظاهر التغيّرات الاجتماعيّة التي بزرت عن الناس في ذلك الوقت، ومِن أهمّ هذه المظاهر، إقلاعُهم عن المعاصي والتقرّب لله سبحانه وتعالى بالأعمال الحسنة، وقد أجمَل ابن الوردي هذه النتيجة في أبياته التي قالها في أثناء طاعون 749هـ:

فَهذا يُوصّي أَوْلادَهُ	**وَهَذا يُوَدِّعُ إِخْوانَهُ**
وَهَذا يُهَيِّءُ أَشْغالَهُ	**وَهَذا يُجَهِّزُ أَكْفانَهُ**
وَهَذا يُصالِحُ أَعْداءَهُ	**وَهَذا يُلاطِفُ جيرانَهُ**
وَهَذا يُوَسِّعُ إِنْفاقَهُ	**وَهَذا يُخالِلُ مَنْ خانَهُ**
وَهَذا يُغَيِّرُ أَخْلاقَهُ	**وَهذا يُعَيِّر ميزانَهُ**[3]

في هذه الأبيات يصوّر الشاعر كيفَ تغيّر حالُ بعض الناس، فلم تبقَ الدنيا شغلهم الشاغل، ذلك أنّ الكارثة أشعرتهم بدنوّ آجالهم، ما جعلهم يحضّرون أنفسهم للقاء الله، فيُقبلون

[1] وهو أديب وله نظم جيد، وكان الأمراء في المدينة لا يقطعون أمراً من دونه مات 754 هـ. انظر: العسقلاني، **الدرر الكامنة**. ج5. ص 138

[2] أبو شامة ، **الذيل على الروضتين** . ص 191

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 94.انظر أيضا: عبد الرحيم ،رائد ، **رسالة النبا عن الوبا لزين الدين بن الوردي ت (749 ه) دراسة نقدية**. ص 1502

على ما شَرَع الله، مِن الوصاية بالخير والإنفاق في سبيل الله والكفّ عن الغش في المعـــاملات التجاريّة ويعفونَ عن المسيئين طلباً لمرضاته، وغيرها.[1]

ويرى ابن الودري بذلك أنّ في كارثة الطاعون فوائد، على الرغم من كلِّ المآسي التي خلّفتها، فيضيف مُجملاً رأيه: "ومن فوائده تقصير الآمـــال، وتحســـين الأعمال،واليقظـــه مـــن الغفلة،والتزّود للرحلة"[2]

ويجعل ابن الوردي كارثة الطاعون سببا لجعل الموت بينَ ناظريّ الإنسان دائما، فـــإن أراد التفكير بالدنيا وحدها ونسْجَ أحلامه وطموحاته ونسيان الآخرة، كان الطاعون بالمرصاد.

ويجعل غير أديب الكوارث الطبيعيّة باباً من أبواب الفائدة التي تأتي بالرحمـــة مـــن الله تعالى، لدرجة أنّ بعضهم يدعو لها بالدوام، ومن ذلك ما عبّر عنه الصفدي في إحدى رسائله عن الثلوج، إذ ظهر مؤمنا بجدوى الأهوال التي يكابدها الناس في الثلوج الهائلة و السيول الفيّاضة، فكلّ ابن آدم خطّاء، وهذه الأهوال تمحو ما يرتكبه الناس من آثام:"فالله يديمُ لنا هذه الفؤاد، التي هي لذنوب هذه الشدائد كفّارة، ولهذه السّيئات الشتوية غفّارة "[3]

وغيّرت الكوارث الطبيعيّة في بعض العادات الاجتماعيّة التي اعتاد الناس ممارستها في حياتهم اليومية، ومن ذلك ما ذكره أبو شامة في رسالة له في بركان المدينة المنـــوّرة، يقـــول: "وبالله يا أخي إنّ عيشنا اليوم مكدّرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقى تسمع فيها رَباب، ولا دَف، ولا شُرب " [4]

يصوّر أبو شامة هنا كيف تاب الناس عن بعض عاداتهم التي فيها إغضابٌ لله تعـــالى، ومنها الموسيقى وشُرب الخمر. ويعكس قوله وجود مجالس لَهو اعتادَ الناس حضورها، فلم يذكر الأدوات الموسيقيّة – وهي أدواتٌ تقليديّة – وحدها، بل عَطفها على شرب الكحول أيضا.

---

[1] انظر: سبيناتي، **صورة المجتمع في الشعر المملوكي**. ص42

[2]ابن الوردي، **الديوان**. ص 93

[3]الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 169

[4]أبو شامة، **الذيل على الروضتين**. ص 109

وارتبطت الظاهرة بالمديح النبوي والتوسّل إلى الرسول الكريم، فكانوا يشكونه داعــينَ متضرّعين لكي يرفعَ الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب الذي يقاسونه في أثناء حدوث الكــوارث الطبيعيّة، فكان الأديب يكتب ما تأثر به من مشاهدته لتلك المحن التي أصابت الناس ، "فيكتــب ليعظهم ويبّصرهم ويعيدهم الى حظيرة الدين "[1]. ومن ذلك ما قاله ابن قزل في بركان المدينة:

يا كاشفَ الضُّرِّ صَــفحاً عَــن جَرائِمنــا   لَقَــدْ أَحاطَــت بِنــا يــا رَبُّ بأســـاءُ
نَشكو إِليــكَ خُطوبَــاً لا نُطيـــقُ لَهــا   حِمــلاً وَنَحـــنُ بِهــا حقّـــاً أَحِقـــاء
فاسْمَح وَهَبْ وَتَفَضَّل وَامحُ واعفُ وَجُد   وَاصفَح فَكُلٌّ لِفرطِ الجَهـــْلِ خَطّـــاءُ[2]

يشكو الشاعر في هذه الأبيات المصائب التي حلّت على الناس في أثناء البركان، معترفاً بأنّهم خطّاؤون، لذلك فهو يطلب إلى الله تعالى أن يسامحهم في أيّة زلّة اقترفوها، حتّى يُذهِب الله عذابَه عن الناس ويرحمهم.

ومنهم من يلجأ لعرض نماذج حزينة أثّر عليها ما ألمّ بالناس من كوارث في معــرض رجائه الله تعالى وطلب الغوث منه، فيقول شهاب الدين محمود عِندما توقف النيل بمصر عــن الفيضان إلى الحدّ المطلوب، عام 709هــ:

ارحَـــم بِفضــــلكَ رُكّعـــاً أَم رُضّـــعاً   أَم رُتّعا فـــي ذي الوُجـــودِ بِـــأَسرِه
وَأَغِث عِبــادَك فـــي بِـــلادكَ بِالـــوَفا   وابسُط على المقيــاسِ خِلعَــة سِــتره[3]

ويعدّ طلب التوبة من أبرز ما يطلبه الأدباء من الناس، مذكّرين إيّاهم بالآخرة وضرورة التزوّد لها، ففي خطبة زلزلة 702هــ قال صاحبها:

"فالتوبة والتوبة عباد الله في الأيام الباقية الفانية، واستحيوا ممّن لا تخفى عليه خافيــة، واعتبروا بمن هلك تحت ردمها فجأة،وقد كان في تلك الساعة في عافية... فرحم الله امرءا تاب

---

[1] سلّام، **الأدب في العصر المملوكي**. ص 99

[2] ابن قزل ، **الديوان** . ص339

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 150

عما جنى، وتقرّب من فعل الخير ودنا،وتزّود للآخرة، فإن الدنيا ليست لِحيّ وطنا، ولبس للخير أثواباً،فلا بد أن يلبسَ للقبر كفناً"[1]

تعدُّ التوبة أولى خطوات الرجوع إلى الله تعالى، وتكون بالتقليل من شأن الدنيا ومذاتها، وأخذ العبرة، والتذكير بيوم القيامة، فالإنسان ليس مخلّدا في الدنيا.

وبعض الشكوى كانت مقرونةً بالفزع إلى المساجد، والتضرّع إلى الله وقتاً طويلاً حتّى يأتيَ الله برحمته ، ففي أثناء بركان المدينة واشتداد لهيب النار" فزع الناس إلى المسجد النبويّ و أقرّوا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيّه عليه السلام، و أتى الناس إلى المسجد من كلّ فجّ ومن النخل، وخرج النساء و الصبيان و اجتمعوا كلّهم فأخلصوا، وغطّى حمرة النار السماء كلّها حتّى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصلّ، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداعٍ إلى الله، ومتنصّلٍ من ذنبه، ومستغفرٍ وتائب، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها و لهيبها"[2]

يشير الأديب إلى قدسيّة المساجد للناس، فهي المكان الذي يلجؤون فيه إلى الله تعالى، ويقرّون بذنوبهم، فيدعونه ويستغفرونه، مستشعرين الأمن وصدق الدعاء وقربهم إلى الله تعالى.

ومِن الشكوى ما تعكس التزام الناس بما أمَر الله تعالى به، فلقد حضّ الله تعالى على الالتزام بسنّة النبيّ الكريم ، وعدم الخروج عنها، ومن ذلك ما أورده ابن الوردي في طاعون 749هـ، إذ قال:

"وما منعنا الفرار منه إلّا التمسّك بالحديث[3]، فهلمّ بنا نستغيث، إلى الله تعالى في رفعه فهو خير مغيث، اللهم إنّا ندعوك بأفضل ما دعاكَ به الداعون، أن ترفع عنّا الوبا والطاعون، لا

---

[1] الدواداري، **كنز الدرر**. ج9. ص 103. مؤلّف مجهول، **الأدب في عصر السلاطين المماليك**. ص 137

[2] أبو شامة، **الذيل على الروضتين**.ص 192

[3] قصد به ابن الوردي قول الرسول الكريم في النهي عن الخروج من البلد المطعون: " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا ". البخاري، **صحيح البخاري**. ج7. ص 169

نلتجئ في رفعهما إلّا إليك، ولا نعوّل في العافية منها إلا عليك نعوذ بـك يـا ربّ الفلـق مـن الضرب بهذا العصا، و نسألك رحمتك فهي أوسع من ذنوبنا ولو كانت عدد الرمل والحصى"[1]

يصوّر النصّ السابق عدم خروج الناس عمّا أوصى به الرسول الكريم، والقاضي بعـدم خروج الناس من بلدهم إذا أصابها الطاعون، فهم بذلك يقدّمون ولاءهم لسنّة نبيّه وعملهم بهـا، وعدّوه مدخلاً لطلب الرحمة من الله تعالى، الذي يكافئ المحسن، ويعفو عن المسـيء. فلـولا حديثُ الرسولِ الكريم الذي ينهى فيه عن الخروج من البلد الذي حلّ بها الطاعون لفرّ الناسُ من البلاد، ولكنّ البقاء وقاء وعبادة، والموت فيه شهادة، وكان قد أكّد ذلك في رسالته عندما قال في المرَض:

"وهو للمسلمينَ شهادةٌ و أجر، وعلى الكافرينَ رِجزٌ و زجر، إذا صـبر المسـلمُ علـى مصيبته فالصبرُ عبادة، وقد ثبتَ عن نبيّنا صلى الله عليه وسلّم أنّ المطعون شهيد، فهذا الثبوتُ بالشهادة"[2]

وكثيراً ما اقترنت الشكوى إلى الله تعالى، بالتقرّب منه بذكر النبيّ الكريم، أو بالشـكوى إليه عليه الصلاة والسلام، فهو خاتمُ الأنبياء، وشفيع الناس جميعا والمسلمين يومَ القيامة، وهـو خيرُ البريّة، لذلك شَكوا أمرهم إلى النبيّ الكريم ليخلّصهم مّما هو فيه في دنياهم.

وجاءت الشكوى بصورٍ مختلفة، منها إظهار الضعف واستعطاف النبيّ الكـريم لقـرب منزلته من ربّه عزّ وجل، وممّا نظمه الشعراء في هذا الشأن، ما قاله ابن الوردي في طـاعون 749هـ إذ قال:

يـا ربُّ بِالهـادي النبـيّ المُجتبـى ... أَغمِـد عَـن الإِسـلامِ أَسـيافَ الوَبـا
يـا ربُّ لا يُشـكى ألـيمُ عذابـه ... إلّـا إليـكَ فقـد أخـافَ و أرعَبـا
كَـم حَـلَّ فـي بلـدٍ فَشَـتّت شَـملَ ... مَن فيهـا فَـلا يَجِـدونَ مِنـهُ مَهرَبـا

---

[1] ابن الوردي، **الديوان.** ص 92.انظر: أيضا: عبد الرحيم ، رائد ، **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين بـن الـوردي، دراسة نقدية.** ص1512

[2] ابن الوردي، **الديوان.** ص 92

يـــا ربٌّ لطفـــاً بالعبـــادِ فَمـــا لَهُــمْ رَبٌّ سِـــواكَ يَقـــيهم المُستصـــعَبا[1]

في هذه الأبيات يناجي الشاعر ربّه بمكانة الرسول الكريم عنده، ويستعطفه بأن يخلّــص الناس من الطاعون الذي ألمّ بهم، فهم لا يجدون ملجأً غيره يبثّون له ما أصابهم من هَمّ ومرض أرهقهم ونشَر الموتَ بينهم وفرّقهم، ويدعون الله تعالى أن يخفّف عنهم مصيبتهم.

وعكس غير شاعر، قدرة النبيّ الكريم على تخليص الناس ممّا هم فيه، وذلك لمكانتـــه العالية، فهو صاحب المعجزات وصاحب المَكرمات منذ ولادته، ومن ذلك ما قاله الصرصـــري في القصيدة نفسها:

وَإنَّ لَـــهُ عِنْـــدَ المُهَـــيمنِ مَقْعَـــداً قَريبـــاً وَ داراً لا تُنـــالُ وَ كَـــوثَرا

أَلَيسَ الذي فـــي وَضْــعِهِ كـــانَ مُطفِيـــاً لِنارِ مَجـوسٍ شَـيَّها القَـومُ أعْصُــرا

قَـــديرٌ علَـــى إطفـــاءِ نـــارٍ سَـــريعةِ الزّوالِ بَلَـــى قَـدْ كـــانَ أَمْــراً مُقَـدَّرا

فَيا عَجَبـــاً ممَّـــنْ عَـــرَى الشَّـــكُّ قَلبَـــهُ البَلَيــد فَمـــا أَعْمـــاه قَلْبـــاً وَ أَخْــوَرا[2]

يعرض الشاعر من خلال هذه الأبيات إيمانه بقدرة الرسول الكريم على تخليص النـــاس من الكارثة التي أصابتهم، وهي بركان المدينة المنورة الذي جاء على مقدراتهم وأفســد هنــاءة عيشهم واستقراره، فقد أطفأ ميلاد الرسول الكريم معبودة المجوس وهي النار، لذلك فهو مؤمنون بقدرة الرسول الكريم على تخليصهم من هذا البركان.

و "كان تبرّم الناس بأحوالهم القاسية، وضيقهم الشديد من الظروف السيئة التي تكربهم، وراء الاتّساع في نظم المدائح النبويّة، فإذا ما أصاب القوم مصيبة، توجّهوا إلى النبيّ الكـــريم، يمدحونه ويستغيثون"[3]

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص 372

[2] المصدر السابق. ص 172

[3] محمد،محمود سالم: **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي**.د.ط. بيـــروت: دار الفكـــر المعاصـــر.دمشـــق: دار الفكر.1996. ص283

يظهر الشاعر في هذه الأبيات فَقره إلى وجود الرسول الكريم بين الناس، فهو يخاطبه وكأنّه أمامه، ويطلب إليه العطف والرأفة بحال المسلمين، مما حلّ بهم من الطاعون الذي سلب الناس أرواحهم وممتلكاتهم.

وقد ظهرت الشكوى في قصص تعبّر عن رأفة النبي الكريم بأمّته، وطلبه إليهم العودة إلى الله والتوبة إليه، وذلك على شكل مناماتٍ ظهرت لأصحابها، من سوء ما حلّ بهم في أثناء منامهم، فيروى أنه قدِم كتاب نائب حلب ، بأن بعض أكابر الصلحاء فيها رأى النبي صلّى الله علية وسلم في نومه، وشكا اليه ما نزل بالناس من الوباء، فأمره صلّى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالتوبة والدعاء، وكان دعاؤه: "اللهمّ سكّن هيبة صدمة قهرمان الحروب، بألطافك النازلة الواردة من فيضان الملكوت، حتى نتشبَت بأذيال لطفك ونعتصم بك عند انـزِل قهرك، يا ذا القوة والعظمة الشاملة، والقدرة الكاملة، يا ذا الجلال والإكرام ".[1]

ومِن صُور الشكوى تشفّعُ الناس بالرسول عليه الصلاة والسلام بوصف الشفاعة مكرمة خصّ بها الله عزّ وجل نبيه الكريم دوناً عن باقي الأنبياء يوم القيامة، فهم عندما يتقرّبون إلى الله تعالى، يطلبون شفاعة حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد " سجّل شعراء المديح النبوي أمثلة كثيرة ومختلفة على التوسل برسول الله صلىّ الله علية وسلم عند الأزمات و الكوارث،أو عند حصول حادثة غريبة لا يملكون لها تفسيراً، مثل ارتجاج الأرض وظهور نار عظيمة في الحجاز، أدخلت الرعب الى قلوب الناس "[2].

فها هو البوصيري يتشفّع مثل غيره، فالرسول الكريم هو الشفيع الذي لا تردُّ شفاعته عند الله سبحانه وتعالى:

فلمّا التجَوا للمُصطفى وتحرّموا بِساحَتِه، والأَمْرُ بِالنّاس مُشْتَدُّ
أتَوا بشَفيعٍ لا يُردّ ولم يَكن بخلقٍ سواه ذلك الهَولُ يرتدّ

---

[1] المقريزي، **السلوك**. ج2. ق3. ص 780

[2] محمد، محمود سالم، **المدائح النبويّة حتّى نهاية العصر المملوكي**. ص 26

فأطفئــت النّـــارُ التـــي وَقَــفَ الـــورى حيارى لَديها لم يعيـــدوا ولـــم يُبـــدوا[1]

يرى البوصيري من خلال الأبيات أنّ الناس اختاروا شفاعة النبيّ الكريم لتقـــيهم مـــن أهوال نار المدينة المنورة، و الشفاعةُ مَكرمةٌ لا تليق بأحد سواه، فلا يستطيع أحد أن يردّ هـــذا البأس غيره.

و "تتشابه توسّلات الشعراء وتشفعهم بالرسول الكريم في الكارثة الواحدة وذلك لتشـــابه الدوافع والأحاسيس[2]، لكن تكون لكلّ شاعرٍ طريقته و تجربته الخاصّة.

فابن قزل يصوّر في معرض شكواه للنبيّ الكريم في بركان المدينة، كيفَ حلّت الطمأنينة بعدَ شفاعته عليه الصلاة والسلام، فهم لجؤوا إليه وقت ضيفهم، وتشفّعوا بمنزلته عند الله تعالى، وقد استجاب الله تعالى لهم، وخلّصهم من كربهم، يقول الشاعر:

شَـــفَعْتَ لَهُـــمْ عِنْـــدَ الإلَـــهِ فَأَصْـــبَحوا مِـــنَ النّـــارِ مِـــنْ أَمْـــرٍ وَ بِـــرٍّ مُعَجَّـــلِ
إنّـــمـــا لَهُـــمْ الـــرَّحْـــمَةُ مِـــنْكَ بِنَفْخَةٍ أَلَـــذُّ وَأَشْـــهى مِـــنْ جَنَـــىً وَمُعَسّـــل
طَفَى النّارَ نورٌ مِـــنْ ضَـــريحِكَ ســـاطِعٍ فَعـــادَتْ سَـــلاماً لا تَضُـــرُّ بِمُصْـــطَلي

ومن ذلك يقول ابن الوردي في معرض شكواه إلى الله تعالى فـــي أثنـــاء الطـــاعون:" ونتشفّع إليك بأكرم الشفعاء لديك، محمد نبيّ الرحمة أن تكشف عنّا هذه الغمّة، وأن تجيرنا مـــن الوبال والتنكيل، و أن تعصمنا فأنت حسبنا ونعم الوكيل."[3]

وأخذ بعض الشعراء يفردون للشفاعة أبياتاً خاصّة، فيجعلونها مدخلاً لبثّ شكواهم إلـــى الله تعالى، ومن ذلك قول ابن دانيال:

لَـــولا شَـــفاعَةُ أَحْمَـــدٍ خَيـــرِ الـــوَرَى فـــيـــنـــا لَـــقَطَعَّ رَبُّنـــا أَوْصـــالَهـــــا
يـــا رَبّنـــا تُبنـــا إِلـــــيْكَ فَـــوَقِّـــنا بِرســـولِك الهـــادي الشّـــفيعِ نِكالَهـــا[4]

---

[1] البوصيري، **الديوان**. ص86

[2] صالح،مخيمر: **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصري**، ط 1. بيروت: دار ومكتبة الهلال. 1986. ص 187

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 92

[4] ابن دانيال، **المختار من شعر ابن دانيال**. ص 193

يعدّ الشاعر شفاعة النبي الكريم رحمةً للمسلمين، فهي تنفعهم في دنياهم، فتخفف من مصائبهم، ويقرنون توبتهم لله بهذه الشفاعة التي يتمنّونَ أن نزيل عنهم ما فيهم مِن كرب.

ويتشفّع الشعراء إلى الله تعالى بالرسول الكرم، مُقرنين شكواهم هذه بالصلاة عليه وعلى آله وصحبه الأطهار، يقول ابن الوردي في شكوى الناس في أثناء الطاعون:

إنّـا تَشَـفَّعْنا إِلَيْـكَ بِأَحْمَـد	**أَعْلى الـوَرَى قَـدْراً وَ أَرْفَـعَ مَنْصِـبا**
أَنْ تَرْفَـعَ عَنّـا الطـاعونَ عـاجِلاً	**وَتُجيرَنـا مِـنْ شَـرِّه وَتُجَنِّبـا**
وَتُعيـدَ مـا عَوَّدْتَنـا مِـنْ نِعْمَـةٍ	**عَودْتَنـا مِنْـكَ الكَثيـرَ الطَّيِّبـا**
ثـمَّ الصَّـلاةَ عَلـى النَّبِـيِّ وَآلِـهِ	**وَصِـحابِهِ وَالغُـرِّ مِـنْ أَهْـلِ العِبـا[1]**

تصوّر الأبيات السابقة الناس وقَد رفعوا أيديهم إلى الله متشفّعين بنبيّه محمد عليه الصلاة والسلام، فهو صاحب المكانة الرفيعة عندَه، فالطاعون قَد جاءَ إليه بطاحونه الذي لا يبقي ولا يَذَر، ويطمعون برحمة الله وخير من عنده، ولذلك فهم يصلّون على من يصلّي الله تعالى عليهم، وهم بذلك يتقرّبون من الله تعالى بحبيبه وأحبّاء حبيبه رضوان الله عليهم.

ولم تخلُ القصص الشعبية من الحديث عن شفاعة الرسول الكريم بالناس في محنهم التي أخذت شكل اللاّمعقول اذّ اتّسمت بالغرابة، ومن ذلك ما تناقله كثيرٌ الكتّاب بعد القحط الذي أصاب الناس عام 695هـ، إذ شوهد صبّي خرج مع ثوره ليسقيه، فبعد أن شَرِب الثور حَمد الله فتعجّب الصبيّ، وخرج في اليوم الثاني صاحبه ليسقيه، فشرب الثور وحمد الله ثانيةً، ثم حضر أهل الغريب في اليوم الثالث فشاهدوا الثور يشرب وسمعوه لحمد الله، فتقدّم أحدهم وسأل الثور عن ذلك فأجاب الثور: إنّ الله كتب على الناس سبع سنين جدبا، و إنّ الله سيعيد لها الخَصبَ لشفاعة الرسول صلّى الله عليه وسلم،وإنه أُمر بتبليغ ذلك وجعل الرسول الكريم علامة صِدْق الثور موته عقب ذلك، ومضى الثور بعد قوله الى مكانٍ عالٍ فسقط ومات وأخذ أهل الغريب شعره للتبرك، وكفنوه ودفنوه.[2]

[1] ابن الوردي، **الديوان.** ص 372

[2] انظر: ابن الجزري،**تاريخ ابن الجزري.** ج1.ص 279. المقريزي، **السلوك.** ج1.ق3.ص811.

يبدو مِن خلال هذه القصّة، كيف يتمسّك الناس بما يتعلّق بالرسول الكـــريم، وإن كـــانَ مناماً؛ وذلك لإيمانهم بمنزلته عند الله تعالى، و شفاعته التي لا تُردُّ عنده.

ويلجأ بعض الأدباء لاستغلال قصائد مَدْحِ الرسول الكريم التي نَظَموهـــا فـــي حـــوادث معيّنة، ليعبّروا شكواهم الشخصيّة، فيمدحون النبيّ الأمينَ ويتوسّلون إليه، ومن ذلك مـــا نَظَمـــه الصرصري قائلاً:

وَبَـلـــِّغْ تَحيّاتي إلى مَـــنْ سَـــما بـــه	**وأحْـرزَ مَـــنْ ريّاه نَـشْـرا مُـعَطَـرا**
وَقُل يا رَسولَ اللهِ يـــا أَشْــرَفَ الــوَرَى	**وَأَكْـرَمَ أَنْـساب الـقبائـلِ عُنصـــرا**
وَ يا حُجّــةَ الرَّحمنِ فينـــا وَمَـــنْ بـــهِ	**نَـــلوذُ إذا خَـطـــبُ حادثــةٍ عَـــرَا**
عُبَيدكُم المِسكينُ يَحيى بن يوسُفَ الــــ	**فقيرُ أَســيرُ اللهِ فـــي أَرضِ صَرصَــرا**
يَــمـــدُّ يَديـــهِ نَحْــوكُمْ مُتَوَســـِّلاً	**بِجـاهِكُمُ لا زَال جَـــاهاً مُـــوَفَـــَّرا[1]**

في الأبيات السابقة يمدَح الشاعر النبيّ الكريم بصفاته الشريفة العالية، ويلجأ إليه حين حاجته، ويخصّ نفسه بالذِكر، فهو ينتهزُ فرصَة هذا الخطب الجليل كـــي يعبّـــر عـــن حاجتـــه الشخصيّة إليه، كما هي حاجة الأمّة الإسلامية له في هذه الكارثة التي ألمّت بهـــم، وقـــد لجـــأ الصرصري إلى عادة الشعراء بتخيّل شخص يتحدّثونه إليه وهو حادي العيس الذاهب إلى المدينة ليخبر النبيّ الكريم على لسانه بمديحه له، ويطلب إليه مساعدته و عونه على ما هو فيه.

يتّضح ممّا سبق أنّ الكوارث الطبيعيّة وعلى الرغم ممّا حملـــت مـــن مـــآسٍ وويـــلاتٍ صوّرها الأدباء ، إلّا أنّها حملت نتائج إيجابيّة، أكثر ما تجلّت في التقرّب من الله سبحانه وتعالى، فهو الشديد المتين وهو الرحمن الرحيم، وقد تضمّن تقرّبهم إليه تلَمّس الرحمة والوسيلة من النبيّ محمد صلي الله عليه وسلّم؛ فهو أحبّ الخَلق للخالق، وتضمّنت مَدحاً لَه ولصفاته العليـــا التـــي أهّلته للمنزلة العالية والرفيعة، التي ستساعدهم في اجتياز محنتهم، التي آمنوا بها قَـــدَرا واقعـــا عليهم من الله سبحانه وتعالى، فقبلوا بها وصَبَروا عليها، وعَزَوا زوالها لرحمةٍ من الله وفضـــلٍ من نبيّه.

[1] الصرصري، **الديوان**. 173

الفصل الثالث

الدراسة الفنيّة

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

بِنية النصّ الأدبيّ

لأيّ عمل أدبيّ بِنيةٌ فنيّة، وقد تكون هذه البنى متشابهة على اختلاف جنس العمل الأدبي، وقد تختلف من جنس إلى جنس، لكن التشابه أكثر ما يبدو في الجنس الأدبيّ الواحد، وفي الموضوع الواحد الذي يتناوله.

وقد اهتم النقاد بدراسة بِنية النص الأدبيّ، لا سيّما الشعر؛ لما عُرف به العرب من عشقهم لقول الشعر، وقسّموا بِنية القصيدة العربية إلى: مقدّمة، ومطلع، وحُسن التخلّص، وخاتمة.

أمّا المقدمة فقد عرف العرب مقدماتٍ بأنواعٍ مختلفة، كالمقدمة الطللية أو الخمريّة أو الغزليّة، أمّا أدب الكوارث الطبيعيّة، فلم تبدأ قصائده بمقدّمة من المقدّمات السابقة، لأنّ الموضوع جادّ، ولا يحتاج إلى مقدّمات، غيرَ أنّ بعض النصوص، ابتدأت بمقدمة مَدحية، كالمديح النبويّ.

أمّا المطلع، وهو الذي يسبقه بعض النّقاد بكلمة " حُسن "، أو ما يطلق عليه بعضهم "براعة الاستهلال "، فاسمه يَعكس أهميّته؛ فلقد اهتمّ النقادُ بضرورة كَون مطالع القصائد هي العنصر الجاذب للقصيدة الذي يدعو القارئ أو السامع إلى إكمالها [1]، ففي هذه التسمية للمطالع " تنبيهٌ على تحسين المطالع " [2]، وما يتضمّن هذا التنبيه من شروطٍ لا بدّ من توافرها ليكون هذا المطلع أو الاستهلال حَسنا برأي النقاد، فينبغي" للشاعر أن يُجوّد ابتداء شعره، فإنّه أوّل ما يقرع السمع منه، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"[3]، ويقول صاحب خزانة الأدب: إنّ من

---

[1] انظر: ابن الأثير الجزري، ضياء الدين نصر الله أبا الكرم: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.1998. ج2. ص.209. ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي:**خزانة الأدب وغاية الأرب**، شرحه: عصام شعيتو، د.ط. بيروت: دار ومكتبة الهلال.ج1.ص 19

[2] ابن حجة، **خزانة الأدب**. ج1.ص 19

[3] انظر: ابن رشيق القيرواني، أبا علي الحسن:**العمدة في محاسن الشعر و آدابه**. بيروت: دار الكتب العلمية. 2001. ج1. ص221

شروط الاستهلال البارع" أن يكون مطلع القصيدة دالّا على ما بُنيت عليه، مُشعرا بِغرض الناظم، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة "[1]،فما براعة المطلع سوى أن يكون " طلوع أهلّة المعاني، واضحةً في استهلالها " [2]

وينبغي على الشاعر أيضا " أن يحترزَ من الكلام و المخاطبة والبكاء ووصف افتقار الديار وتشتيت الأُلّافِ ونَعْي الشباب و ذمّ الزمان... لا سيّما في القصائد التي تتضمّن المديح والتهاني، ويستعمل ذلك في المراثي ووصف الخطوب الحادثة " [3]

ويتشابه الحال بالنسبة للنثر أيضا، فما وَجب على الشاعر من الشروط السابقة، واجبٌ في النثر أيضا، يقول صاحب خزانة الأدب:" وأمّا براعات النثر فإنّها مثلها، إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة أو صدر الكتاب المصنّف دالة على غرض المنشئ، وإلّا فليست ببراعة استهلال "[4] وهذا ما سمّاه شهاب الدين محمود (وجود القرينة)، التي جعل منها أمراً ضرورياً في جميع الأجناس الأدبية شعرا ونثراً، بل وجعل الكاتب أشدّ ضرورةً من الشاعر إليها حتّى يبني كتابته على نَسَقٍ واحد.[5]

وليسَ أدلّ على الشرط الأخير من مطالع قصائد أدب الكوارث الطبيعيّة في هذا العصر، التي امتلأت بوصف الخطوب والمِحن وتأثيرها على جوانب الحياة المختلفة، ووصف معاناة الناس، ولم يتوقّف الشعراء بناءً عليها عن بثّ شكواهم و تذمّرهم.

ومن المطالع ما ابتدأ بمناجاة الله تعالى والشكوى له أو تشفّع بنبيّه الكريم ثمَّ ذكرِ السبب في هذه المناجاة، ومن ذلك قول ابن الوردي في طاعون 749 هـ.

---

[1] ابن حجة الحموي،**خزانة الأدب**. ج1.ص30

[2] المصدر السابق، ج1.ص 19

[3] أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل : **الصناعتين الكتابة والشعر**. حققه وضبط نصه مفيد قمحية. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1981. ص 489

[4] ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**، ج1. ص40

[5] انظر: شهاب الدين محمود، أبو الثناء بن سلمان الحلبي الحنفي : **حسن التوسّل إلى صناعة الترسل**. تحقيق أكرم عثمان يوسف .بغداد: دار الحرية 1980. ص250

يـــا رَبُّ بِالهـــادِي النَّبِـــيِّ المُجْتَبَـــى   أَغْمِـــدْ عَـــنِ الإسْـــلامِ الوَبَـــا [1]
يـــا ربُّ لا يُشْـــكَى أَلـــيمُ عَذَابِـــهِ   إلّـــا إِلَيـــكَ فَقَـــدْ أَخَـــافَ وَ أَرْعَبَـــا

يُلاحَظ في هذا المطلع، الذي استخدم فيه الشاعر التصريع، كيف ابتدا الشاعر باستخدام أداة النداء (يا) وهي أداة نداء تستخدم في العادة للمنادى البعيد، فاستخدمها الشاعر في ندائـه الله تعالى، فهو أقرب الأقربين، وتشفّع بالنبيّ الكريم في المطلع نفسه كي يكون واسـطته عنـد الله تعالى، وبرز فيه التكرار، إذ كرّر الشاعر تعبير (يا ربّ) في البيتين المتتاليين، فأعطى مطلـع النّص نغمةً حزينةً تهيّئ القارئ إلى جوٍّ حزين، ومصيبة تحلّ بالأمّة.

وابتدأت بعض النصوص الأدبية بوصف الكارثة وأثرها، ومن ذلك ما ابتدأت به رسالة القاضي ابن فضل العمري إلى الصفدي في وصف ما حلّ من سوء حال الجوّ في عام 744هـ وما نتج عنها، وقد مرّ ذكر هذه الرسالة في الفصل السابق. ففي مطلعِ رسالته يتساءل الكاتـب عن حال الصفدي، ليجعلها توطئة لطيفة لوصف ما يريده:

"كيف أصبح مولانا في هذا الشتاءالذي أقبل برعب مَقدمِه، ويرهب تقدمُه، ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه، وكيف حاله مع رعوده الصارخة، ورياحه النافخة، ووجـوه أيامـه الكالحة، وشرر لياليه التي لا نبيتُ منها بليلة صالحة، وسحابه وأمواجه، وجليده والمشي فـوق زجاجه، وتراكم مطره الأنيث[2]، وتطاول ليل فرعه الأثيث، ومواقده الممقوته، ووائـب جمـره وأهون به لو أنّ كلَّ حمراءَ ياقوتة، وتحذّر نوئه المتصبّب، وتحيُّرُ نجمهِ المتصيّب ".[3]

يبدأ ابن فضل الله هنا بالسؤال عن حال الصفدي، وهو جـزء منسـجمٌ فـي الرسـائل الإخوانيّة، ويعرضُ بعدها بعض ما ابتُليت به المنطقةُ من سوءٍ في الأحوال الجويّـة، فيظهـر مطلع رسالته متناغما معَ موضوع رسالته، إذ إنّه وَضع هذا الموضوع في قالب سؤالٍ يحرصُ فيه على سلامة المُخاطب.

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص 372

[2] وهو صفة للسيوف ما كان منها من الحديد غير القاطع. انظر: ابن منظور: **لسان العرب**. مادة أنثَ.

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 148

ومن الأمثلة على الرسائل التي أحسن كاتبوها الاستهلال أيضا، رسالة القاضي بدر الدين الغزي إلى الصفدي، في وصف المعاناة من البرد والثلج، إذ بدأها بالسؤال عن حال المرسل إليه والدعاء له، فقد يقع مع الابتداءات الدعاء، " وتكون براعة الاستهلال في الدعاء المعطوف على المبدأ به: بأن يكون الدعاء مناسباً للحالة المكتوب فيها " [1]، وفي ذلك قال: " كيف حال مولالنـــا ألحف الله ظلّه، وأرشف طَلّه و وبلَه، وحملَ على أعناق الأيام كلّه، وجعل مثله السحاب الجـــودَ ولا أعرفُ مثله، وضاهى برزقه هذا الغيثَ الواقعَ على خلاف القياس كُلِّه " [2]

ويُلاحَظُ من خلال المطلع السابق، أنّ بدر الدين الغزيّ، كانَ يمدح الصفدي وهو يـــدعو له، وهذا شيء ينسجم مع الرسائل الإخوانية، إذ إنّ " الإخوانيّات تشتركُ مع المديحِ في بعـــض المعاني، إلّا أنّها تتميّز عنها بأنّها بين متساويين أو متقاربين، على الرغم من تعظيم المرسل إليه، وتطامن المرسِل، و ليس هذا إلّا مِن قبيل التواضع أو التقاليد، كما تتميّـــز عنـــه فـــي الهـــدف والعاطفة والجوّ النفسيّ "[3].

ويردّ الصفدي برسالة يوجهها لبدر الدين الغزيّ، بمطلعٍ ينسجم مع الحالةِ النفسيّة التـــي هو فيها، فيجيب عن أسئلة صديقه، فيقول: "العَجَب من سؤال مولانا عن المملوكِ بكيفَ حالـــه، وعنده علمٌ هذا العناء الذي نُصِبَ على الأَينِ والنصبُ تمييزهُ وحالُه " [4]

ثمّ يبدأ الصفدي بوصف الأحوال الجويّة السيّئة بما نتج من آثار نفسية و جغرافية.

أمّا المقدّمات، فكان منها ما بدأ بالمديح النبويّ، ومن ذلك قصيدة ابن قزل:

ألا سَـــلِّما لـــي عَلـــى خَيْـــرِ مُرْسَـــلِ وَمِنْ فَضْلِهِ كَالسَّـيْلِ يَـنْحَطُّ مِـنْ عَـلِ
وَأَشْـــرَفِ مَـــنْ شُـــدَّتْ إِلَيْـــهِ رِحالُنـــا لِتَـــورِدِ هـــيمَ الشّـــوقِ أَعْـذَبَ مَنْهَـــلِ
تَحَمّلْـــنَ مِنّـــا كُـــلَّ أَشْـــعَثَ أَغْبَـــرٍ فَيـــا عَجَبـــا مِـــنْ رَحْلِهـــا المُتَحَمِّـــلِ!

---

[1] القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ت(821ه):**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مصـــر: منشـــورات وزارة الثقافـــة والارشاد القومي. د.س.ج6.ص 277

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2. ص 26

[3] الهيب، **الحركة الشعريّة زمن المماليك في حلب الشهباء**.ص207- 208

[4] المرجع السابق، ج2.ص 27

إلـــى سَــيّدٍ جـــاءَت بعـــالِي مَحَلّـــهِ وَمُعْجِـــزهِ آيُ الكِتــابِ المُنــزّلِ
نَبِـــيٌّ هَـــدانا لِلهُـــدى بِأَدِلّـــةٍ فَهِمْنـــا مَعانيهـــا بِحُسْــنِ التَـــأوّلِ[1]

يمدحُ ابن قزل في الأبيات السابقة الرسول الكريم محمد صلى الله عليـه وسـلم، فهـو صاحب الشرف والفضل على الناس أجميعين، وهو الذي تشدّ الرحـال إليـه، وهـو صـاحب المعجزة الكبرى ، القرآن الكريم، الذي هدانا به الله تعالى إلى حُسن السبيل.

وبدأت نصوصٌ أخرى بمَدح المخاطب، ومن ذلك قصيدةٌ قالها ابن الودري في وصف الثلوج بالشام، ردّاً على رسالة لابن فضل الله العمري، إذ قال:

وافي الكتابُ الـذي تعنـو لَـهُ الكُتُـبُ من الشهاب الذي تسـمو بـه الشـهبُ
من عند أسجعِ مَن يُسمى وأسمحِ مَـن أعطى وأبلغ مَن أملـوا ومَـن كَتَبـوا
فلـو فرسـتُ سـروراً وجنّتـيَّ لـه لم أقضِ من حقّهِ بعـضَ الـذي يَجِـبُ
ألفاظـهُ الغـرُّ فاروقيّـةٌ دُرَرٌ يُنفى بها السّمُّ أو يُشفى بهـا الكَلَـبُ[2]

في الأبيات السابقة، يبدأ ابن الوردي كلامه بمَدح أسلوب ابن فضل في الكتابة وبراعته، فكتابه الذي أرسله له، هو أفضلُ الكُتب، وكاتبه أفضل الكتّاب بلاغةً، وهذه البراعة في الكتابة، جعلته أهلاً لكتابته الرسالة، وتوضيح ما فيها من معانٍ، تؤثّر في نفسِ المتلقي.

ومن المقدمات ما بدأ بحمد الله، لا سيّما في النثر، ومنه في المكاتبات أي الرسائل، فمن براعة الاستهلال أن تقع المكاتبات بالتحميد [3]، لقد بدأت به فنونٌ نثرية أخرى كالخُطب، ومـن ذلك ما نُقل على لسان خطيب في زلزلة عام 702ه:

"الحمد لله الذي حلُم علينا فعفا ! وسامحنا فغفر ما ظهر وما خفا، وجمّلنا بلطفه الجميـل إذ أشرفَنا على شفا، أحمد الله على نعمه التي لا يحصى عددها، ولا يعدّ مددها، وأشهد أن لا إله

---

[1] ابن قزل، **الديوان**.336.
[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص182
[3] القلقشندي، **صبح الأعشى**. ج6. ص278

إلّا الله وحده، لا شريكَ له، إلهٌ بَلا فأحسن في بلايه، وقدّر وقضى، فحكمه نافــذٌ فــي أرضــه وسمايه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دايمةَ البواكر والأصايل "[1]

في مقدمة هذه الخطبة يحمد الخطيب الله تعالى على نعمه الكثيرة في هذه الدنيا ويصلي على رسوله الكريم و أصحابه، ويومئ الخطيب إلى موضوع الخطبة من خلال تأكيده على حمد الله على ما يقّدره الله ويبتلي به عباده. وحمد الله تعالى هو خير مقدمة يصدّر بها الكاتب مقاصده الجليلة لتأسيس ما يريد قوله [2]، فلا أكثر من الكوارث الطبيعية خطباً جليلاً يبدأه الأديب بحمد الله على كلّ شيء، ما يثير السامع أو القارئ، ويبعث في قلبه الطمأنينة و الســكينة لمــا يتضــمّنه موضوع الخطبة أو الرسالة أو غيرها.

واهتّم النقاد أيضا بحسن التخلّص لا سيّما في الشعر،فعلى الشاعر أن يجعــل المعــاني متصلة ببعضها وأن يكون الأول سببا في الثاني حتى لا يقطع الشاعر كلامه قطعا بل يفرغــه إفراغا [3]،ويرى ابن رشيق أنّ الخروج إنّما هو الخروج من النسيب إلى مدح، أو غيره، ويشترط التلطّف أيضا [4]، وهو في الغالب خروج من النسيب، حتى يمتزج بغيره فلا يبدو منفصلاً عــن باقي القصيدة [5]، ويشير بعض النقاد إلى أنّ المتقدمين من الشعراء اختلفوا عن المتأخرين أو عن المحدثين منهم في حسن التخلّص، إذ إنّ المتقدمين التزموا بذكر الدِمن والفيافي ووصف المعاناة في السفر، أما المحدثون، فكان تخلّصهم أحسن وألطف[6] ويحاول الشعراء أن يَنأوا بأنفسهم عــن الاقتضاب أي انتقال الشاعر من معنى إلى آخر دون وجود علاقة بينهما، ويرى ابن طباطبا أنّ الشعر كالرسائل، فالشعراء يسلكون منهاج كتّاب الرسائل في بلاغتهم وتصرّفهم " فإنّ للشــاعر

[1] الدواداري، **كنز الدرر**. ج9.ص 102

[2] انظر: القلقشندي.**صبح الأعشى**.ج6.ص277

[3] ابن الأثير. **المثل السائر**. ج2.ص 228

[4] انظر:ابن رشيق القيرواني.**العمدة**، ج1.ص239

[5] انظر:الحلبي، **حسن التوسل**. ص 254

[6] انظر: ابن طباطبا،محمد أحمد :**عيار الشعر**. بيروت : دار الكتب العلمية . 1982. ص 149

فصولاً كفصولِ الرسائل، فيحتاج إلى أن يصل كلامه على تصرّفه في فنه صلةً لطيفة، فيتخلّص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى.. "[1]. فالشعر كالنثر في التخلّص.

وقد أحسن شعراء العصر المملوكيّ تخلّصهم في قصائدهم، ومن الأمثلة ذلك ما نظمه سيف الدين بن قزل في بركان المدينة، إذ بدأ الشاعر قصيدته بمدح النبيّ صلى الله عليه وسلّم وذكر فضائله، وبثّ الشوق إليه، حتّى يهيّئ للقارئ الذي لا يعرف مناسبة القصيدة أنّها قصيدة في المديح النبويّ فقط، لكنّه ينتهي في قصيدته التي تبلغ خمسةً وثلاثين بيتاً، في البيت التاسع إلى تخلّصٍ جميلٍ ولطيفٍ في قصيدته، فيقول:

وَلَمّا نَفَى عَنّي الكَرَى خَبَرُ الّتي أَضاءَتْ بِإذنٍ ثُمّ رَضوى و يَذبلِ

وَلاحَ سَناها مِن جِبالِ قُريظةٍ لِسُكّانِ تَيْمَا فَاللِّوَى فَالعَقَنْقَلِ

وَأَخْبَرْتَ عَنْها فِي زَمانِكَ مُنذِراً بِيومٍ عَبوسٍ قَمْطَرِيرٍ مُطوّلِ

سَتَظْهَرُ نارٌ بِالحِجازِ مُضيئةٌ كأعناقِ عِيسٍ نَحوَ بُصرى لِمُخيَّلِ[2]

ففي هذه الأبيات التي تلت مديح الرسول الكريم وشوق الشاعر له، يتحدّث ابن قزل عن عزوفه عن النوم بسبب نار المدينة، تلك النار قويّة التوّهج التي وصل سناها إلى مناطق عديدة، وهذه النار هي نفسها التي أخبرت يا رسول الله عنها وأنذرتَ الناس منها، بمعجزةٍ منكَ أن حدَّدت مكانها و قوّة انتشارها، فيأتي الربطُ بينَ المقدمة والمضمون منسجماً، ويبدو النّصُ لُحمةً واح لانّ نارَ الحجازِ هي النار المترتبطةُ بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلّم.

أمّا في النثر، فيرى صاحب المثل السائر في حسن التخلّص أنّ الناثر " مطلق العنان يمضى حيثُ شاء، فلذلك بشقّ التخلّص على الشاعر أكثر ممّا يشقُّ على الناثر "[3]

لكنّ الناثرين أيضا أحسنوا تخلّصهم لا سيّما في الخُطَب، فعلى سبيل المثال، ينتقل الخطيب الذي قال في زلزلة عام 702 هـ خطبتة المؤثّرة، من الحديث عن حمد الله تعالى على نعمه، ولطفه بالناس، إلى ذكر الزلزلة الواقعة وربطها بالحمد وارتكاب الناس للمعصية، فيقول:

---

[1] ابن طباطبا،**عيار الشعر**. ص 6

[2] ابن قزل، **الديوان**. ص337

[3] ابن الأثير، **المثل السائر**. ج2.ص 228

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرونَ القُرآنَ أَمْ عَلى قُلوبٍ أَقْفالُها﴾ فلذلك ﴿ زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزالَها ﴾ ﴿وَقالَ الإنْسانُ مالَها﴾ ولولا رحمةُ الله علينا لأخرجت الأرضُ أثقالها، فيا لها من ساعةٍ يا لها. تالله لقد زهقت النفوس عندها.. " [1] وينطلقُ إلى وصف هذه الكارثة.

ففي هذه الخُطبة، يربط الخطيب بين ذنوب العباد في البداية وبين الزلزلة التي جاءت نتيجة لهذه الذنوب، مستخدما لفظة (ذلك) للفصل بين السبب و النتيجة، ثمّ يأتي على ذكر رحمة الله من شرّ هذه الزلزلة وذلك يرتبط بحمده نعمه وسماحته بنا في بداية الخطبة، فبذلك تبدو الخطبة متماسكةً لا اضطراب فيها أو انقطاع.

أما خاتمة القصيدة، فهي الجزء الذي ينهي فيه الشاعر قصيدته، وترتبط بها لفظة "حُسن"، أي حسن الخاتمة لدى النقاد بما فيها من دعوة للإجادة كونها باقيةً في السمع وملتصقةٌ بالنفس[2]، ويعتبر ابن القيرواني عن الخاتمة بقوله: " أما الانتهاء، فهو قاعدة القصيدة، و آخر ما يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه، وإذا كان أوّل الشعر مفتاحاً له، وجَبَ أن يكون آخره قفلاً عليه " [3] وقاعدة الشيء هي المرتكز القويّ الذي تثبت عليه الأشياء، ولذلك كانت النهاية قويّة و مؤثّرة.

ويسمّي النقاد نهايات النصّ الأدبيّ براعة القطع [4]، وهذا لا ينطبق على الشعر وحده، بل على النثر أيضا، فهو " آخر الكلام الذي يقف عليه المترسّل، أو الخطيب، أو الشاعر، مستعذبا حسناً لتبقى لذّته في الأسماع "[5].

ففي قصيدة ابن قزل التي نظمها في بركان المدينة، ومدَح فيها الرسول الكريم في بدايتها، و وصف فيها ما فعله البركان، اختتم قصيدته بالسلام على النبيّ صلى الله عليه وسلّم، فهو خير مبعوث و أكرم شفيع للناس، وهو أملهم:

---

[1] الدواداري، **كنز الدرر**.ج9.ص 102، 103

[2] ابن حجة، **خزانة الأدب**. ج2. ص493

[3] ابن رشيق، **العمدة**. ج1.ص243

[4] انظر: الحلبي، **حسن التوسّل**. ص 255

[5] المصدر السابق. ص 255

فَيَـا خَيْـرَ مَبْعـوثٍ وَ أَكْـرَمَ شَـافِعٍ وَأَنْجَـحَ مَـأْمُولٍ وَ أَفْضَـلَ مَوْئِـلِ

عَلَيـكَ سَـلامُ اللهِ بَعـدَ صَـلاتِهِ كَما شُـفِعَ المِسْـكُ العَبيـقُ بِمِنْـدَلِ [1]

وهذا يلائم موضوع القصيدة، التي يتوسّل فيها الشاعر إلى الرسول الكريم.

وينهي بعضُ الشعراء قصائدهم بالمديح، ومن ذلك ابن الوردي في قصيدته في وصف ثلج دمشقَ، فيقول:

في الذَّوقِ تَحْلو وَفي الأَسْماعِ تعـذُبُ إذْ في السَّبْقِ تَملُحُ حُسْناً هَكـذا القُصُـبُ

مَظْلومَةُ القَـدِّ فـي تَشْـبيهِها غُصِـناً مَظلومةُ الرّيقِ إذْ قُلْنا هِـيَ الضَـرَبُ [2]

يمدَح ابن الودري في الأبيات السابقة، بلاغة القاضي ابـن فضـل الله، مسـتخدما واو الجماعة لتعظيم شأن الممدوح، فهو يَعمد إلى رفعِ منزلته بين الأدباء، ويَمدح كتابَته لما تلقي هذه الكتابةُ في نفس متلقيها، فيستخدمُ أجملَ الأوصافِ في ذلك. وفي هذه النهاية تظهر رسالة ابـن الوردي في هذه الأبيات منسجمة متكاملة، فلقد بدأها بمدح المُرسل إليه ورسالته السابقة، وها هو ينهيها بذلك، مُثنياً على أسلوب كتابته في وَصف الموضوع المُتَحدّث فيه.

وحرص النقاد على حثّ الكتّاب على إجادةِ نهايات الرسائل، فيجب " أن يُستَجادَ آخـرُ الرِسالةِ ويُتقَن، حتّى يكونَ قفلاً لمحاسنها، كما أنّ أوّلها مفتاحٌ لذلك ".[3] ففي رسالةٍ كتبها الشـيخ محيي الدين النووي لأمير الشام، يصف فيها حال أهلها وما حلّ بهم من قحط وجفاف، يقول:

"وأنتم بحمد الله تحبّون الخير وتحرصون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات وأفضل الطاعات، وقد أُهّبتُم له، وساقهُ الله إليكم، وهو فضل من الله ونحن خـائفون أن يـزداد الأمر شدّة إن لم يحصل النظر في الرفق بهم، قال الله تعالى ﴿**إنّ الذين اتّقوا إن مَسَّهُمْ طـائِفٌ منَ الشّيطانِ تَذكّروا فإذا هُم مُبْصِرون**﴾ [4] والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فإذا علتم هذا

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص 339

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص183

[3] الاشبيلي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي: **إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس**، حقّه وقدّم له محمد رضوان الدّاية، ط2. بيروت:عالم الكتب. 1985. ص243

[4] سورة الأعراف ، آية(201)

فأجركم على الله ﴿**إنَّ اللهَ مَعَ الذينَ اتّقوا وَالذينَ هُمْ مُحسِنونَ**﴾ [1]والسلام عليكم و رحمة الله وبركاته"[2].

في هذه الخاتمة، يمدح الشيخ أميره بصفاتٍ هو أهلٌ لها، باستخدام ضمير الجماعة، وما فيه إعلاء من قدر الممدوح، وذلك ليس زيادةً في المَدح، وإنّما ضرورةٌ لينهض الممدوح بدوره، ويقوم بواجبه تجاه الناس، لا سيّما في أثناء المحن.

وقد تأتي بعض الخواتيم، لتنبّه الأدباء إلى ضرورة تأريخ الكارثة، ومن ذلك ما كتبه ابن عبد الظاهر في مقامته عن زلزلة عام 702ه، يقول:

"ولمّا حصلَت هذه الزلزلةُ المهولة، وهذه المتجدّدة التي غَدَت الأفكار بها مشغولة، تتبعتُ كتبَ التواريخ لألِفَ على ما اتّفقَ منها، وأتصفّح ماروي عنها، وجدتُ منها ومن العجائب السماويّة ما عَظُم خطراً وراعَ تأثيراً وأثَراً، واثبتهُ في هذا الكتاب ليُعلمَ أنَّ عجائب الدّهرِ متّصلةُ الأسباب" [3]

يظهرُ ممّا سبق، كيفَ انتهت هذه المقامة بعرضِ فائدةٍ عامّة تؤدّيها مثل هذه الكوارث، فعلى الكتّاب أن يؤرّخوا لمثل هذه الأحداث، كي يَصلوا إلى نتيجة يقدّمونها للمتلقي، تجعله يوقن بأنّ أسباب الكوارث واحدة، وأنّ عجائب الدنيا كثيرة ولا تنقطع، لذا عليه الاعتبار بما يحصل.

وحدة النّص الأدبيّ

عُني أدباء العصر المملوكي بوحدة القصيدة والعمل الفنيّ عناية فائقة، و طبّقوا ذلك في كتاباتهم الأدبية، وعبّر النقاد في ذلك العصر عن رؤيتهم في هذه الوحدة، وقد كان في عنايتهم بتفصيل القول في المطالع و حسن التخلّص والنهايات وضرورة ربطها ببعضها و بمناسبة القصيدة، وما عابوه على الأدباء من تشتّت أجزائها، دليلاً على عنايهم بوحدة العمل الفنيّ.

[1] سورة النحل ، آية (128)

[2] السيوطي، **حسن المحاضرة**. ج1.ص105

[3] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص51

ومن ذلك ما يدلّل به ابن طباطبا على ضرورة اتساق أوّل الشعر مع آخره بوصفه أحسن الشعر برأيه، إذ قال: " يجب أن تكون القصيدة كلّها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، وأن يكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجا لطيفا حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغا لا تناقض في معانيها ولا في مبانيها، ولا تكلّف في نسجها " [1]

ويرى النقاد في انعدام وحدة القصيدة عيباً لدى الشاعر، فهي كالجسد، يشّد بعضها بعضا، ويظهر من خلالها حسنُها الذي من أجله صاغها الشاعر. وفي ذلك يقول الحاتمي، إنّ " القصيدة مثلها كمثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحّة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخوّن محاسنه، وتعفى معالم جماله " [2]

وفي أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، تُصبغ المعاني والألفاظ بصبغة حزينة تطغى على الفكرة العامّة للنص الأدبي، وعلى ما يتضمّنه من أفكار فرعيّة تقسّم القصيدة إلى أجزاء، فيغلب عليها الأسى والحسرة وقد يعدّد الأديب الخسائر التي نجمت، وقد يتعرّض لذكر شماتة عدوّ، وذلّ أخ أو صديق، وعادةً ما كانت تتضمن مناجاة صادقة لله تعالى و نبيّه الكريم لرَفع هذه الكارثة، فتقدّمُ النصوص صورة للكارثة وأسبابها ونتائجها، فكانت جميع أجزاء العمل الأدبي متلاحمة في وحدة موضوعيّة.

ومن ذلك ما يظهر في قصائد الشعراء المعاصرين للكارثة على سبيل المثال، ومن تلك القصائد، ما قيل في توقّف نيل مصر، وانقطاع الخير عن الناس لا سيّما الفلاحين، وما نتج عن ذلك من نقص في الغذاء و هجرة للزراعة، ونزوح للناس، وانتشار الجوع والمرض.

ومنها قصيدة الشاعر شهاب الدين محمود، إذ توقّف نيل مصر عام 709ه، فقد وجّه في بداية قصيدته خطابه إلى النيل، الذي يعتمد عليه اقتصاد المناطق التي يمرّ فيها، فيعدُّ توقّفه كارثة حقيقية لأهلها:

---

[1] ابن طباطبا، **عيار الشعر**.ص 126

[2] القيرواني، **العمدة**. ج2.ص 66

يـــا أيُّهـــا النّيـــلُ المُبـــارَكُ إنْ تَكُـــنْ   منْ عِنْــدِ رَبِّــكَ تَــأْتِ فَــاجْرِ بَــأَمْرِهِ
أَوْ إنْ تَكُــنْ مِــنْ عِنْــدِ نَفْسِــكَ تَأْتِنـــا   فَـــاللهُ يَبْسُـــطُ بِـــرَّهُ فـــي بَـــرِّهِ[1]

ففي هذه الأبيات التي تظهر فصاحة الشاعر و بلاغته، فهو يناجي النيل ويخاطبه كما لو كان إنساناً، ويطلب إليه أن يجري كما اعتاد بأمر الله، وإن ظنّ النيل أنّه يجري من تلقاء نفسه فإنّ الله قادرٌ على إغناء عباده من فضله،وفي ذلك صورة حزينة يدمج فيها الشاعر بين حبّه للنيل الذي جعله يتعلّق به ويناجيه كإنسان بهذه الطريقة، وبين مناجاته لله الذي هو العلّة الأولى في كلّ شيء، وهو منزل الخير في كل البلاد، وليس فقط في بلاد النيل.

ويستخدم الشاعر هنا أداة النداء (يا) التي تفيد النداء للبعيد أصلاً، لكنّ النيل قريب من قلب الشاعر، لذا فإنّه يصوّر حبيباً خان عهده فلم يَفِ، وهو الوفاء المنتظر من النيل في كلّ عام، ويصرّ على إظهاره الخليل (الحر) الذي لا يغدر، ويعد لمناجاة الله بطريقة جميلة خلال لوحته الأولى، فيقول إنّه إن كان انعدام الوفاء في ذلك العام من عند الله، فإنّ مالك النيل حرّ فيما يشاء.

ثمّ يتعرّض الشاعر القاضي إلى ذكر شماتة الصليبيين في أهل مصر عندما توقّف النيل، ويلعن سخريتهم و كفرهم، إذ قال:

قالَ الصَّليبيُّ اللّعــينُ بِجَهْلِــهِ وَ الكُفْــرُ   يَـــرْكُضُ فـــي جَوانِـــبِ صَـــدْرِهِ
مُسْرِىً سَــرى وَالنّيــلُ أَصْــبَحَ واقِفــاً   قَـــدْ فاتَنـــا تعقيبُـــهُ فـــي شَـــهْرِهِ
وَمَضى النَّســيءُ ولَــيْسَ فيــهِ زِيــادَةٌ   إنَّ النَّســـيءَ زِيـــادَةٌ فـــي كُفْـــرِهِ[2]

يبدو الشاعر في هذا الجزء من القصيدة، ساخطاً على الصليبيّ الذي يتمنّى دوما لو كان بإمكانه أن يوقف النيل، لتحلّ الكارثة بأرض النيل، فكلّما ازداد وفاء النيل، ازداد حقدهُ على أرض الإسلام والمسلمين. وفي ذلك تذلّل لله تعالى، يعكس فيه الشاعر، ما حلّ بالمسلمين من جفاف.

---

[1] الداوداري، **كنز الدرر** .ج9.ص 166

[2] المصدر السابق. ج9.ص 166

ويعرض الشاعر بعد ذلكَ شكواه إلى الله تعالى القادر على كلّ شيء، مقرناً ذلك بذكر بعض النتائج التي أفضت إليها الكارثة:

يا رَبُّ إنّ القَمْحَ أَصْبَحَ غالِياً ... فارْخِصْ بِحَقّكَ ما غَلا مِنْ سِعْرِهِ

ارْحَمْ بِفَضْلِكَ رُكّعَاً أَمْ رُضَّعاً ... أَمْ رُتَّعاً في ذي الوُجُودِ بِأَسْرِهِ

أوَ أَغِثْ عِبادَكَ في بِلادِكَ بِالوَفا ... وَابْسُطْ عَلَى المِقْيَاسِ خِلْعَةَ سِتْرِهِ

وَأَضْفِ إِلَى تَغْلِيقِهِ تغليقةً ... حَتّى يُرى تَخليقُهُ في مِصْرِهِ

وَأَفِضْ عَلَى السَّدّ المُبارَكِ ماؤُهُ ... وَاكْسِرْ رَبِّ فَجَبْرُنا في كَسْرِهِ

إِنّا تَشَفّعْنا بِجاهِ مُحَمَّدٍ ... وَبِشَهْرِ مَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ وَعَشْرِهِ [1]

يتحدث الشاعرُ في هذه الأبيات عن بعض النتائج التي أفضى إليها توقّف النيل في ذلك العام، إذ ارتفعت أسعار القمح، ثمّ ذكر الشاعر كيفَ تأثّر جميعُ الناس بهذا الغلاء وعانوا منه، وفصّل في ذكر بعض الفئات الاجتماعية التي تأثّرت بشكل كبير بهذا الغلاء،وهم المصلّون لله تعالى والذاكرون له والأطفال الرضّع الذين يعتمدون على ما تأكله أمهاتهم، وكذلك الذين كانوا يعيشون في هناءة العيش ويأكلون متنعّمين، وهذا دلالة على انتشار الكارثة على جميع فئات المجتمع.

ويختم الشاعر الجزء الأخير في القصيدة بالتشفّع بسيّدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا أيضا مما درج عليه شعراء ذلك العصر لدعم شكواهم إلى الله تعالى، فيتشفعون بالرسول الكريم و بجاهه وبالشهر الذي وُلد فيه، وبذلك تتلاحم أجزاء القصيدة ما بين الشكوى والرجاء، و الشماتة والأمل بالخلاص، مما وقع به المسلمون في تلكَ السنة.

أما في النثر، فقد جاءت النصوص منسجمةً في أجزائها أيضا، ومن الأمثلة عليها رسائل الشتويات التي كان الصفدي يتبادلها مع بعض أصدقائه من الأدباء والكتّاب في الثلج والبَرَد، ففي إحدى رسائله التي تبادلها مع ابن فضل العمري، يقول:

---

[1] الداواداري، **كنز الدرر**. ج9.ص 166

" يقبّل الأرض التي يخجل السحاب من نداها، ويشفي لثم ترابها القلوب صداها، وتؤمّها الأيام بالمنِّ وتعدوها الخطوب إلى عداها، تقبيلاً يزدادُ به شَرَفا، ويعتادُ تكراره، ولا يعتدُّهُ سَرفا، ويجعل مواطئها بمواقع لثمه روضةً أُنُفا،وينهي ورود المثال العالي تجلّى حبـرهُ فـي حِبَـره، ويفضحُ زهر الأفقِ روضُهُ بزهره، وتتحقّقُ النواظر حسنَ صنائعه وما دبّجه القلمُ فيه بالأثر."[1]

في هذه المقدّمة، يمدحُ الصفدي متلقي الرسالة، فلا يسألُ عن حاله، ولا يشير إلى أثـر الكارثة، فتبدو مقدّمةً مَدحيّة فقط، ثمّ يتخلّص الأديب من المَدح، بالإشارة إلى رسالة ابن فضـل التي سبق وأرسلها إليه فيقول:

"وانتهى إلى الإشارة الكريمة في أخبار الثلوج التي طمّت وعمّت، وأوضحت أنباءها وما عمّت، وساقت إلى الشام قطار القاطر، وذمّت، ونمَت بركات مواقعها ونمّت وتمـت، وهَمَـت سحائبها بالعذاب وأهمّت فإن لَم تبلغ الحناجر فقد همّت "[2]

في هذا الجزء من الرسالة، يعرض الصفدي كيفَ تناول ابن فضل بقلمه ما فعلته الثلوج في المناطق التي نزلت عليها، التي كان لها أثر سلبيّ ومدمّر، جعلت الناس يعيشون في خوف، فشتاء تلك السنة لم يكن شتاء خير، بل شتاءً أهمّ الناس.

ثمّ يتحدُّث الصفدي عن الثلوج وأثرها في مكان إقامته مصر، رادّاً على رسالة ابن فضل بالشام، فيقول: " فإن كانت هذه السنة أربت بالثلوج على الأولى، وزادت عرضَ الأرض طولا، وجعلت صحيحات النواظر حولا، فما يظن المملوك إلّا أنّ الله نسف جبال دمشق ثلجا، وجعـل حواجبها الممتدّة على عيون الأرضِ بَلْجا.على أنّ الديار المصريّة في هذا العام، وصـل إليـه فضلةُ ذلك البرد، ورمى أهلها بما عهدوه من مزاجها الذي كأنّه من الورد، فلوترى أحدهم وقـد أخذه النّافض، ونحّاه القرُّ بعامله الرافع الخافض، لا يحميه حصن فروةٍ ولا يُجنّه، ولا يصدُّ عنه نفخة زمهرير ولا يكنّه، لتوهّمه أخا وجدٍ يهتزُّ طربا، أو غصناً اعتورَ عليها ريحاً شمأل وصبا، قد ركّبت أعضاؤه من الزئبق فما استقر... كم بكى أنف بدمعِ جفونه أحقَّ بتلكَ العبرات، وكـم

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص160

[2] المصدر السابق. ج1.ص160

طافَ بكعبةِ كانونَ وما أتى غير الجمرات، يكادُ لذلك البرد واليبسِ يتجسَّدُ حتّى الكلام، ويتوسَّدُ الإنسانُ طلب الدّثار تحتَ الرِّجام، تلهجُ الرعدةُ به لهجَ السكون بحرف العلّة، أو عيونَ العشّـــاقِ بالدموعِ المستهلّة، أو البدائعَ والبداية بكلمات مولانا المتدفّقـــة، أو الفهاهـــة والعـــي، بعبـــارات المملوكِ وكلماته الملفّقة "[1]

يصوّر الصفدي هنا شدّة البَرد الذي وقع في مصر، على الرغمَ أنّه لَم يكُن بحجم البـــرد والثلج الذي وقع في دمشق، مكان إقامة ابن فضل، ولكـــنّ الأوّل جـــاءَ علـــى النـــاس بمـــا لا يستطيعون، فجمّد الأطراف، وأصاب الناس بالمرض، فبدت كلُّ الأشياء يابسةً من شدّة البرد، و يضمّن الصفدي رسالته بعض المصطلحات اللغوية التي يعبّر من خلالها عمّا يفعله البرد، الذي يكفُّ الناس عن العمل، ويجعهلم مشغولين بما جاءَهم من هذا البرد العظيم، وهذا الثلج المدرار.

ويتحدّث الصفدي بعد ذلك عن رأيه في هذا البردِ العجيب والثلج البغيض الذي أتلـــف، مقارنا بين الطقسين في دمشق والشام، فيكتب:

"لقد تحقّق أنّ عنصرَ النار ذهب فَلكه، وأنّ الأثيرَ تقطّعت حبَكه، يا رحمتا له من عـــارٍ يحسبُ أنّ النُّخَّ[2] نُخّا تحتَ فَنَك[3]، ويا عجباً له من عاجزٍ عن الكلامِ وكم دقَّ من بالحنَـــك، هـــذا وبينَ الإقليمين هذا البُعدُ ما للجّهِ ساحل، والمسافةُ التي إذا سَرَى فيها طيفُ شـــيِّقٍ أصـــبَح دون الغاية بمراحل، ولم يصل إلينا إلّا فُضالاتُ تلك العواصف، ولفاظاتُ ما ينفثهُ فمُ الجوِّ من الرعود القواص، فهذه رموزُ ما هناك من التصريح، وبعضُ شررَ ما ينفخه كير الريح. فكيـــفَ بمكـــانٍ كانَ فيه المصرعُ، ومظانُ ما ينشأُ عن الرياح الأربع، مواطنٌ إذا كانت الريح رجاءً مرَّت بـــه وهي زعزع.. فأقبح بتلكَ الأرضِ إذا أصبحت ثغوراً تضحك، وأبعد بتلكَ الأنداءِ التي ينحلُّ منها الكافورُ وينحكّ، ولقد كابد المملوك ثلوجها ولا إلى هذا الحد، وعالج أنواءها ولكن بعد لعبٍ وهذا جدّ.

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص160- 161

[2] بساط طوله أكثر من عرضه. ابن منظور، **لسان العرب**. مادة نخَّ

[3] وهو جلدٌ يُلبس تحت السراويل، وقيل فلان بطّن سراويله بفَنَك. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**. مادة فَنَكَ.

ولله الوداعيّ[1] حيث يقول:

أقـــولُ والـــثلجُ قـــد نُشِـــرنَ لـــهُ   علـــى وجـــوهِ المـــلا مـــلاءاتُ
لـــو لَـــم تَكُـــن قامـــت القيامـــةُ   مـــا بـــدّلت الأرضُ والســـماواتُ"[2]

يدمجُ الصفدي في مَتن رسالته بين وَصفِ الثلج والبرد في مصر، ومظاهره التي جعلت الأرض مكسوّةً باللون الأبيض، فتغطّي الزرعَ وكلّ ما عليها، فلا يظهر للأرض لون، وتتعطّل مسالكها، وتأتيها الريح القويّة من كلّ اتجاه، ولا يسمع سوى صوت الرعد القويّ، وبينَ المقارنة بينَ مصر والشام اللتين تعانيان المعاناةَ نفسها، ومصرُ على شدّة ما بها، فهي أقلُّ معانـــاةً مـــن الشام، وهذا يدلُّ على قوّة الشتاء في ذلك العام، وأثره في الناس، وما خلّفه من أثرٍ في الأدبـــاء أيضا، جعلت أقلامهم تفيض بهذه الرسائل، وقد ضمّن الصفديّ بيتين للوداعيّ في واقعة مشابهة، وهو بذلك يوظّف تجربة غيره من الأدباء، ليعبّر عن قوّة الحادثة التي يتحدّث عنها.

ويختم الصفدي رسالته، بإيمانه بقضاء الله في هذا الشتاء، إذ كتب:

"والله المسؤول في الإعانة، والمرجوُّ لحسنِ العاقبة لا إله إلّا هو سبحانه، ومولانا فـــي وقايةٍ من الله تكفُّ عنه الأسواء، وتردُّ الأدواءَ تصدُّ الأواء، ونعمة من الله تصاحبه صباح مساء، وتبلغُه من المآرب والمسارب حيث سار وحيث شاء، بمنّه وكرمه إن شاء الله "[3]

يظهر الصفدي في نهاية رسالته مُسلّما بما أراد الله له أيكون، آملاً منه أن يبعد الســـوء عن القاضي العمري، فالله تعالى،العالم بكلّ شيء، ولا ملجأ من كلّ سوء إلّا إليه، وكلّ ما قضاه الله تعالى نعمة منه لعبده.

في هذه الرسالة تبدو أقسامها متكاملة منسجمة؛ فلقد حرصَ الكاتب أن يبدأ بذكر الأرض والطبيعة المعطاءة وخيرها، مهما تعرضّ الناس فيها لكوارث تسيء لهم، وحرصَ على عرض

---

[1] هو علاء الدين علي بن المظفّر الكندي،شاعر وكاتب، وله كتاب معروف باسم " التذكرة الكندية " ولد سنة 640ه تـــوفي سنة 716ه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**. ج22. ص199

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص162، 163

[3] المصدر السابق. ج1.ص163

ما تعرّضت له مصرُ من ثلج وصقيعٍ أضرَّ بها، وجَعَله منسجما مع الرسـالة التـي أرادَ الـردّ عليها، وهي رسالة تتحدّث عن الموضوع ذاته، واستحضر الصفدي نصوصاً شعريّة لشـعراء آخرين، كاءت منسجمةً هي الأخرى مع مضمون الرسالة، فلا انفصام ولا انقطاع بين أجزائها، ويختم الكاتب رسالته بتأكيده على الإيمان بما أرسله الله تعالى للناس من كوارث طبيعيّة.

اللغة

تعدّ اللغة أداة الكاتب الملموسة التي يرصف بها أدبه، لذا يكونُ حريصاً على اسـتخدام اللغة الملائمة التي تناسب الجنس الأدبيّ الذي يطرقه، والموضوع الذي يودّ الكتابة فيه، بحيـث "يكونُ الكلام ظاهرَ الدلالةِ على المراد به "[1]، فلا أدلّ على فصاحة الأديب من خلوّ نصوصه من التعقيد والتنافر في الكلمات والضعف في التأليف" [2] ،حتّى تبدو كتابته في أفضل حلّة ترضـيه، وتستثير ذائقة القارئ.

وكانت هناك دعوةٌ منَ النقاد إلى السهولة في اللفظ قبل العصر المملوكيّ، " فأجود الكلام ما يكونُ جزلاً، لا ينغلقُ معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكونُ مكدوراً مستكرهاً، ومتوعّراً متقعّراً " [3] ، وقد تَبع هذا المنهج كثيرٌ من أدباء العصر المملوكيّ ، فها هو صفيّ الدين الحليّ، الـذي يعدّ من أبرز هامات العصر أدباً، يقول ناقداً اللغة المعقدة الوعرة:

لُغَـةٌ تَنْفِـرُ المَسَـامِعُ مِنْهـا   حِـينَ تُـروى وَتَشْـمَئزُّ النُّفـوسُ
وَقَبِـيحٌ أَنْ يَـذْكُرَ النَـافِرَ الوَحشِـيّ   مِنهـا وَيَتْـرُكَ المَـأْنوسَ
أَيْـنَ قَـولِي كَثَيـبٌ قَـديمٌ   وَمَقَـالِي عَقَنْقَـلٌ قَـدْمُوسُ [4]

---

[1] الصعيدي، عبد المتعال: **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علـوم البلاغـة**. د.ط. القـاهرة: مكتبـة الآداب. 1999. ج1.ص15

[22] المصدر السابق. ج1. ص 20

[3] أبو هلال العسكري، **الصناعتين**، ص 81. وانظر: قلقيلة، عبده عبد العزيز: **النقد في العصر المملوكي**. ط1. القـاهرة: مكتبة الأنجلو. 1972.ص 282

[4] الحلّي، صفي الدين: **الديوان**. د.ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1990. ص 624. انظر: قلقيلة، عبده ،**النقد في العصر المملوكي**، ص285

يدعو صفيّ الدين الحليّ إلى الابتعاد عن الألفاظ الصعبة الحوشيّة، ويصف لغة الشعراء التي تحوي مثل هكذا ألفاظ بأنّها منفّرة للسمع، وتجلب الاشمئزاز للنفس، فمن القبيح استخدامها.

وقد عُني أدباء هذا العصر بهذه القضيّة، وأبدوا آراءهم فيها، وكان منهم الصفدي، الذي كان يشيد كثيرٍ ممّن يراسلهم من الأدباء والكتاب، فعلى سبيل المثال، ما أوردَه من رأيه في أدب جمال الدين ابن الغانم[1]، فهو متفرّد بلغته " مِن كلِّ معنى وحيد يكاد الميتُ يفهمه، وكلّ لفظٍ رقيق تكاد صفحة القرطاس تُسلمه "[2]

واستخدم الأدباء اللغة السهلة في أدبهم للتعبير عمّا في نفوسهم في أدب الكوارث الطبيعيّة، يقول شاعرٌ في توقّف النيل إحدى السنوات:

إنَّ مِصْراً تَرَمَّلَتْ مِنْكَ دَهْراً وَهِيَ تَرْجُو مُراجِعاً مِنْكَ بَعْلاً[3]

في هذا البيت، تسيطر على لغة الشاعر البساطة في أثناء انتقاء ألفاظه في معرضِ رجائه بعودة النيل للوفاء، كي يحلّ الخير على مصر، فيستخدم لفظة (ترمّلت) و (بَعلا) وهي من الألفاظ القريبة لقاموس الناس جميعا في حياتهم اليوميّة، فلا يختار ألفاظا معقّدة يصعب على المتلقي فهمها.

ومن الأبيات التي اتّسمت بسهولة الألفاظ، بعضُ ما قاله شهاب الدين محمود في نيل مصر، عندما توقّف عن الوفاء سنة 695ه، فيقول معاتبا:

يا ذا الوفا أراكَ خُنْتَ عهودنا والحُرُّ لا يَشْنى الوَفاءُ بِغَدْرِهِ
إنْ كانَ دَفَعَكَ ما يَجيءُ مُبادِراً إلّا بِإذن مَليكِهِ فَبِعُذْرِهِ

ومن المَواطن التي اتسمت بالسهولة، مقامة ابن عبد الظاهر في زلزلة سنة 702هـ، التي يبيّن فيها كيفَ تناول أهل مصر أثر الحدث، وتقويم الناس له، إذ قال:

---

[1] وهو أديب وكاتب ديوان الإنشاء في الشام، مات في شبابه عام 744ه. انظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**.ج17.ص 189
[2] نفسه، **ألحان السواجع**. ج2. ص 133
[3] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1. ق1.ص 521

"ولم يكن لأهل مصر عهدٌ بمثل هذه الزلزلة، ولا ألِف شيوخها مثلها، فلا جَرم إن كانوا لها مستهولين. وأمّا غيرها من الأقاليم فإنه قد ورد التاريخ بما يكاد يتهم فيه المؤرخ في نقله "[1]

يرى الأديب هنا، أنّ المؤرخين المصريين لَم يعرفوا مثل هذه الزلزلة في تاريخهم، فكانت زلزلة عظيمة في نظرهم ونظر العامة، والأمر يختلف في بلادٍ أخرى، إذ إنّ غيرهم قد أرّخ للكوارث التي حلَت ببلادهم بشكل لو قرأه أحد، لما صدّق المؤرّخ من شدّة الأهوال التي نقلها.

يظهر من النصوص السابقة كيف استخدم بعض الأدباء اللغة السهلة المفهومة، ليصفوا الكوارث الطبيعيّة التي حلّت بهم، بشكل يفهم المتلقي دون غرابة أو وعورة.

مقابل ما سبق ، ظهرت بعض الألفاظ الغريبة والصعبة لدى بعض الكتّاب والشعراء في العصر في العصر المملوكيّ الأول ، وذلك عند استخدامهم بعض الألفاظ الشعبيّة في أشعارهم، التي سأتحدّث عنها لاحقا.

وتختلف لغة الكاتب على منازل شتّى، فألفاظ المتغزّل تختلف عن ألفاظ المفتخر، وألفاظ الهاجي تختلف عن ألفاظ المادح وهكذا، ويختلف الوصف في كلّ موضوعٍ من هذه الموضوعات فما يصّح وجوده هنا لا يصحّ في موضع آخر.[2]، لذا واهتمّ النقّاد بوجود علاقة وطيدة بين اللغة والمعنى، قال العتابيّ:" الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح "[3] لذا يجب " إيفاء كلّ معنى حظّه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ، حتّى يبرز في أحسن زيّ وأبهى صورة " [4]

وتباينت اللغة في أدب الكوارث الطبيعيّة في هذا العصر بين القوّة والسلاسة، فالقوّة كانت في مواضع وصف الكارثة وشدّتها، و السلاسة فكانت في مواضع وصف أثرها على

---

[1] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص 54

[2] ابن الأثير، **المثل السائر**، ج1. ص 168. انظر: بكار، يوسف حسين: **بناء القصيدة العربيّة**. د.ط، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1979.ص 190 -191

[3] أبو هلال العسكري،**الصناعتين**. ص 197

[4] ابن طباطبا، **عيار الشعر**.ص 7

الناس وذكر الموت، وغالباً ما طغت الأولى على الثانية، لما يعتمد عليه هذا الأدب من مضمون.

واستخدم الشعراء والأدباء اللغة الرقيقة السلسة في مواضع متعدّدة في الحديث عن نتائج الكارثة، وما فعلته من مآسٍ بالناس، ومنها مواضع مدح الرسول الكريم، ومناجاة الشعراء والكتاب له بين الخوف والرجاء، ومن ذلك:

وَتَـابَ الـوَرَى وَاسْـتَغْفَرُوا لِـذُنُوبِهِمْ وَلاذوا بِمِنـوالِ الكَـريمِ المُبَجّـلِ
شَـفَعْتَ لَهُـمْ عِنْـدَ الإلـهِ فَأَصْـبَحوا مِـنَ النّـارِ فِـي أَمْـنٍ وَبِـرٍّ مُعَجَّـلِ
أَغـاثَهُمُ الـرَّحْمَنُ مِنْـكَ بِنَفْحَـةٍ أَلَذَّ وَ أَشْـهَى مِـنْ جَنَـىً و مُعَسَّـلِ[1]

في هذه الأبيات، يستخدمُ ابن قزل ألفاظاً تتسمُ رقيقة سلسة، لما في ذكَر الرسول الكريم من أثَرٍ في القلوب، فها هي التوبة والاستغفار والشفاعة والأمن والبِرُ والغوثُ والنور والسلام وأسماءُ الله تسيطرُ على هذه الأبيات، فتريحَ القارئ الذي اضطربَ من هول النار وأثرها.

واستخدم الشعراء أيضاً لغة رقيقةً، حتّى وهو يتخيّلون أنّهم يخاطبون سبب الكارثة وما هم فيه من مآسٍ، مثل مخاطبة النيل المتوقّف عن الوفاء، يقول شاعر:

لَـمْ تَـزَلْ يـا نيـلُ أَهْـلاً وَبِـكَ الفَضْـلُ فِـي الـدّفاترِ تُمْـلا.[2]

ففي هذا البيت يُظهر الشاعر تفاؤلاً مبطّنا، ورجاءً لطيفا من النيل الذي أدّى توقّفه إلى حدوث مجاعةٍ في مصر، وذلك بما تحمله ألفاظ البيت من شحناتٍ عاطفيّة، تدخل قلب المتلقي.

وسيطرت بعضُ الألفاظ السَّلسة التي تدلّل على عاطفة الحزن، في بعض أبياتِ القصائد التي قيلت في الكوارث، ومن الأمثلة عليها، وصفُ القاضي شهاب الدين محمود ما حلّ بدمشق من سوء الحال في سيل بعلبك:

هـلا أَعـارَتْ دِمشـقُ أختَهـا حلَـبَ عَيْنـاً فتُـرَحمَ أَوْ قلبـاً فَيَكتَئِـبُ [3]

---

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص338

[2] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1.ق1. ص522

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص181

فدمشقُ مدينةٌ تشكو من الحزن والاكتئاب من شدّة المحنة، وهي من شدّة ما بها لا تريدُ أن تنشر ما بها أختها مدينة حلب، فلظوة (أخت، ترحم، قلبا، يكتئب)، كلّها ألفاظ تعكس سلاسة الأشعار التي قيلت؛ فهي أشعارٌ تعكس حالةَ حزن وألم، وبذا فإنّها تأتي ملائمةً للحَدث الذي قيلت فيه.

ومن ذلك أيضا قول أحدهم في خطبة زلزلة عام 702ه: " ولم تُغنِ عنه الدنيا وأموالها، لمّا هلك في ساعة زلزلتها ! فرحم الله امرأً تاب عمّا جنى، وتقرّب من فعل الخير و دنا "[1]

فيستخدم الخطيبُ ألفاظا مثل: تاب، تقرّب، دنا، لم تَغنَ، رحم الله. وكلّها ألفاظٌ تدلُّ على السلاسة في تناول المعنى المطلوب، متأثّرا فيها بلغة القرآن الكريم، التي تعكس مصير المؤمنين في هذه الزلزلة.

وبرزت مواطن القوّة في اللغة، في أثناء الحديث عن صورة الكارثة وقسوتها وشدّتها، وفي تفسيرها أحيانا، ومن الأمثلة على ذلك، ما قاله أحد الشعراء في وصف نار المدينة:

قَدْ أثْرَتْ سَفْعَةً في البدرِ لَفَحَتُها ... فَلَيْلَةُ التَمِّ بَعْدَ النّورِ لَيْلاءُ

تُحدِثُ النّيراتُ السّبْعُ أَلسُنَها ... بما يُلاقي بِها تحتَ الثّرى الماءُ

وَقَدْ أَحاطَ لَظاها بِالبُروجِ إلى ... أَنْ كادَ يَلحَقُها بِالأرضِ إهواءُ [2]

في هذه الأبيات يتحدّث الشاعر عن نار المدينة، شديدة السواد المائلة إلى الحمرة، كيف جعلت النهار ليلاً، ووصف هذه النار بأنّ لها سبعة ألسن، وكأنها حيوان أسطوريّ متوحّش، لا يرويها حتّى ما تحت الأرض من ماء، ويلاحظ استخدام الشاعر للألفاظ (لظاها، البروج، إهواء) في معرض وصفه لما لأثر الكارثة، فهذه النار لم تكن ناراً عادية، بل كانَ لها لظىً أطاح بالبروج العالية، ولم يهدّم أجزاءً منها فقط، بل أهوى بها أرضاً.

ويقول شاعرٌ في وصف ما حلّ في دمشقَ من سيلٍ أصابها:

---

[1] الدواداري، **كنز الدرر**.ج9.ص 103

[2] أبو شامة، **الذيل على الروضتين**. ص 193

لَقَـدْ أَظْهَـرَ الجَبّـارُ بَعْـضَ اقْتِـدارِهِ فَأَرْسَـلَ بَحْـراً طامِيـاً مِـنْ بِحـارِهِ
وَأَرْعَـدَها حَتّـى تَوافَـتْ مِياهُهـا مُطَنَّبَـةً مَحفوفَـةً بِازْدِجـارِهِ
وَأَهْلُكَ فيـهِ خَلْقَـهُ وَعَبيـدَهَ فَأَضْحَوا وَهُـمْ غَرْقَـى بِأَقْصَـى قَـرارِهِ[1]

في هذه الأبيات يستخدم الشاعر كلماتٍ لها رنينُ عالٍ في السماع، فينتقي من أسماءِ الله الحسنى (الجبّار) لما في هذا الاسم من وقعٍ في نفس المتلقي، ولما في صوت الجيم من قوّة في السّمع، واستخدم كلمة (ازدجاره) التي تحملُ الصوت نفسه، فحرفُ الجيم من الحروف المجهورة، والمحفوزة أو المقلقلة التي تُحفَز عند الوقف،و يضغط القارئُ عليها في مواضعها [2]، و يُلاحظ وصفُ الشاعر لما حلّ في دمشق بأنّه بعضُ قدرة الله تعالى، وهذا يحيل النفسَ إلى التفكّر في جبروت الله تعالى وقدرته على فعل ما هو أكبر من هذا، ويصف الشاعر السيل بالبحر (طامياً)، بما تستدعيه هذه اللفظةُ من القوّة والتذكير باسمٍ من أسماء يوم القيامة وهو (الطّامة) ويوافقُها في البيت الثاني وصف المياه بأنّها مطنّبة، فيزيد صوتُ الطاء من الطاقة الإيحائية القوية للأبيات، ويستخدم الشاعر لفظة (أرعدها) و (أهلكَ)، وينهي بنتيجةٍ أنّ الناس (غرقى) بما تحمل هذه الكلمة من إيحاءات الموت البَشع غير العاديّ، فهم ليسوا بدار قرار الآن بل هم (بأقصى قرار)، فتبعثُ كلماته الرهبة إلى النّفس، والأثرَ القوي فيها.

ويصف ابن الوردي ما حلّ في سيل أصاب الشام، فيقول:

ناهيكَ مِـنْ دِيَـمٍ فـي طَيِّهـا رَغَـبٌ وَزَمْجَـراتِ رُعـودٍ ضَـمَّها رَهَـبُ
قَدْ ثُجَّـتْ الأَرْضُ ثَجّـاً فَهُـوَ مُنْسَـكِبُ وَ﴿رُجَّتْ الأَرْضُ رَجًّا﴾[3] فَهِيَ تَضْطَرِبُ[4]

يصف الشاعر في هذين البيتين أثر السيل على دمشق، فمَطَرُهُ شديد ذو صوتٍ مخيف، فهو (يزمجرُ)، ما يدعو الناس للإصابة بالرهبة، والمياه (تثجُّ) من شدّتها، وتتأثّر الأرضُ وكأنّها (ترتج). يُلاحظُ أنّ الشاعر فيما سبق يستعير الألفاظ التي تبعث على الرهبة من الحَدَث، فبعضها يبعث في النفس الخوف من الصوت، وبعضها يبعث على الشعور بعدم التوازن، وهي بالتالي

[1] الذهبي، **تاريخ الإسلام**.ج48. 366
[2] انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة جيم
[3] **سورة الواقعة** . آية (4)
[4] ابن الوردي، **الديوان**. ص182

تُشعرُ المتلقّي بالخوف النفسي، وتشعره بالتعب، نتيجة ما تبعثه الأصوات التي تتألّف منها من جهدٍ عضليّ في الجهاز الصوتي، وكلّها تدلّل على قوّة الحدث.

وفي النثر، يذكرُ ابن عبد الظاهر في مقامته التي كتبها في زلزلة 702ه:

"واهتزّت الأرضُ، ومادت، وطالت هزّتها وتمادت، وزلزلت الأقدام، وخفضت الأعلام،واستوت من هولها الأنوار والظلم "[1]

يصورّ الكاتب الزلزلة في مدى قوّتها، ويستخدمُ ألفاظاً تعبّر عن الكارثة وما أحدثته، فيقول في وصف حركة الأرض " اهتّزت، مادت، طالت، تمادت "، ما يوقع في النفس تصوّر مدّتها الزمنية وأثرها الذي تعاظم أثره مرّة إثر مرّة، فما عاد شيءٌ عالٍ إلّا وانخفض، حتّى " الأعلام " التي تثير في نفس القارئ الشعور بالأمان كونها رمزاً للدولة والشعور بالأمن قد خفضت، وأصبحَ الليل كالنّهار على الناس من "هَول" هذه الحادثة.

ومن الأمثلة على اللغة القوية في النثر أيضا، ما ورد في رسالةٍ من والي الصفقة القبلية عن المطر، فيقول في مقدّرات الناس " إذ داهمه سيلٌ عظيم عبابه، هامٌّ سحابه، له دويٌّ شديد، قد اجتمعَ من متون الجبال وبطون الأودية وقرار الوهاد "[2]

وأخفقَ بعضُ الشعراء في الموافقة بين اللفظ والمعنى اللذي يعبّر عنه في بعض المواضع، ومنها، أنّ أحدَ الشعراء الذين وصفوا سيلَ دمشق، وما حلّ بالناس به، واستخدمَ لذلك الألفاظ والمعاني القويّة التي تعبّر عن أثر هذا السيل العظيم، يقول في أحد أبياته:

فَسُبْحانَ الّذي مَنْ أَبْدَى عَجائِبَ صُنعِهِ   وَأَزْعَجَ كُلَّ الخَلْقِ عِنْدَ ابْتِدارِهِ[3]

---

[1] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص 53

[2] الفاخري، **تاريخ الفاخري**.ج1. ص 436

[3] الذهبي، **تاريخ الإسلام**. ج49. ص 56

فبعدَ وصفه في أبياته للسيل، وتعجّبه في هذا البيت من قدرة الله التي وصفَها بالعجائب لقوّتها و هولها، يستخدم لفظة (أزعَجَ)، لوصف أثر هذه العجائب على الخلق، وهذه اللفظة لا تعبّر عن شدّة الحال التي قاساها الناس من هذا السيل الذي أهلكهم.

ومن الأمثلة على النصوص الركيكة التي لم تصوّر أثر الكارثة ولا وصفتها كما تستحق من قوّة وشدّة، بيت ابن الوردي في الطاعون:

حَلَبُ وَاللهِ يَكْفي شَرُّها أَرْضُ مَشَقّة[1]

في هذا البيت لم يتعرّض الشاعر إلى وصف أو تحليل أثر الطاعون على حلب، بل وصفها أنّها أرضُ مشقّة، والمشقّة قد تأتي بفعلِ أسباب كثيرة، لا أثر للطاعون الأسود التي قتل ودمّر فيه.

و استخدم بعض الأدباء في نصوصهم ألفاظاً غير عربيّة، منهم النصير الحمّامي، الذي قال في توقّف النيل عن الوفاء:

إنْ عَجَّلَ النّورُوزُ قَبْلَ الوَفَا عَجَّلَ لِلعالَمِ صَفْعَ القَفَا[2]

في هذا البيت يستخدم الشاعر لفظة (النوروز) وهو " اليوم الجديد، وهو أوّل يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية.. وهو أكبر الأعياد القومية للفرس "[3]، وهو من الألفاظ الشائعة لديهم و المناسبات المعروفة، وقدوم الربيع يعني انتهاء فصل الشتاء، وابتداء الخصوبة، التي ستعتمد على كميّة الماء التي فاضت من النيل، و سداد حاجة الأرضي الزراعية.

ومن ذلك أيضا، ما قاله الصفدي في أشعاره عن الثلوج وتواتر المطر سنة 746هـ:

ما كانَ إِمْشيرُ مِمَّنْ لا يُشيرُ بِما أَوْمَتْ إِلَيْهِ بِكَفٍّ خُضِّبَتْ وَيَدِ[4]

---

[1] ابن الوردي. **الديوان.** ص 91

[2] ابن إياس، **بدائع الزهور**.ج1.ق1. 425

[3] المعجم الوسيط، **مادة نوْرَزَ.**

[4] الصفدي، **ألحان السواجع.** ج1. 163

يستخدمُ الصفدي في البيت السابق اسم أحد الشهور القبطيّة في شعره، فهو لَم يَكُن شهرا عاديّا لا يشارُ إلى حدثٍ فيه، ويبدو أنّ الصفدي قد تأثّر بالكلمات التي يستخدمها المصريون، لا سيّما الأقباط، وذلك لإقامته في فيها.

ومن ذلك أيضا، تصوير ابن الوردي أثر الثلوج في الناس وحياتهم، إذ قال: "فأصـــبحت العروس تتجلّى بشربوش من الفضّة"[1]

تظهر عروس دمشق في هذا الشتاء مختلفةً عن عادتها في اللباس، فقد استخدم الأديـــب لفظة (شربوش) وهو نوع من الأنسجة الرقيقة، تصنع منها أشياء إن طويت لا يكاد يبـــان لهـــا حجم[2]،وهي الغطاء الذي تضعه العروس رأسها،[3] فهو متجمّدٌ كأنّه قالبٌ من الفضّة، من أثر الثلج والصقيع .

ومن استخدم الأدباء اللغة الشعبيّة في نصوصهم، وقد ظهرت جليّة لدى ابن الوردي، إذ نظم في فنٍّ فنون الأدب العاميّ التي شاعت في تلك الفترة، وهو فنٌّ (الكان كان)[4]، فيقول فـــي طاعون 749هـــ:

أعـــــــوذ بــــــــالله ربّـــــــــي	**مـــــن شـــــرِّ طـــــاعونِ النّسَـــــبْ**
بـــــــــاروده المســــــــــتعلي	**قـــــد طــــارَ فــــي الأقطــــارْ**
فتّـــــــــــاش دَهاشـــــــــــاتِهِ	**سَــــــاعي لِصــــــارخٍ مــــــارِثي**
ولا فَـــــــــــدَى بِـــــــــــذَخيره	**دولابَـــــــــــه الطّيّـــــــــــارْ**
يَـــــدخُلْ إلــــى الـــدّارِ وَيَحلِـــفُ	**مــــا يَخْـــــرُجْ إلّـــــا بِأهلهـــــا**
معـــــــي كتـــــابْ القاضـــــــي	**بِكــــلْ مَــــن فـــي الـــدّار** [5]

---

[1] ابن الوردي، **الديوان. ص** 186

[2] دهمان ، محمد ، **معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي.** ص 97

[3] وفيها تورية ، فالمعنى القريب هو العروس والبعيد هو إحدى مآذن دمشق وهو المطلوب. انظر: ابن الوردي ، الديوان . ص 186

[4] فن من فنون الأدب العامي " وله وزن واحد وقافية واحدة، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثـــاني، ولا تكون قافيته إلا مردوفة قبل حرف الروي بأحد حروف العلة، ومخترعوه البغداديون، ثمّ تداوله الناس في البلاد. وســـمي بذلك لأنه أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه غير الحكايات والخرافات فكان قائله يحكي كان وكان " ابن حجة الحموي، **بلوغ الأمل في فن الزجل.** تحقيق رضا محسن القريشي. د.ط. دمشق: منشورات وزارة الثقافـــة والارشـــاد القـــومي. 1974. ص139

[5] ابن الوردي، **الديوان.** ص 93

في الأبيات السابقة، يستخدم ابن الوردي الفنّ العاميّ؛ لسرعة وصوله لقلوب، فتســـتعيذ بالله من شرّ الطاعون، ومن أثرهِ الذي انتشر في الأقطار، فهو يطير إلى كلّ مكـــان كالبـــارود، مثيراً للدهشة والعجب،[1] وهو كالدولاب الطيّار الذي لا تنفذ ذخيرته، ويدخل إلى كـــل البيـــوت ليقتل كلّ أهلها، وكأنّ معه كتابَ أمرٍ بذلك

الأساليب

وظّف أدباء الكوارث الطبيعيّة غير أسلوبٍ للتعبير عن معانيهم وأفكارهم، وفي مقدّمتها:

- **التناص**

عُرف الأدباء في العصر المملوكيّ الأوّل بالموسوعيّة، فكانوا يمتازون باشـــتغالهم فـــي علوم متعدّدة، وقد ظهر ذلك في ترجمة عدَدٍ منهم في الفصل الأوّل و الثاني، فكان منهم العالم و الفقيه والأديب و الكاتب وغيرهم، وقد أثّرت هذه العلوم المختلفة في بناء نصوصـــهم الأدبيّـــة، فبرز التناص بجلاء فيها ،وهو مفهومٌ نقديّ غربيّ حديث، ظهر بصـــورته الأوليّـــة فـــي آراء "ميخائيل باختين" التي قدّم النصّ بصورةٍ متداخلة، أي بتدخل عناصر وعلاقات بعضها ببعض، وكأنّ هناك علاقة حواريّة بينها، فأشار في كتاباته إلى مفاهيم متعدّدة مثل "المبدأ الحـــواري" و "الصوت المتعدّد"، التي تودّ كلّها العلاقة الجدليّة داخل النص الواحد.[2]

أمّا الصورة النهائيّة لهذا المعنى، والتي عُرفت بمصطلح التناص، فقد ظهرت على يـــد جوليا كرستيفا التي عرّفت التناص بوصفه لوحةً فسيفسائيّة، وتفاعلا نصيّا داخل النص الواحد[3].

وقد تعدّدت مظاهر التناص في أدب الكوارث الطبيعيّة، ويمكن إجمالها في الآتي:

---

[1] وهذا المقصود بكلمة دهاشاته، فهي كلمة عربية بمعنى العَجب من الشيء، وهي أيضا معنى " قيسارية أو خان أو وكالة يبارغ في تحسينها حتى تصير مدهشة " .دهمان ، أحمد :**معجم الألفاظ التاريخيى في العصر المملوكي**. ص 76

[2] المختار، حسني: ***نظرية التناص***،مجلة علامات في النقد ج 3.مج9. 2000م / 243

[3] انظر آراء جوليا كرستيفا في التناص المختار، حسني: **نظرية التناص**.ص243

1. التناص الدينيّ

يُعدّ الأثر الدينيّ أبرز ما تأثّر به الأدباء في ما كتبوا، والمقصود به هنا التــأثّر بالــدين الإسلاميّ بشكلٍ خاص، ذلك أّن التناص الدينيّ يشملُ بصورة عامّة ما ورد في الديانات الثلاث وغيرها.

ويعدّ القرآن الكريم والحديث الشريف مصدرين مهمّين للتداخل النصيّ عنــد الأدبــاء، فالأديب إذ تأثّر بهما، أضفى قدسيّة، و هالةً رفيعةً تحيط بنصه، لا سيّما فــي المواضــع التــي تصف نهاية الإنسان، فأصبحت الألفاظُ والمعاني الإسلاميّة " جزءاً لا يتجزّأ من الفكــر الــدينيّ الإسلاميّ، فقد بيّن الإسلام لأتباعه أنّ الموتَ حتمٌ على بني البَشر، وأنّ الحياةَ الدنيا دار الفناء، ومعبر إلى الحياة الأخرى "[1]

وقد يأتي التناص الدينيُّ اقتباساً مباشراً، وهو " أن يضمّن المتكلّم كلامه كلمة من آية أو آية من آيات الله خاصّة "[2]، وعدّ بعضهم " المضمّن في الكلام من الحديث النبويّ اقتباسا "[3]

ومن ذلك ما أورده الشيخ النووي في رسالته إلى الظاهر بيبرس واصفا القحط في الشام، واعظا له، مذكّراً إيّاه بيوم القيامة وما ينتظره الإنسان من أهوال عليه أن يُعدَّ لها العدّة، فيكتــب مضمّاً رسالته: ﴿**يومَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ**﴾[4]

يظهر الكاتب من السابق، أنّه استعان بأربعة آياتٍ قرآنية، تعبّر عن صــورةٍ واحــدة، ودمج بعضها ببعض، ليصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهو ساعة فَرار الإنسان من أقرب الناس لقلبه و دمه، وذلك من خلال عرضه للمسؤولية الملقاة على عاتق السلطان، وألّا عُذرَ لــه ولا لمسؤوليه في التقصير بها، فهو راعٍ ومسؤول يومَ القيامة.

---

[1] عبد الرحيم ، رائد ، **فن الرثاء في العصر المملوكيّ الأول.** ط1 . عمّان : دار الرازي . 2003. ص 334

[2] ابن حجّة الحموي، **خزانة الأدب.** ج2. ص 455

[3] المصدر السابق. ج2. ص 457

[4] سورة عبس، الآيات(34- 35- 36- 37)

ومن ذلك أيضا ما أورده ابن عبد الظاهر في مقامته عن زلزلة عام 702ه، إذ بدأ رسالته بالتحدّث عن مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومن ذلك رفع السماء بدون أعمدة، فقال مقتبساً حسن تدبير الله: ﴿ **رافِعِ السَّماءِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها**﴾[1].

وفي هذه البداية عرض لبعض آيات الله، فمن العجيب للعقل البشريّ أن يتخيّل السماء بعلوّها وعظمتها دون شيء ماديّ يسندها، وهذا يقود إلى الإيمان بقدرة الله على جعلها تسقط على البشر لو أراد، لذلك فالزلزلة التي أشغلت الناس نتيجة تحرّك الكرة الأرضيّة ما هي إلّا مظهر من مظاهر قدرته في هذا الكون، لا يعادل قدرة الله على حفظِ العباد من سماءٍ لا تقع عليه بأمره.

واستعان الأدباء بأجزاء من الآيات الكريمة، التي تدعّم غرضَ الأديب، ومن ذلك ما أورده ابن الودري أيضا في وصف حال البلد التي أصابتها الزلزلة السابقة التي أطاحت بالعمران، و كأنّ شيئاً لم يكن، إذ قال: " **وهي لشدّةِ الطَمس، كأن لم تغنَ بالأمس**"[2]

ففي هذا النص، يستخدم ابن الوردي تركيباً جاهزا مُقتبساً من القرآن الكريم، وهو جزء من آية كريمة، وهو ﴿**كأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ**﴾[3]، دون أن يضعها في إشارة تنصيص، بل يستخدمها استخداما رشيقاً، ينبت من فكره دونَ تكلُّفٍ، أو رغبةٍ في إظهار اعتماده على آية أو جزءٍ من آية، كما فَعَل في مواضع كثيرة في رسالته.

ومن الاقتباسات التي استخدمها الأدباء الأحاديث النبويّة، ومنها ما ورد في كتاب من الكتب التي وصلت عن أخبار زلزلة المدينة، إذ أورد أبو شامة المقدسيّ الحديث النبوي الشريف الذي تنبّأ به بحدوث هذه النار [4]

---

[1] سورة الرعد. آية (2)

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 153

[3] سورة يونس. آية (24)

[4] انظر ص 38

ويورد بعض الأدباء أجزاءً من أحاديث نبويّة، تتعلّق بما يريدون وصفه، ومن ذلك مـــا أورده الصفدي في رسالته عن الطاعون، إذ وصف عزوف الناس عن التفكير في الدنيا، مقتدين بسنّة النبي صلي الله عليه وسلّم، الذي كان زاهداً فيها، فاستعار الصفدي قول الرسول الكـــريم " وإذا أصبحتَ فلا تحدّث نفسكَ بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تحدّث نفسكَ بالصباح " [1]

وفي اقتباس الصفدي لهذا الحديث ميزة حسنة؛ إذ إنّ الناس عمّهم الهمّ والحزن والخوف في أثناء الطاعون، فما عادوا يثقون بالحياة، وباتوا يحدّثون أنفسهم بالموت في كلّ ساعة، لذلك فقد تمثّلوا بقول الرسول الكريم الداعي إلى تركِ الدنيا، وعدم تمنين النَفس بالبقاء.

ومن أنواع التناص الديني، التناص الإشاري، الذي يعتمدُ على وجودِ ألفاظٍ قرآنيّة، تعيد المتلقي إلى الآيات الكريمة التي وردت فيها، وتقرنُ معناها بالنصّ الذي جاءت فيه.

ومن ذلك ما قاله خطيبٌ زلزلة عام 702هـ: "يومَ يفرُّ الوالدُ من الولـــد، والولـــد مـــن الوالد"[2]

ففي هذا النص، يظهر الخطيبُ متأثّراً بقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيـــهِ، وَأُمِّـــهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ،لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيه**﴾[3] لكنّه في هذه الآية لم يـــذكر هـــذا الفئات كلّها، ولم يذكر الولد والوالد باللفظ القرآنيّ المستخدم في الآية، لكنّه أشار إليها، ليصـــفَ صورةَ الناس في أثناء الزلزلة، التي يقاربها بصورتهم في فرارهم من أقرب الناس إليهم يـــوم القيامة.

ومن هذه المواضع أيضا، ما صوّره ابن الوردي في حال الأبنية في أثناء الزلزلة، فقال في وصف حالِ جدارٍ متصدّع لكنّه لم ينهَر بأكمله إلّا بعدَ شهرين، بعدما سقَط جزءٌ منه علـــى

---

[1] البخاري، **صحيح البخاري**. ج8.ص 89

[2] الدواداري، **كنز الدرر**. ج9.ص 103

[3] سورة عبس، الآيات(34-35-36-37)

أصحابه في أحد أيّام شهر رمضان المبارك: " فإن قيل كيفَ صبَرَ الجِدارُ على إمساكِ شهرين متتابعين وما اجتثَّ من أصله، قُلت هي كفّارةٌ عليه فإنّهُ وَقَعَ في نهار رمضان على أهله "[1]

وفي النص السابق، يظهر ابن الوردي متأثرا بقوله تعالى: ﴿... **فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، تَوْبَةً مِّنَ اللّهِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾[2]

في هذا النص يحسن ابن الورديّ في طرحِ تساؤله الذي حيّره حول هذا الجدار الذي أمسك شهرين متتابعين عن السقوط، فيعدُّ ذلك (كفّارةً) عليه، إذ إنَّ جزءاً منه سقَط على أهله في نهار رمضان، وفي ذلك يتمازج مع الحالة التي أنزل فيها الله تعالى الآية القرآنية الكريمة، التي تعدُّ الصوم لشهرين متتابعين، وما في ذلك من إرهاق للصائم، كفّارةً لكل مَن أفسدَ صيامه في نهار رمضان، وفعل ما يغضب الله تعالى منه.

ومن مظاهر هذا التناص استخدام أسماء سوَرٍ في القرآن الكريم وتوظّيفها في سياقٍ أدبيّ، كما فعل ابن الوردي في أثناء وصفه سيلَ بعبلك:

فالسُحُبُ والبَرْقُ يَتلو كَغاشيَةٍ مِنَ الدُّخانِ علَى آثارِها لَهَبُ[3]

يوردِ ابن الوردي في هذا البيت، أسماء سُورتين في القرآن الكريم بشكلٍ صريح، وهي سورة الغاشية و سورةُ الدُّخان والثالثة إشارة إلى الآية الأولى في سورة المَسَد، في قوله تعالى ﴿ **تبَّتْ يَدا أَبي لَهَبٍ وتَبْ** ﴾[4]، وذلك في أثناءِ وصفه لمظاهر السيل من سُحُبٍ وبَرْقٍ وضبابٍ كثيف يغشى المكان وكأنّه دخانٌ من آثارِ لهَب.

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، أبياتٌ لابن عبد الظاهر في زلزلة 702ه، إذ ذكرَ أسماءَ ثلاث سُور قرآنية هي (التكاثر)، و (القارعة)، و (العاديات)، وذلك لبيان ما فعلته الزلزلة بالناس:

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص150 – 151

[2] سورة النساء. آية(92)

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص182

[4] سورة المسد. آية (1)

لَهَوْنَـــــا بالتَكـــــاثُر أَو رُمينـــــــا بقارِعَـــةٍ تَشـــيبُ لَهـــا النَّواصـــي
وكَـــأنَّ العاديـــاتِ لَهـــا أَساســـاً فَزَلزَلَـــتِ الأَدانـــي وَالأَقاصـــي[1]

يظهر من الأبيات السابقة، كيف وظّف الشاعر أسماء ثلاث سور قرآنية، فالنـــاس قــد عاشوا برغد وهناءة أكثر عدَدهم، فما عادوا يفكّرون سوى بدنياهم، لكنّ الله تعالى أرسل إليــه زلزلةً أيقظتهم من لهوهم، وتفكيرهم بالدنيا، وكأنّ جماعة من الخيول قدمت علــيهم، وهــزّت أماكن تواجدهم من شدّة وقع أقدامها.

ومن أنواع التناص الدينيّ الموجود هو إيراد القصص القرآنية وذلك بتوظيفُ الأدبــاء قصص الأنبياء في نصوصهم الأدبيّة، عن طريق امتصاص أحداثها، واستخدامها فــي وصــف الأحداث المعاصرة لهم.

ومن القصص التي استخدمها الأدباء في نصوصهم، قصّة سيّدنا نــوح عليــه الصـــلاة والسلام، فقصّةُ نوحٍ تدور أحداثها حولَ الطوفان الذي كانَ معجزة نبيّه، ولعلّ السبب في التـــأثّر بها، أنّ من أبرز الكوارث التي كتب فيها الأدباء كانت في أثر السيول المدمّرة، التـــي قَرَنوهـــا بذلك الطوفان.

ومن ذلك ما أورده الصفدي في رسالةٍ له في وصف الثلوج والســيول، ففـــي إحـــدى رسائله، التي كتبها في تواتر الأمطار عام 736هــ، قال:

ما نَحْنُ مِنْ قَوْمِ نوحٍ كَيْ يَطــوفَ بِنـــا الطّوفانُ فَافْهَمْ لِتَعريضي عَلـــى بُعْــدِ [2]

في هذا البيت، يستحضر الصفدي قصّة سيّدنا نوح في واقعة الطوفان، إذ إنّ قومه عندما لم يومنوا بدعوته، عاقبهم الله تعالى بإرسال الطوفان عليهم، وقد استخدم الصفدي هذا الجزء من القصّة؛ كي يدلّل على عِظَم المطر في تلك السنة، وبالتالي أثره في الناس، لكنّه ينفي كونهم مثل قوم نوح عليه السلام، فهم مؤمنون بالله وربوبيّته، لكنّهم عانوا من مطرٍ أقرب للطوفان.

---

[1] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص 54

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 169

ومن ذلك ما أورده الصفدي أيضا، في رسالة له يصفُ فيها أثر شتاء قوي آخر، جعــل الناس تُثقل في ملابسها، فلا يستطيع أحدٌ الهروب من هذا البرد غير العــاديّ الــذي أدّى إلــى حدوث سيل جارف بارتداء ملابس لا قِبَل له على ارتدائها، فقال: "وأتى الزمهريرُ بجنــودٍ مــا للقويّ بها من قِبَل، وحمّل الأجسامَ من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال: سآوي إلــى جبــل، وكدَّ من السيل ما استبكى العيون إذ جرى "[1]

في نصّه هذا، يتأثّر الصفدي بحدثٍ واضحٍ من قصّة سيّدنا نوح، وهو إعراضُ ابنه عن الصعودِ معه في السفينة، وتفضيله الصعود إلى جبل، ظنّا منه أنّه سينقذه من الطوفــان، وذلــك واردٌ في الآية الكريمة: ﴿**قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ**﴾ [2].

فمن يستطيع الاستغناء عن ثيابٍ تثقل كاهله في هذا الشتاء القارس، فهو كالذي يلجأ إلى الجبل من طوفان جارف.

ثمَّ يستخدم الصفدي الحدث نفسه في وصف موقفٍ حقيقيّ، وهو لجوء الناس إلى الجبل ليعتصموا من أثر السيل بالفعل. فيقول: " أمّا نحنُ، فبينَ أمواجٍ من السُحُب تزدحم، وفــي رأس جبلٍ لا يُعصمُ فيه من الماءِ إلّا مَن رُحم "[3]

في هذا النص، يستثني الصفدي الذين رحمهم الله تعالى بدعائهم، من الناس الذين لجؤوا إلى الجبل طلبا للنجاة من هلاك محقّق، وفي ذلك إشارة إلى عِظم هذا السيل وشدّته، الذي لم يعد للناس ملجأٌ في الدنيا منه إلّا لله تعالى، فيكمل بذلك تأثّره بالآية الكريمة نفسها، إذ يقول الله تعالى فيه ﴿**قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ**﴾[4]

ومن القصص التي تأثّر بها الأدباء أيضا، قصّة سيدنا يونس عليه السلام، فما ميّز هــذه القصّة، أنّ قوم يونس هو الوحيدون من بين الأمم الذين كشف الله تعالى عنهم العذاب في الدنيا

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 149

[2] سورة هود. آية(43)

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص 149

[4] سورة هود. آية(43)

ولم يعذّبهم بقدرته، كما فعلَ مع باقي الأمم. يقول أحد الشعراء في بركان المدينة، في مَعــرِض لجوئه إلى الله تعالى، وطلبه مغفرته:

فَقَومُ يُــونُسَ لَمّــا آمَنــوا كُشِــفَ ال   العَذابُ عَــنْهُمُ وَعَــمَّ القَــومَ نَعْمــاءُ[1]

في هذا البيت، تأثّر الشاعر بمنّة الله على قوم يونس عليه السلام إذ رأف بهم، واستجاب لدعائهم، وذلك جليٌّ في سورة يونس، إذ قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**﴾ [2]

فقد وقف الشاعرُ موقف المستغيث الذي يطمعُ في كَرَم الله وعفوه، فيرجو أن يرفَــع الله عن المسلمين عذابهم من هذا البركان العظيم، بدعائه واستجارته.

وفي مواضع أخرى، يتأثّر الصفدي بقصّة سيّدنا موسى عليه السلام، في معجزته مــع السحرة، إذ تحوّلت عصاه إلى ثعبان لقَفَ ثعابينَ السَحَرة المسحورة، إذ قــال: " وجــاء البحــرُ فتلقّفَ ثعبانه ما ألقتهُ هَرَوات البروق من عصيّ و خيوط السحب من حبال " [3]

ففي هذا النص، يصوّر الصفدي البحر الذي ماجَ و هاجَ من تأثير الريح القويّة والســيل العنيف، فغلبَ بذلك البروق المرعبة التي شبّهها بالعصيّ المؤلمة، والسحب الكثيفة التي شــبّهها بالحبال القويّة، ويبدو في ذلك متأثرا بقوله تعالى من قصّة موسى عليه السلام: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَــى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ**﴾[4].وفي آية مشابهة أيضا، إذا قــال تعــالى: ﴿**فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ**﴾ [5]

---

[1] أبو شامة، **الذيل على الروضتين**. .ص 193

[2] سورة يونس. آية(98)

[3] الصفدي، **أعيان العصر**، ج1. ص 149

[4] سورة الأعراف. آية(117)

[5] سورة الشعراء. آية(45)

2. التناص الأدبي

تأثّر الشعراء والكتّاب على مرّ العصور بعضهم ببعض، فكانوا يضمّنون أدبهم شيئاً من نصوص غيرهم بطرقٍ متعدّدة، ما لفتَ نظر النّقاد إلى هذه الظاهرة وأطلقوا عليها مصــطلحاتٍ كثيرة.

ومن الأدباء من ضمّن نصّه قطعةً كاملة من نصٍّ لأديبٍ آخر، دون إضافة أو تغيير، وقــد وردت هذه الظاهرة في أدب الكوارث الطبيعية بشكلٍ لافت في الرسائل المتبادلة بين الصــفدي وبعض الأدباء، لا سيّما النصوص الشعرية. وهذا ما يُعرف بالتضمين.

ومن ذلك أنّ الصفدي وفي رسالته التي تحدّث فيها عن طاعون عام 749ه، يعتذر لبهاء الدين السبكي عن عدم قدرته على التنقّل بسبب الطاعون، فاستخدم بيت المتنبي:

مــا كُــلُّ مــا يَتمنّــى المَــرْءُ يُدركُــهُ تَجري الرِّياحُ بِما لا تَشْــتَهي السُــفُنُ[1]

فعلى الرغم من إيراد السبكي العديد من أبيات الشعر التي جرت على لسانه في رســائل متعدّدة له، إلّا أنّه ضمّن البيت السابق الذي يعرضُ فيه المتنبي حكمته في الحياة، فالإنســان لا يحصل على كلّ ما يريده ويطمح للحصول عليه من الحياة، وكذلك حال النــاس خــلال فتــرة الطاعون ، فالمرض كالريح التي منعت السفينة من إكمال سفرها .

ويستعير القاضي بدر الدين الغزّي في ثلوج 752ه بدمشق ، بيتاً لابن المعتز، فيقول:

يَــــومٌ كَــــأَنَّ سَــــماءَهُ حُجِبَــــتْ بِأَجْنِحَــــةِ الفَواخِــــتِ[2]

فالقاضي يرى أنّ سماء مدينته سوداءُ، فلونُها الطبيعيّ لا يكاد يظهر، لذا فهو لا يجد بيتاً يعبّر عن هذه الصورة أكثر من بيت ابن المعتز،الذي نَظَمه في المطر.

---

[1] المتنبي: **الديوان**، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2008.ص 360.الصــفدي، **ألحان السواجع**، ج1.ص 110

[2] الثعالبي، أبو المنصور عبد الملك بن إسماعيل: **من غاب عنه المطر**. تحقيق يونس أحمد السامرائي. ط1. بيروت: عالم الكتب. 1994. ص130. الصفدي، **ألحان السواجع**.ج2.ص 26

و قد يكون التناص في تضمينِ نصف أو ربع بيت، بما يسمّى الإيداع [1]، ففـــي رســـالةٍ للصفدي عن المطر والسيل، يختارُ الصفدي أن يضمّنَ رسالته صدرَ بيتٍ لابن هانئ الأندلسيّ، وهو:

أَلُؤلؤٌ دَمْـــعُ هَــذا الغَيْــثِ أَمْ نُقَــطُ ؟[2]

في هذا البيت يمدح ابن هانئ الخليفة المعزّ لدين الله الذي انتصر على تطاول بني أُميّة عليه[3]، فيتغنّى الشاعر في مقدّمته التي جاءت في وصف الطبيعة كعادة معظم الشعراء الأندلسيين بانتصار الخليفة، فذكرَ فيها العديد من المظاهر الطبيعيّة التي تَشي بقوّة الطبيعة وسَخَطها رابطا بينها وبين صفات الخليفة، وهو المعنى نفسه الذي أرادَ الصفدي عكسه؛لما فيه الطبيعة وقتئذٍ من قوّة لا هناءَ في العيش معها.

ومن أنواع التناص الأدبيّ، نثر المنظوم، إذ عمد الأديب إلى تضمين نصّه النثري بيتـــا أو أكثر، من خلال نثر بعض كلماته التي تدلّ عليه، وتغني نصّه الجديد في الوقت نفسه، لكـــنّ هذا النوع من التناص لَم يكن شائعا بشكل كبير، بل ظهر في مواضع محدّدة فـــي هـــذا الأدب، منها ما كتبه ابن فضل العمري في إحدى رسائله للصفدي عن الثلوج والسيول في الشام، فيقول في البرد الشديد والثلج الغزير:

"وقد حبّر المملوك بيض الصحائف، بسواد هذا الخبر"[4]

يظهر ابن فضل، متأسّفا على حال الشام من خلال استيائه من نقله هذا خبـــر ســـيولها وأمطارها، إذ إنّ رسائله الإخوانية التي يكتبها مُظهراً مشاعره فيها وبراعته في الكتابة، قد بدَت غير مستحبّة بالأخبار السيّئة التي تَردُ فيها، فهي بذلك تحمل أخباراً تصبغها بطابع السوء، متأثّراً ببيت أبي تمام الشهير:

---

[1] انظر: ابن حجّة، **خزانة الأدب**.ج2.ص312

[2] وعَجُزُ البيت (ماكانَ أحسَنَهُ لو كان يُلتَقَطُ) الأندلسي، ابن هائى: **ديوان ابن هانئ**. اعتنى به وحقّقه حَمْدو أحمد طمّـــاس، ط1. لبنان: دار المعرفة، 2005. ص 174. الصفدي، **ألحان السواجع**.ج2. ص 27

[3] ابن هانئ الأندلسي، **الديوان**. ص 174

[4] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 166

بـــيضُ الصَّــفائِحِ لا ســـودُ الصَّــحائِفِ   في مُتـــونِهِنَّ جَــلاءُ الشّــكِّ وَالرِّيَـــبِ[1]

ومن الأدباء الذين استخدموا هذا الأسلوب أيضا الصفدي، ومن الأمثلة على ذلـــك مـــا أورده في ردّه على رسالة ابن فضل، مبيّناً فيها حسنَ أبياته وإن حملت الأخبار السيّئة، فيقـــول فيها: " وعيونُ محاسنها تسهر لها العيونُ وهي ملءُ جفونها هاجعة "[2]

يظهر الصفدي في السابق متأثراً ببيت المتنبي:

أَنـــامُ مِـــلءَ جُفُـــوني عَـــن شَـــوارِدِها   وَيَســـهَرُ الخَلـــقُ جَرّاهـــا وَيَختَصِـــمُ[3]

فكما هي أبيات المتنبي تشغل قارئها بها لبلاغتها وحسنها، وكذلك الأبيات التي قالها ابن فضل في نهاية رسالته، أشغلت الصفدي ببراعة صاحبها وبلاغته، بغضّ النظر عـــن محتـــوى الرسالة التي جاءت فيها.

وبرزت المعارضات في أدب الكوارث الطبيعيّة، فقد عارض ابن قزل في قصيدته عن بركان المدينة، معلّقة امرئ القيس.

ولم تكن معارضة ابن قزل لمعلّقة امرئ القيس معارضة صريحة؛ وهـــي " أن توافـــق القصيدة المتأخرة القصيدة المتقدمة في وزنها وقافيتها، وأن يكون الغـــرض منهمـــا واحـــدا أو متماثلاً، بحيث تكونُ القصيدة المتأخرة صدىً واضحاً للقصيدة القديمـــة بـــدافع الإعجـــاب "[4]، فالظَرف الذي كان ابن قزل يعايشه في أثناء ذلك البركان العظيم، لم يكن ليتوافق مع رغبته في المعارضة لأجل المعارضة؛ إعجاباً بمعلّقة امرئ القيس التي ذاع سيطها عبر الأزمـــان، فـــابن قزل وافق امرئ القيس في شكل قصيدته، أي في وزنها وقافيها لكنّه لم يوافقها فـــي غرضـــها، فكانت معارضته معارضة ضمنية، وهي ما " فقدت فيها القصيدة المتأخرة أحد عناصر الشـــكل

---

[1] الطائي، حبيب بن أوس: **ديوان أبي تمام**، تحقيق محمد عزام، القاهرة: دار المعارف، 1994.ج1.ص 40

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 167

[3] المتنبي، **الديوان**. ص 257

[4] السماعيل، عبد الرحمن إسماعيل: **المعارضات الشعريّة دراسة تاريخية نقدية**. جدّة: النادي الأدبي الثقافي. ط1. 1994. ص 19

الخارجي للقصيدة القديمة، واتفقت معها بالغرض، أو العكس، ويقصد بذلك أن تتفق القصـيدتان المتأخرة والمتقدمة في عناصر الشكل الخارجيّ، ويختلفان في الموضوع العام "[1]

وفي هذا الشأن، تعدُّ بعض المعارضات التي تختلف في غرضها، شـكلا مـن أشـكال الإبداع، فالشاعر لا يبدو مقلّدا لا يضع بصمته في قصيدته، بل يُدخل عددا من المتغيّرات فـي الموضوع، وفي الشكل الخارجي أيضا، فبعض الشعراء " ينحونَ وجهةً مختلفةً في التنصـيص، تقومُ على " اختطاف" الجُملِ و تحويرها، بل على قلب معانيها قلباً يبدّلها في صورةٍ نقضيةٍ لها"[2]

فابن قزل بدأ قصيدته ببيت يمدحُ فيه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فقال:

أَلَا سَـلّما عَنِّـي عَلَـى خَيْـرِ مُرْسَـلٍ وَمَنْ فَضْلُهُ كَالسَّيْلِ يَـنْحَطُّ مِـنْ عَـلِ[3]

وقد بدا فيه متأثّرا ببيت امرئ القيس:

مِكَـرٍّ مِفَـرٍّ مُقْبِـلٍ مُـدبرٍ معـاً كَجُلمودِ صخرٍ حَطّهُ السيلُ مـن عـلِ[4]

في البيتين السابقين، يتأثر ابن قزل في مطلع قصيدته ببيت متأخر لامرئ القيس، فلـم يتوافق المطلعان مع بعضهما؛ فالشاعر هنا اختار ما يتوافق مع غرضه وإحساسه، ولـم يـأتِ ببيت يشابه مطلع معلقة امرئ القيس.

إذ صوّر الشاعر فضلَ سيّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم على النـاس عنـد حـاجتهم، بالسيل السريع العظيم عندما ينزلُ من مكانٍ مرتفعٍ إلى مكان منخفض، وقَرَنه بصـورة امـرئ القيس الذي شبّه سرعة فرسه بالحجرِ الضخم، عندما يهبطُ من مكانٍ مرتفعٍ إلى مكانٍ منخفض.

---

[1] المرجع السابق. ص 19، 20

[2] داغر، شربل: ***التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيـره***، مجلّة فصول. القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب. مج12. 1997 / 140

[3] ابن قزل، **الديوان**. ص336

[4] امرؤ القيس، **ديوان امرئ القـيس**. اعتنى به وشـرحه عبـد الـرحمن المصـطاوي، ط3، دار المعرفـة، بيـروت، لبنان،2000م. ص54

ويبدو الشاعر في مطلع قصيدته متأثراً بالبحر والروي للمعلّقة، فكلاهما استخدم قافية اللام، الذي يتميّز بأنه حرف ذلقٌ مطواع، يستطيع الشاعرُ من خلاله أن يأتي بالكلمات التي يريدها، في مواضيعَ مختلفة، فكلا الشاعرين جاءَا بكلماتٍ تحتاجُ لسلاسةٍ وبساطة وأخرى تحتاج إلى قوّة وفخامة. ونظم الشاعران قصيدتهما على بحر الطويل، وهذا البحر يتميّز بقدرته على التعبير عن المواضيع التي تحتاجُ إلى نَفَسٍ طويل من الشاعر، لذا لجأ إليها كثير من الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحتاجون للتعبير عن مكنوناتهم والإفصاح عن أغراضهم في قصائد طويلة، فالمعلّقات نظمت على عدّة بحور من بينها الطويل [1]، وكذلك ابن قزل الذي عارض معلّقة امرئ القيس، وأراد الإفصاح من خلالها عن شوقه للنبيّ الكريم ومَدحه، فاستخدم بذلك أحد البحور الثلاث التي يستخدمها الشعراء في غرض المديح [2]، ثمّ عبّر فيها عن أثرِ بركان مدينة الرسول على الناس وعليه، وجاء مُدلّلا على ذلك، ما أجاب به الخليل بن أحمد الفراهيديّ عندما سُئل عن سبب تسمية بحر الطويل بهذا الاسم فأجاب: " لأنّه طال بتمام أجزائه " [3].

وبعد المطلع تأتي مقدّمة ابن قزل المدحيّة:

وَأَشْـرَفِ مَـنْ شُـدَّتْ إِلَيْـهِ رِحالُنـا	**لِتـوردَ هـيَمَ الشَّـوْقِ أَعْـذَبَ مَنْهَـلِ**
تَحَمَّلْـنَ مِنّـا كُـلَّ أَشْـعَثَ أَغْبَـرٍ	**فَيـا عَجَبـا مِـنْ رَحْلِهـا المُتَحَمِّـلِ!**
إِلى سَيِّدِ النّاسِ جـاءَتْ بِعـالي مَحَلِّـهِ	**وَمُعْجِـزِهِ آيُ الكِتـابِ المُنَـزَّلِ**
نَبِـيٌّ هَـدانا لِلْهُـدى بِأَدِلَّـةٍ	**فَهِمْنـا مَعانيهـا بِحُسْـنِ التَـأَوُّلِ**
مُحَمَّـدٌ المَبْعـوثُ، وَالغَـيُّ مُظْلِـمٌ	**فَأَصْبَحَ وَجْهُ الرُّشْـدِ مِثْـلَ السَّـنجَنْجَلِ**
وَقـولا لَـهُ: إِنّـي إِلَيْـكَ لَشَـيِّقٌ	**عَسَى اللهُ يُدني مِـنْ مَحَلِّـكَ مَحْمَلـي** [4]

في هذه المقدّمة، يمدح ابن قزل الرسول الكريم، فيطلب من صديقيه المتخيّلين أن يسلّما له على النبيّ صلى الله عليه وسلم في مدينته، وهو بذلك يشابه عادة الشعراء القدماء في تخيّل خليلين يحاورهما، وقد بدا ذلك في مطلع المعلّقة (قِفا) ومطلع قصيدة ابن قزل (سلّما)، ويذكر

---

[1] أنيس، إبراهيم: **موسيقى الشعر**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.1978. ص 177

[2] المرجع السابق. ص 178

[3] القيرواني، **العمدة**.ج1.ص143

[4] ابن قزل، **الديوان**. ص336

الشاعر معجزة النبي الكريم بالقرآن العظيم الذي جاء هدىً للناس، ويذكر شوقه وحنينه للقائـــه، وتأتي كلّ الأبيات السابقة على الروي نفسه دون اختلال فيه.

على أنّ مقدّمة المعلّقة كانت غزليّة كما هو معروف، وبـــذا تختلـــف المقـــدّمتان عـــن بعضهما، وتأتي مقدّمة ابن قزل معبّرةً عن غرض القصيدة، لذا فمدحُ النبيّ عليه السلام يتوافق مع مضمونها، كما هو الغزل متوافق مع عادة الشعراء الجاهليين.

وتوافقَ الجزء الأخير من قصيدة ابن قزل، مع مقدمة امرئ القيس، من حيث بثّ الشوق الحنين، ففي أبيات قصيدة ابن قزل، يعود الشاعر ليبثّ حنينه وشوقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلّم، ورغبته في الوصول إلى المدينة المنوّرة التي فيها أثرُ النبيّ الكريم، فيبدأ بما انتهى بـــه، ويبدو الشاعر معارضا قصيدة امرئ القيس معارضة لفظيّة أيضا، إذ استعارَ عددا من ألفاظـــه التي استخدمها للتعبير عن حنينه وشوقه لمحبوبته، وللمكان الذي كانت فيه، فيقول:

قِفـــا نَبْـــكِ ذِكْراهـــا فَـــإنّ الـــذي بِهـــا أَجَـــلُّ حَبيـــبٍ وَهِـــيَ أَشْـــرَفُ مَنْـــزِلِ

دَخَلْـــتُ إِلَيْهـــا مُحْرِمَـــا وَ مُلَبِّيـــاً أَضْرَبْتُ عَنْ سِـــقطِ الـــدَّخولِ فَحَوْمَـــلِ

مَواقِـــفَ أَمّـــا تُربُهـــا فَهِـــيَ عنبـــرٌ وَأَمّـــا كَلاهـــا فَهـــوَ نَبْـــتُ القُرُنْفُـــلِ

يَفـــوحُ شَـــذاها ثُـــمَّ يَعْقُـــبُ نَشْـــرَها لِمَا راوَحَتْهـــا مِـــنْ جَنـــوبٍ وَ شَـــمْألِ[1]

ويبدو في هذه الأبيات معارضا لأبيات امرئ القيس التي يقول فيها:

قِفا نَبْكِ مِـــن ذِكـــرَى حَبيـــبٍ، وَمَنْـــزِلِ بِسِقطِ اللِّوى بَـــينَ الـــدَّخولِ، فَحَومَـــلِ

إذا قامَتـــا تَضَـــوَّعَ المِسْـــكَ مِنهمـــا نَسـيمَ الصَّـــبا جـــاءَت برِيّـــا القرنفـــلِ

فَتوضَحَ فالمِقراةِ لَـــمْ يَعْـــفُ رَسْـــمُها لِما نَسَـــجَتْها مِـــن جَنـــوبٍ وَ شَـــمْأَلِ[2]

فابن قزل يطلب إلى الراحِلَيْن المتخيَّلين إلى المدينة المنوّرة أن يقفا لبكائها، وهو الطلبُ نفسه الذي يطلبه امرؤ القيس من صديقيه المتخيّلين في رحلته عندما فاجأته الأطلال. لكنّ حبيب ابن قزل يختلفُ عن حبيب امرئ القيس– وشتّان بينهما – فابن قزل يبكي الرسول الكريم صلي

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص338 – 339

[2] امرؤ القيس، **الديوان**. ص 21 – 25 – 22

الله عليه وسلم، الذي كان سكن في المدينة المنوّرة و دُفِنَ فيها، أمّا حبيبة امرئ القيس، فهي ابنة عمّه فاطمة أو عنيزة، التي نَأت عنه في موقعة دارة جُلجُل، وهي الدافعُ الرئيس لنظم الشاعر هذه المعلّقة، كما أشار بعضهم [1]، إضافة لكون الوقوف على الأطلال عادة الشعراء الجاهليين في النظم.

وبعد ذلك يركّز ابن قزل على المكان، إذ وصفُ دخوله إلى المدينة المنوّرة مُحرماً، ملبّيا دعوة الله إليها، مبعداً فِكرَه عن الذهاب لمواضِع أخرى، كالدخول وحَومل، وهما اسما موضعين في نجد. ونَجِدُ الصورةَ المعاكسة في بيتِ امرئ القيس الذي يطلب اقتفاء أثر الحبيب في هذين الموضعين.

وفي بيت ابن قزل الثالث، يقرن الشاعر بين صورتين، ففي معرض حديثه عن فضل المدينة يصوّرُ رائحة ترابها بالعنبر ورائحة كلاها برائحة نبات القرنفل، أمّا امرؤ القيس فاستخدم رائحة القرنفلِ الجميلة لوصف حبيبته أم رباب وأم الحويرث عندما تقومان.[2] وفي كلا الصورتين يركّز الشاعر على أثر الرائحة الجميلة لما أرادَ إبراز حبّه لَه.

وفي البيتِ الرابع، يكمل ابن قزل حديثه عن تأثير رائحة القرنفل التي تفوح من مدينة الرسول الكريم، فتنتشر مهما تغيّر اتجاه الريح، دون أن يذهب أثرها، وذلك تعبيراً منه عن فضل المدينة. أما امرؤ القيس فإنّه يركزٌ في بيته الأخير عن أثر الرَسْم، وهو " ما لَصَقَ بالأرض من آثار الدار مثل البعر والرماد وغيرها " [3]، من أنّه لم يتغيّر شكله مهما تغيّرت الريح عليه

وتظهر في القصيدة معارضات لفظيّة أخرى، يستعير الشاعر من خلالها عبارات لامرئ القيس، يعبّر فيها عن مشاعره، لتأثّره بما رآه من نتائج البركان على الناس، وصورةِ النار المرعبة فيقول:

---

[1] انظر: الس امرؤ القيس، **الديوان**. ص 14

[2] انظر:المصدر السابق. ص25

[3]. المصدر السابق. ص 2 2

جَزَعْتُ فَقَامَ النّاسُ حَولي وَأَقْبَلُوا   يَقولونَ: لا تَهلِكْ أَسَىً وَتَجَمّلِ[1]

في هذا البيت، يظهر ابن قزل متمازجاً مع بيت امرئ القيس:

وقوفاً بها صَحبي عليَّ مَطيّهم   يَقولون: لا تَهْلِكْ أَسَىً وَ تَجَمّلِ[2]

ففي بيت ابن قزل، يظهر الشاعر جَزِعا ممّا يراه من أهوالٍ سبّبتها النار في المدينة المنوّرة، جعلت الناس يطلبونَ إليه أن يتحلّى بالصبر كي لا يهلك من البؤس و الحزن. وكذا الأمر مع امرئ القيس، الذي يظهرُ حزيناً بائساً ، الذي يصوّر فيه وقوفَه على أطلال المحبوبة التي عفَت، ما حدا بصاحبيه المتخيّلين أن يطلبا إليه الطلب نفسه، وهو التحلّي بالصبر. فيمازجُ ابن قزل في هذا البيت حالةً بحالة.

يظهر ممّا سبق، أنّ معظم أبيات ابن قزل، تأثرت بمعلّقة امرئ القيس، جاءت لفظيّة في المقام الأول، فالشاعر يستعير بعض الكلمات أو العبارات ليعبّر عن مشاعر أو أحداث احتاج فيها إلى كلمات وتعابير قويّة، استعارها من حامل لواء شعراء الجاهلية، ليفصح عن مكوناته، فكلٌّ عبّر عمّا يشغله من ألم الفرقة، و طَلَبُ الصّبر على المحنة.

وبرزت بضعُ أبيات، جاءت فيها المعارضة بالصورة دون تأثّر باللفظ، ومنها قول ابن قزل:

وَهَبّتْ سَمومٌ كَالحَميمِ فَأَذبَلَتْ   مِنَ الباسِقاتِ الشُّمِ كُلَّ مُذَلَّلِ
وَأَبْدَتْ مِنَ الآياتِ كُلَّ عَجيبَةٍ   وَزَلزَلَتِ الأَرضونَ أَيَّ تَزَلْزُلِ[3]

ويظهر الشاعر في هذه البيتين معارضا لبيت امرئ القيس:

وَتَيْماءَ لَمْ يَتْرُكْ بِها جِذْعَ نَخْلَةٍ   وَلا أُطُما إِلّا مَشيداً بِجَنْدَلِ[4]

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص336

[2] امرؤ القيس، **الديوان**. ص 24

[3] ابن قزل، **الديوان**. ص338

[4] امرؤ القيس، **الديوان**. ص 66

في بيت أنّ قزل، يصوّر الشاعر كيف جاءت أثر كارثة البركان في الأشـجار العاليـة فطالتها في عليائها حتّى ذبُلت بفعلِ ريح البركان شديدة الحرارة، وأنّ هذا البركان قد أحدث هزّة في الأرض شملت كلّ ما عليها، وكذا سيلُ امرئ القيس، فقد طال أشجار النخيل العالية، وكل ما على قرية تيما من الأبنية والعمائر العالية.

وتأثّر الأدباء أيضا بأسماءِ كتبٍ أدبيّة معروفة، فاستدعوها في نصوصهم للتعبيـر عـن مضامينهم، ومن ذلك استدعاءُ ابن الودري لكتاب كليلة ودمنة، في وصفِ حال مدينة منبج فـي أثناء زلزلة 744هـ، يقول فيها: "أصبحت دمنةً وكانت الألسنُ عن وصفها كليلة " [1]

في هذه العبارة، يصف ابن الوردي حال منبج بأنّها أصبحت أثراً لا حياةَ فيهـا، حتّـى غَدَت الألسن متعبة وعاجزة عن وصفها،واستخدم للتعبير عن ذلك لفظتي **(كليلة و دمنة)** ما زاد وصفَه جمالاً وقوّة.

ومن مظاهر التناص الأدبيّ في أدب الكوارث الطبيعيّة، استحضار الأمثـال الشـعبيّة، وتوظيفها في خدمة المعاني التي يعبّر عنها الشاعر،ومن ذلك قول ابن الـوردي فـي وصـف طاعون حلب على لسان الطاعون نفسه الذي لم يدخل بعض المناطق كمدينتي شيزر و حـارم، وذلك في معرض نقد الكاتب لأهل تلك المناطق، إذ إنّهما من المناطق التي لم يـدخلها الوبـاء، فهما بنظره رديّتان بسكانهما، يقول: " فالأمكنة الرديّة تصحُّ في الأزمنةِ الوبيّة " [2]

فيختارُ ابن الورديِّ هذا المثل ليعبِّر رأيه بالمناطق التي لم يصلها الطـاعون، إذ تعـدُّ الأمثال طريقة قريبة للقارئ والسامع في توصيل الفكرة التي نريدها.

---

[1] ابن الوردي، **الديوان.** ص 153

[2] المصدر السابق. ص 90. رائد ، عبد الرحيم، **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الـوردي ت(749 ه) دراسـة نقدية**.ص 1513

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما ضمّنه ابن عبد الظاهر مقامته عن زلزلة 702ه، يقول في وَقْعِ الزلزلةِ على المدن: " وأخذها أخذَ عزيز مقتدر وأتتها من مأمنها، وكم أتى من مأمنه الحَذِر " [1]

يورد الكاتب المثل (من مأمنه يؤتى الحَذِر)[2]، للتدليل على اجتياح الزلزلة لمدنٍ ومواقع عدّة، حتّى المعروف منه بالحصانة.

- استخدام مصطلحات العلوم

استخدمُ بعض الأدباء مصطلحاتٍ بعض العلوم التي اهتمَّ بها الدارسون والباحثون، ووضعوا لها أسساً ومعايير ونظريات، وهو أمرٌ شاعَ في نصوص أدباء هذا العصر.

ومن المصطلحات العلمية ما يتعلّق بعلم اللغة والنحو، فاستخدم ابن الوردي بعض مصطلحاته ليصفَ أثر سيلِ بعلبك الناتج عن الشتاءِ الصاخب بكلِّ ظواهره في أبياتٍ له في هذا المضمون:

سَيْلٌ طَغَى في بَعَلْبَكَّ وَ راعِدٌ وَلَهيبُ نارٍ ثارَ لَلتَّعْذيبِ
فَلَئِنْ تَرَكَّبَ ثُمَّ مازَجَ سورَها فَلِبَعَلبكَّ المَزْجُ في التَّرْكيبِ[3]

ففي البيتين السابقين، يستخدم الشاعر أسلوب التركيب المزجيّ، وهو واضحٌ في اسم (بعلبك)، فيسخدم المصطلحات الخاصّة بهذه الظاهرة (المزج والتركيب)،[4] وذلك تماشياً مع المضمون الذي قدّمه، فسيل بعلبك كانَ صاحبَ برودةٍ من أثر المطر والثلج، وصاحب حرارةٍ مجازيّة من جرّاء ما فعله بالناس، فبعلبك كان اسماً على مسمّى، مِن حيثُ مَزجه لشيئين، وتركيبهما كأنّهما شيءٌ واحد.

---

[1] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص 53

[2] الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري: **مجمع الأمثال**.حققه محمد محيي الدين عبد الحميد. ط2.بيروت: دار المعرفة. 1959. ج2 . ص 310

[3] ابن الوردي، **الديوان**. **ص**. 484

[4] هناء سبيناتي، **صورة المجتمع في الشعر المملوكي**. ص 50

وأورد الأدباءُ مصطلحاتِ النحو، ومن ذلك ما أبدَع ابن الوردي فيه، في أثناء تصوير ما فعلته زلزلة 744هـ بحلب، يقول في ما حلّ بجامعها: "وتعلّمت منارته باب الإمالةِ و تحريكَ الساكن، فلولا بركة النداء لرُخّمَت، ولكنّ الله سلّم جمعَها فسلمت، انتفَعَ تأنيثها بشرف التذكير، وسلِمَ جمعُها الصحبح من التكسير "[1]

يورد ابن الوردي فيما سبق ،عشر مصطلحاتٍ نحوية، وهي:باب الإمالة، تحريك الساكن، النداء، الترخيم، التأنيث، التذكير، سلِمَ جمعها (الجمع السالم)، الصحيح، التكسير. ثمّ يوظّف هذه المصطلحات ليعكس مضموناً يصوّرُ ميلان منارة المسجد، وانزياح أحجاره وأثاثه وما هو ساكن من مكانه، و رحمة الله في أنّ المجتمعين تحتَ المنارة سلِموا ولم يُصبهم أذىً، فانتفعت بذكرِ الله تعالى فيها، وسلمت صحيحةً من غير تكسير. وفي بعض الأحيان ينساق الأدباء في توظيف المصطلحات العلمية في غير موضعٍ في النص الأدبي الواحد أو في عدّة نصوصٍ بشكلٍ مبالغٍ فيه، " فمن العلماء طائفةٌ استغرق حبّ النحو والبلاغة قبلها، وملأ فكرها فأدّاها إلى التقعّر في الألفاظ، ولازمة حوشيّ اللغة، بحيث خاطب من لا يفهمه "[2]

ويكثر ابن الوردي على سبيل المثال من هذا النوع من المصطلحات النحوية فيوردُ في أثرِ الزلزلةِ أيضا ما كان على البيوت: " وجاورتُ دوراً مرفوعةً فخفضتها على الجوار "[3].

فيوظّفُ مصطلحاتٍ كالرفع والخفضِ على الجوار، ليعكسَ أَثَر الزلزلة المرعبة التي كانت تهدمُ البيوت وما يجاورها، فتحدثُ فراغا جغرافيّا في المنطقة المنكوبة.

واستخدم الأدباء أيضا مصطلحاتٍ في علم البلاغة، جعلوها ضمن نصوصهم، و من ذلك ما أورده أحد الشعراء في بيتٍ شعريّ يصف زلزلة 702هـ:

مجازٌ حقيقتُها فاعبروا   ولا تعمُروها هَوِّنوها تَهُن [4]

---

[1] ابن الوردي ، **الديوان** . ص 151 . انظر أيضا : سبيناتي، **صورة المجتمع في الشعر المملوكي**. ص 151.

[2] السبكي، **معيد النعم ومبيد النقم**. ص 76. انظر أيضا: رائدعبد الرحيم، **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي ت (749هـ) دراسة نقدية**. ص 1514

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 152

[4] الصفدي، **أعيان العصر**، ج4. 376

فالشاعر هنا يستخدم مصطلحين بلاغيين هما: المجاز و الحقيقة، فوصف الكارثة بالمجاز رغم حقيقتها في دعوةٍ منه للتهوين من أثرها على الناس رغم فداحته.

ويستخدمَ ابن الوردي في رسالته في الزلزلة نفسها، مصطلحاتٍ في النّقد شاعت في العصر المملوكيّ، وهي الطرد والعكس، و هو قراءة النصّ الأدبي على وجوهٍ مختلفة، وقد برع في ذلك أدباء العصرين الأيوبي و المملوكي.[1]

يقول: " و نعوذُ بالله من بلاءٍ بلا أجر، وما حالَ من مني بالعكسِ والطرد "[2]

وأورد الأدباءُ أيضا مصطلحات تتعلّقُ بالجانب الإملائي، فمثلا يستخدم الصفدي علامات الترقيم، مثل : النقط والخط، حين يستعيذ بالله من شرِّ المطر والسيل، فيقول: "والاستعانةُ بالله على هذه الشرورِ التي اتّصلَت نُقَطُ خطّها ".[3]

فالصفدي هنا يوردُ صورةً لأثر الكارثة وكأنها مجموعة من الشرور التي تجمّعت على شكلِ نقاطٍ، واتّصلت ببعضها لتكوِّنَ خطّاً فادحَ الأثر، ولا غرابة في استخدام الصفدي لهذين المصطلحين، فهو كاتب وأديب، فهو خير من يستخدم علامات الترقيم، متأثِّراً بها في مضمون كتابته.

ويستخدمُ الأدباء أيضا مصطلحاتٍ مذهبيّة، ومن ذلك ما أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون، يقول: " وشَعَثَ على السنّةِ والشعية، وسنَّ للسنّةِ أسنَتهُ شُرَّعاً، وشيَّع في بلادِ الشيعةِ مصرعاً "[4]

يصوّر ابن الوردي انتشار الطاعون في بلادٍ مختلفة من العالم، واختار أن يُصنِّف هذه البلاد على مذهبين، سُنّة وشيعة، فها هو يسنُّ رمحه في بلاد السنّة، وينشرُ موتهُ مشَيعاً صرعاه.

---

[1] انظر: ابن حجّة، **خزانة الأدب**.ج2.ص 36

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 150

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2.ص 29

[4] ابن الوردي، **الديوان**. ص 89 . انظر : عبد الرحيم، رائد ، **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي ت(749 ه) دراسة نقدية**. ص 1515

- **التكرار**

من الأساليب التي استخدمها الأدباء في أدب الكوارث الطبيعيّة التكــرار، ويُــراد منــه تكرار المتكلّم " تأكيد الوصف أو المدح أو الذمّ أو التهويل، أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ، أو الاستبعاد.. " [1]، وللتكرار أنواعٌ مختلفة ظهرت في هذا الأدب، منها تكرار أصــواتٍ متشــابهة مراتٍ متعدّدة في كلماتٍ متواليه، ومن ذلك ما قاله الصفدي في سيل أصاب القاهرة سنة 746ه:

كَمْ شَقَّقَ الرَّعْـدُ جَيْبـاً مِـنْ سَـحائِبِهِ وَقَلَّـبَ البَـرْقُ فيهـا قَلْـبَ مُرْتَعِـدِ
يا لَلْعَجيبِ قِبـابُ السُّـحُبِ قَـدْ وَقَفَـتْ هذا الزَّمانُ وَمـا قامَـتْ عَلـى عَمَـدِ[2]

في البيتين السابقين، يُظهر الصفدي شدّة المطر في ذلك الوقت، وكان ذلك متمثّلاً فــي قوّة مظاهره الطبيعيّة، فاعتمدَ على تكرار صوت (القاف) سبعَ مرات في البيتين، لما يتطلّبه هذا الصوت من قوّة اللفظ، تعكس قوّة المعنى الذي تعبّر عنه هذه الألفاظ.

وفي بيتٍ آخر كرّر الصفدي صوتَ السين ثلاث مرات في ثلاث كلمات متتابعة، يقول:

فَجـاءَ سُـباطُ بِسِـياطِ السَّـحابِ إِلـى أَن جَلَّلَ الأُفُقَ ثَوْبـاً لَـمْ يُخَـطْ بِيَـدِ[3]

يظهر صوت السين جليّاً في البيت السابق، وذلك لما يتميّز به هذا الصوت الصفيريّ من انتشارٍ ووقعٍ في المتلقي، فالصفدي أراد بتكرار هذا الصوت، إشعار المتلقي بوقعِ المطر الغزير، كما لو أنّه كان سياطاً حقيقيّة.

ويكررُ أدباء آخرون صيغاً معيّنة، مثل صيغ الاستفهام، ومن هؤلاء الأدباء ابن فضــل الله العمري، الذي أكثر من هذا الأسلوب.

ففي رسالةِ ابن فضل الله العمري إلى الصفدي في وصف شتاءٍ مرعب، يكرر استفهامه بأداة الاستفهام (كيف)، فيقول في مواضع متعدّدة من رسالته:

---

[1] ابن حجّة، **خزانة الأدب**. ج1.ص 361
[2] الصفدي. **ألحان السواجع**. ج1.ص168
[3] المصدر السابق. ج1.ص 169

"كيف أصبحَ مولانا في هذا الشتاء "، " وكيفَ هوَ مع جيشه الذي أطلَّ حتّى مدَّ مـــذارب غمامه"، "فكيفَ أنت يا سيّدي في هذه الأحوال ؟ وكيفَ أنت في مقاساةِ هذه الأهــوال ؟ وكيــفَ رأيتَ منها ما شيّبَ بثلجه نواصي الجبال ؟ "، " وكيفَ سيّدنا مع مجامر كانونّ وشرار برقهــا القادح "[1]

في هذه الجمل الاستفهامية المتتالية التي يوزّعها ابن فضل الله على رسالته القصـــيرة، يبدو بتكراره (كيف)مهتمّاً بالسؤال عن الصفدي، فيفضي للسامع بأهميّة المسؤول عنـــه، فـــأداة الاستفهام (كيف)، تستخدم للسؤال عن الحال.

ويكرّرُ ابن فضل الله في أسئلته هذه الألقاب التي استخدمها لمخاطبة الصفدي، فيخطابهُ مرَّةً (مولانا) ومرّةً (سيّدي) ومرة (سيّدنا)، ويكرّر الضمير المخاطب (أنتَ) مرتين، ويكرّرُهــا تأكيداً على اهتمامه بالسؤال عن صديقه الصفدي في ذلك الطقس الصعب.

وتكرّر استخدام أدوات أخرى للاستفهام، ومن ذلك ما جاء في الرسالة التـــي ردَّ فيهـــا الصفدي على ابن فضل الله العمري، ووصف فيها حال الشتاء والثلج، مستخدما فيها أداة النـــداء (متى) التي أسبقها بحرف الجر (إلى)، فيقول:

"فإلى متى قُطْنُ هذه الثلوج يُطرحُ على جباب الجبال ؟ وإلـــى متـــى تُفــاض دلاص[2] الأنهار؟ ويرشقها قوس قزح بالنبال ؟ وإلى متى تشقَّقُ السحابُ ما لها من الحُلَلُ والحبر؟ وإلـــى متى تُرسَلُ خيوطُ المُزنِ من الجوِّ وفي أطرافها على الغدران إبَر ؟ وإلى متى تَجمدُ عيونُ الغمام وتكحّلها البروق بالنار ؟ وإلى متى تُثارُ هذه الفضّةُ وما يُرى من النجومِ دينار ؟ وإلى متى نحنُ نحنو على النّار حنوَّ المرضعاتِ على الفطيم ؟ وإلى متى تبكي المزاريب بكاءَ الأوليـــاء بغيـــرِ حزنٍ إذا استولوا على مالِ اليتيم ؟ وإلى متى هذا البرق تتلوى بطونُ حيّاته ؟ وتتقلّبُ حمـــاليقُ

---

[1] الصفدي. **ألحان السواجع**. ج1.ص 148 – 149

[2] الأرض الملساء المستوية. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**. مادة دلص

العيون المحمرَّةُ من أسود غاباته ؟ وإلى متى يزمجرُ عتبُ هذه الرياحِ العاصفة ؟ وإلـــى متـــى يرسلِ أعواناً تصبحُ حلاوةُ الوجوهِ بها تالفة ؟ "[1]

في الفقرة السابقة، يكررُ الصفدي سؤاله (إلى متى) أحدى عشرة مرّة، وسؤاله هذا يؤكدُ حرصه على معرفة زمن انتهاء هذه الكارثة التي قلَبت حال الناس، مستخدما أداة استفهامٍ للسؤال عن الزمان، أسبقها بحرف جرٍّ يفيد انتهاء الغاية الزمانية، ليشكّلا مع بعضهما عبارة استفهاميّة قلقة بشأن طول زمن هذه الكارثة، فعكست معاناة صاحبها، ورغبته في الخلاص.

ومن الصيغ المستخدمة أيضا، صيغة التكثير، باستخدام (كم الخبرية)، فأدب الكـــوارث على ما عكسَه من شدّة و معاناة، أكثر أدباؤه من استخدام هذه الصيغة، ليدلّلوا على حجم هـــذه الشدّة، ومن الأمثلة على ذلك، ما قاله ابن الوردي في الثلج:

كَمْ كَسَّرَتْ أَصْلَ تُفّــاحٍ وكَــمْ حَطَمَــتْ "وَرْداً وَعَضّتْ على العِنّابِ بِــالزرَدِ[2] "[3]

يعكسُ تكرار ابن الوردي في البيت السابق لأسلوب (كم الخبرية)، شدّة تأثير الثلج على الغطاء النباتي.

ويعكس الصفدي بدوره تأثير الثلوج على الناس الذين لَم يستطيعوا لكثرته مغادرةَ مناطق سكنهم، يقول:

وكَــــمْ تَضَــــرَّرَ بــــادٍ مِــــنْ تَثاقُلِـــهِ وكَــــمْ تَضَــــوَّرَ مِنْــــهُ ســــاكِنُ البَلَــــدِ[4]

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما ورد على لسان أحد الشعراء، يصف سيلاً حلّ بدمشق، فيقول:

فَكَمْ مِنْ شَــبابٍ مَــعْ نِســاءٍ وَصِــبْيَةٍ وكَمْ مِــنْ دَوابٍ قَــدْ صَــلَينَ لِنــارِهِ [5]

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1.ص151

[2] عجز بيت للوأواء الدمشقي ،صدره "وأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسَقت ". الوأواء ،أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني : **الديوان** . تحقيق سامي الدهان . ط2 . بيروت : دار صادر . 1993 . ص84

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 186

[4] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1 . ص 164

[5] الذهبي، **تاريخ الإسلام**. ج 49.ص 56

يعكس الشاعر في هذا البيت شدّة الموت، وتركّزه في فئاتٍ اجتماعيّة، إضافةً لإهلاكه الكثير من الدواب، وذلك من خلال تكرار (كم) التي دلّلت على ذلك المعنى، وعكست تلك المأساة البشريّة والاقتصادية.

وتكرّر في هذا الأدب، بعض الصيَغ الصرفيّة في بعض المواضع، ومن ذلك ما ذكره ابن عبد الظاهر في مقامته في زلزلة 702ه، التي كرّر فيها صيغة اسم الفاعل في قالب برز فيه الطباق، باستخدام الصيغة نفسها، يقول: "واستولت على الغابر والداثر والباطن والظاهر.. والصالح والطالح والغادي والرائح والجانح والجامح "[1]

يظهر ممّا سبق، أنّ الكاتب أراد أن يظهر شدّة أثر الزلزلة على الناس جميعا في نشاطاتهم وسلوكاتهم المختلفة، فالزلزلة لشدّتها لا تستثنِ أحدا.

ويعكس الصفدي قوّة الشتاء ومظاهره، من خلال تكراره لصيغة المبالغة في رسالةٍ وجّهها لابن فضل العمري، كتب له فيها: "فما لنا ولهذه السحائب السّحّابة، والغمائم السّكابة، والرعود الصخّابة، والبروق اللهّابة، والثلوج التي أصبحت بحصبائها[2] حصّابة، والبَرد الذي أمست إبرهُ لغصونِ الجلودِ قطّابة "[3]

يظهر من النص السابق، كيف كرّر الصفدي صيغة المبالغة ستّ مرات مع كلّ ظاهرةٍ شتوية، وذلك لأنّه أراد من خلالها أن يبيّن شدّة هذه الظواهر.

- **الأسلوب الحواريّ**

ومن الأساليب المستخدمة أيضا في أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، الأسلوب الحواريّ، وقد كان بارزاً وبشكل خاص في المقطوعات الشعرية، ومن الأمثلة على ذلك، الحوار الذي دار بينَ ابن الوردي وصديقه، وبينه وبين الطاعون، يقول:

---

[1] السيوطي، **كشف الصلصلة.** ص 54

[2] ما تناثر من دقاق الثلج والبرد. ابن منظور، **لسان العرب.** مادة حصب

[3] الصفدي، **ألحان السواجع.**ج1.ص 150

يَقولُونَ شَمُّ الخَــلِّ مِــن زَمَــنِ الوَبــا وِفاقــاً لِمــا قــالَ الأَطِبــاءُ يــا خِلّــي
فإنْ قُلْتُ لِلطّاعونِ تَسْطو عَلَى الــوَرَى يَقولُ نَعَمْ أَسْطو وَأَنْفُــكَ فــي الخَــلِّ [1]

في هذين البيتين، يبدأ ابن الوردي أسلوبه الحواريّ باستخدام الفعل (يقولون) الذي يشيرُ من خلاله إلى رواةٍ متعدّدين، فيترك انطباعا لدى القارئ بأنّ القصّة تحملُ طابعا شعبياً في نقل وصفةٍ عزاها للأطباء في كيفيّة اتّقاء شرّ العدوى من الطاعون، فيحاور الشاعر خليله في هــذا الشأن، في الوقت الذي يوجّه فيه الحديث للطاعون في البيت الثاني كونه يسطو علــى النــاس، فيردُّ عليه الطاعون بالإيجاب، فهو يسطو على الناس بالمرض، وعليهم لذلك تصديق ما يروى عن وجوب شمّ الخلِّ حتّى لا يفتك بهم المرض. ويظهر من خلال البيتين، تكرار كلمة (الخــلّ) بدلالات مختلفة، وبتصنّع واضح.

في البيتين السابقين يبدو الطاعون ساخراً من الشاعر في إجابته، ويتكّررُ طابعُ السخرية في الأسلوب الحواريّ الذي يأخذ شكل المقطوعات الشعرية أيضا، ومن ذلك ما قاله ابن المعمار في مجونه، عارضاً حوارَهُ مع أحدِ الحشاشين:

قُلْــتُ لِمَــن بِالحَشــيشِ مُشــتَغِلُ وَيْــكَ أَمَــا تَخْشــى هَــذِهِ الكِتْبَــةْ
فَالنــاسُ مَــاتوا بِكُبّــةٍ ظَهَــرَتَ فَقــالَ إِنّــي أَعــيشُ بِالكُبــة [2]

يبدأ ابن المعمار مقطوعته بالفعل (قلتُ) التي تمهّدُ لحوارٍ مع شخصيّة حــدّد ملامحهــا بأنّها شخصيّة سلبية تتعاطى الحشيش، وتبدو لا مبالية، إذ إنّ الشاعر يوجّه لها السؤالَ متعجّبــا من عدم خوفه الطاعون ! فالناسُ قد ماتوا بالكبّة التي تظهرُ في جسَد المصاب بالطاعون وهــيَ تعدُّ مؤشراً للموت، فيجيب الحشّاش ساخراً أنّه يعيش بهذه الكبّة.

ومن الملامح المميزة في الأسلوب الحواريّ أيضا، هوَ استخدام الفعل المبنيّ للمجهول، لا سيّما في الأشعار التي قيلت في بيان حالةٍ ذات طابعٍ سياسي، ففي عام 709ه علــى ســبيل المثال، توقّف النيل عن الوفاء وارتفعت الأسعار وشحّت الغلال، فضجَّ الناسُ على السلطان، ما جعله يصدر أمراً بفتح السدّ للتقليل من الضيق الذي يعانون منه، لكن في النتيجــة لــم يصــل

[1] ابن إياس، **بدائع الزهور**. ج1.ق1. ص532
[2] المصدر السابق .ج1.ق1. ص532

مستوى الماء إلى المستوى المطلوب لدى المزارعين[1]، فيقول بدر الدين ابن الصاحب فيما مـــا جرى:

جــــــاءوا بــــــــردعٍ وكَـــــذِبِ وفرَّحـــــوا قلـــــبَ الــــورَى
وقيــــلَ لـــــيَ النيـــــلُ وفَـــــى فقلـــــتُ هــــذا مَــــا جَــــرى[2]

يظهر الشاعر في هذين البيتين ساخرا من قرار السلطان الذي أشاع الفرحة بين الناس، لكنه وصفه بالكاذب، إذ إنّ مستوى الماء لم يصل إلى المقياس المناسب لجريان النيل، وقد عبّر عن ذلك باستخدام الفعل (قيل)، وهو فعلٌ ماضٍ مبنيٌ للمجهول، إذ فضّل الشاعر استخدامه على استخدام فعل معلومٍ يَبانُ شخصيّة صاحبه، الذي ردَّ عليه بنفيِ ما أشاعت السلطة الحاكمة بـــينَ الناس.

- **الأساليب الإنشائيّة**

تضمّن أدب الكوارث الطبيعيّة بعض الأساليب الإنشائيّة التي برزت بشـــكل واضـــح فـــي نصوص الأدباء، وكان لها معانٍ مختلفة للأسلوب الواحد.

ومن هذه الأساليب أسلوب الأمر، الذي خرَج في بعض المواضع عن معناهُ الحقيقي إلى معانٍ أخرى يحتملها لفظُ الأمر ويُفهم من السياق وقرائن الأحوال [3]، ومن ذلك ما ورد في خطبة زلزلة عام 702هـــ، إذ قال خطيبها: "واستحيوا ممّن لا تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هَلَـــك تحتَ بعد التشييد مردوماً "[4]

في هذا النص، يستخدمُ الخطيب فِعْلي الأمر (استحيوا) و(اعتبروا)، وذلك بمعنى النصح والإرشاد فالخطيب بعد حديثه عن تلك الزلزلة وآثارها، ورحمة الله بالعباد في أثنـــاء حـــدوثها، يدعو الناس إلى الحياء من الذات الإلهية التي لا يخفى عليها شيء، وضرورة الاعتبار بمصير مَن قَضى في هذه الزلزلة.

---

[1]. المصدر السابق.ج1.ق1.ص424

[2] المصدر السابق. ج1.ق1.ص 424

[3] عتيق، عبد العزيز: **علم المعاني**. د.ط، دار النهضة العربيّة. بيروت. 1985. ص77

[4] الدواداري، **كنز الدرر**. ج9.ص 103

ويستخدم الخطيب المعنى نفسَه باستخدام صيغة أمر أخرى وهي المصدر النائب عن فعله، ومن ذلك قوله: " التوبة التوبة عباد الله في الأيّامِ الباقية الفانية "[1]

ففي هذه العبارة، يأمر الخطيب الناس بالتوبة لله تعالى في ما تبقّى لهم من أيّام معدودةٍ في حياتهم، مستخدما المصدر (التوبة) بدلا من (توبوا) بغرض النصح والإرشادِ أيضا، ما يدلُّ على حرص الأدباءِ على التنوّع في استخدام الصِيغِ اللغويّة في نصوصهم، وما يعطي جرساً موسيقيّا متنوّعاً في النصّ الواحد.

وقد يأتي الأمر بمعنى الدعاء،لا سيّما إذا كان في معرض الطلب إلى الله عزّ وجل، ومن ذلك ما أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون، إذ قال مناجيا الله: " نجّنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلّم "[2]

ففي هذه العبارة، يدعو ابن الوردي الله تعالى مستخدما صيغة الأمر، أن ينجّيَ المسلمين من الطاعون، وأن يسلّمَ على النبي محمد الكريم، مستنجدا بجاهه ومنزلته عند الله تعالى.

ومن الأساليب الإنشائيّة، أسلوب الاستفهام، وأدوات الاستفهام متعدّدة، ومنها أحرف كالهمزة وهل، ومنها أسماءُ كبقيّة أدوات الاستفهام مثل: مَن، متى، كيفَ..وغيرها من أسماء الاستفهام المعروفة.

وقد استخدم الأدباء الجمل الاستفهامية في مواضع كثيرة، فمنها ما قصد الأديب فيها التحقير، ومن ذلك ما قاله البوصيري في بركان المدينة وحادثة أخرى تزامنت معها، جاعلا من الحدثين موضعي موعظةٍ وإرشادٍ لليهود والنصارى الذين لَم يتّعظوا بما حلَّ بالناس من أهوال، فيقول:

فلَو أنّكم خلقٌ كريمٌ مُسِختم   بقَولِكم لكن بمن يُمسَخُ القردُ؟[3]

---

[1] الدواداري، **كنز الدرر**.ج9.ص 103

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 86

[3] البوصيري، **ديوان البوصيري**. ص 85

في هذا البيت، يُظهر الشاعر مدى ازدرائه لليهود والنصارى، الذين لم يزدهم غضبُ الله بما حلَّ إلّا قسوةً كما ذكر في القصيدة، فلا يؤمنون ولا يعتبرون بما حصــل، فهــم كالكائنــات الممسوخة إلى قرود، فيتساءل إن كانَ بعدَ القردِ مَسخٌ أسوءَ من ذلك.

ومنها ما قصَد الأديب به التعجّب من شيء ما، ومن الأمثلة على ذلــك مــا وردَ عــن الصفدي في أحد رسائله واصفا المطر: "أكلُّ هذا تشريعُ تشرين، وشَرَهُ شَرِّهِ حتّى نتجرَّعَ مــن أمرِهِ الأمرّين ؟"[1]

في هذه العبارة، يتعجّب الصفدي من قوّة المطر على الأرض، وما أذاقه للنــاس مــن صعوبة العيش، فهو يصوّر المطر إنساناً شَرِهاً، يَعجب الناس من كثــرة أكلــه، كمــا يعجــب الصفدي من شدّة هطول المطر في تشرين ذلك العام.

ومن ذلك أيضاً ما أورده ابن الوردي في ثلج دمشق، فالأرضُ تجمّدت من كثرة الــثلج، لكنَّ الثلج الغزير سخر منها وقال: " أتبردين وقد طرحَ قوسُ السحاب على جُبّتكِ قطنا "[2]

يشخّص ابن الوردي الثلج الذي نزل بكثافة فأضرَّ بالأرض وما عليها أيّما ضرَر، فيبدو رجلاً مغترّاً بقوّته، فيسألُ الأرض التي تعاني من برودته، معتبراً الثلجَ قطناً تتدفأُ به، فيخــرج الاستفهام من معناه الحقيقيّ إلى السخرية.

ومن الأساليب الخبرية النداء، وقد تنوّعت أدوات النداء التي اســتخدمها الأدبــاء فــي نصوصهم الأدبيّة، ومن ذلك ما جاء بمعنى التعجّب، كما يبدو في قولِ أحدِ الشعراء:

فَيا لَهــا آيَــةً مِــنْ مُعْجِــزاتِ رَسـولِ   للهِ يَعْقِلُهــــا القَــــوْمُ الألِبّــــاءُ[3]

في هذا البيت يتعجّب الشاعر من معجزة الله تعالى التي أنزلها على رسوله، والمتمثلــة بنبوءة النبي الكريم في نار المدينة، التي تحقّقت فعلا وكان لها من الأثر ما كان.

---

[1] الصفدي، **ألحانُ السواجع**. ج2.ص28

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص184

[3] أبو شامة ، **الذيل على الروضتين**.ص 193

وفي موضعٍ آخر، يستخدم الشاعر أداة الاستفهام (يا) لتقريب البعيد، وذلك في معــرض مناجاته الرسول الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، بعد واقعة بركان المدينة، فيقول:

فيــا خيــرَ مبعــوثٍ وأكــرمَ شــافعٍ   وأنجــحَ مــأمولٍ وأفضَــلَ موئــلِ[1]

في هذا البيت، ينادي الشاعر على الرسول الكريم ذاكرا صفاته الرفيعة، بعد أن طلــب إلى صديقه المتخيّل المسافر إلى المدينة أن يُقرئه السلام، فينزل البعيد منزلة القريب لعلوّ مكانته وارتفاع شأنه [2].

وقد يستخدم أديبٌ آخر النداء للتحسّر، كما فعل ابن الوردي عندما قال في مدينة مَنــبِج: فوا أسفاً على منبج "[3] .

في هذه العبارة، يتحسّر ابن الوردي على ما حلَّ بهذه المدينة بعد زلزلــة عــام 702ه، مستخدما الندبة، وهي أسلوب من أساليب النداء، التي تستخدم للتحسّر في العادة، فيحسِــن ابــن الوردي في انتقائه لأداة النداء التي تعبّر عن المعنى الذي أراد وصفه.

الصنعة البديعيّة

يعدُّ العصر المملوكيُّ من العصور التي شاعَ فيها استخدام الأدباء للصنعة البديعيّة، وهي من الصفات الملتصقة بأدب هذا العصر، إذ إنّه " أدبٌ مشبعٌ بالاستعراضِ البلاغيّ وميّالٌ إليه"[4]، ويعدّ النقاد المحسنات البديعية حلية للنص وموسيقى للأذن، فإنهم يرون أيضا " إلا نقّاد الصنعةِ والزخرف، أن تكونَ هذه المحسنات كالحلي، يروق منها القليل، يأتي في الكــلام إذا اســتدعاه المعنى، لا أن يقتسر ويُؤتى به موضوعاً في غير مكانه، فإن فعلَ الشاعرُ ذلك كــانَ متكلّفــاً لا يُحمَدُ شعره"[5]

---

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص339

[2] عتيق، عبد العزيز ، **علم المعاني**. ص 16

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 153

[4] قلقيلة، عبده ،**النقد في العصر المملوكي**. ص 217

[5] بدوي ، أحمد، **أسس النقد الأدبي عند العَرَب**. ص 476

وبناءً على ذلك، تميّز أدباء العصر المملوكيّ " بإيجاد ذوقٍ بديعيٍّ عام، سرى بقوّةٍ في أوصال المجتمع في هذا العصر، وإلى إيجاد أدبٍ مشبع بالاستعراض البلاغي الذي صار غايةً في حدّ ذاته "[1]، وأدب الكوارث الطبيعيّة على اختلافِ نصوصه، وأدبائه الذي كانوا من عيون أدباء العصر المملوكي، وظّفوا البديع في نصوصهم التي تحدّثوا فيها عن الكوارث الطبيعيّة التي حصلت في عصرهم.

وقد برزت المحسّنات البديعيّة بنوعيها في أدب العصر الكوارث الطبيعيّة اللفظيّة والمعنويّة، ومن المحسّنات البديعيّة اللفظية التي استخدمها الأدباء في نصوصهم:

الجناس

يعدّ الجناس من الفنون البديعيّة المؤثّرة في المتلقي ، لعلّ السرَّ في تأثيره " ما فيه من إيهام النفس أنّ الكلمة المكرّرة ذات معنى واحد، فإذا أمعن المرءُ فيها النظر رأى للكلمتين معنيين مختلفين "[2]، من الجناس ما يكونُ ضعيفاً لا يجد القارئ لتكرار الكلمة فائدة، وهناك جناسٌ مستحسنٌ يوهم القارئ أنّه لَمْ يَزِد لديه فائدةً أو لم تَحسُن زيادتُه لكنّه يكونُ كذلك،[3] وإنّ أفضلَ فائدةٍ لَهُ الجرسُ الموسيقيُّ الذي يضيفه إلى نظم أو نثر الأديب، والجناس يأتي على نوعين؛ جناس تامٌّ، وجناس ناقص أو غير تام، ويشيعُ في أدب الكوارث الطبيعية استخدام الجناس الناقص أكثر، فيما ينحصرُ الجناس التام في أمثلةٍ قليلة جدا و ومنها قولُ ابن الوردي في الوباء:

إنّ الوَبا قَدْ غَلَبا وَقَدْ بَدا في حَلَبا[4]
فقالوا لَهُ:عَلَى الوَرَى كَافٌ وَراءٌ، قُلْتُ: وَ با[5]

---

[1] الهيب، **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء.** ص438

[2] قليقلة ، عبده ، **النقد في العصر المملوكي.** 217

[3] انظر: الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز.** التصحيح والتعليق علي الحواس و السيد محمد رشيد رضا. د.ط. بيروت: دار المعرفة للطباعة للنشر،. 1978. ص 402

[4] انظر ص 39

[5] ابن الوردي، **الديوان.** ص 90

في هذين البيتين يظهر الجناس التام في كلمتي (الوبا) و (وَبا)، فهي في البيتِ الأوّل تعني الوباء أي المَرَض، وفي البيت الثاني تأتي بمعنى حرف (الباء)،إذ قامَ الشاعر بتبيين معنى الوباء بذكر حروفه مقطّعة، لتجتمع في كلمة (كَرْب) وهي المصيبة. إنّ هذه النمط الفنيّ الذي جاءَ عليه الجناس التام أضفى على البيتين بعض التعقيد، وقد جاء بشكلٍ لا يتوافق مع الحالة النفسيّة التي كان يعيشها الشاعر.

ومن الأمثلة على الجناس التام أيضا، ما أورده الصفدي في رسالةٍ له عن الثلج: "وأقبل شباط، فما آبَ آب، وولّى تموز هرباً "[1]

يظهر الجناس التام في كلمتي (آب، آب)، فالكلمة الأولى بمعنى رجع، والثانية بمعنى شهر آب، ويتميّز هذا الشهر بارتفاع درجات حرارته، فيقول الصفدي إنّ شباط عندما جاء في تلك السنة بثلوجه وبَرده وعواصفه الشديدة، خُيّل للناس بأنّ عودة ذلك الشهر الحارّ غير واردة، وكأنّ ذلك البَرد سيستمر دون مغادرة.

ومن الأمثلة على الجناس الناقص أو غير التام، ما أورده الصفدي أيضا في أحَدِ أبياته التي يصفُ فيها طاعون عام 749هـ:

أَخْلَيْتَ أَرْضَ الشّامِ مِنْ سُكّانِها وَحَكَمْتَ يا طاعونُ بِالطّاغوتِ[2]

في هذا البيت، يصوّر الشاعر ما فعله الطاعون في بلاد الشام، إذ أخلاها من سكّانها، وبدا الطاعونُ حاكماً فيها، يسيطر عليها بالطاغوت، ويتعمّد أن يُظهر الجناس الناقص بين كلمتي (الطاعون) و (الطاغوت)، ليظهر التقارب اللفظي بينهما، والتقارب المعنويّ أيضا، إذ جعل الطاعون رمزا للطاغوت؛ لما يفرضه من سيطرةٍ مجحفة بحقّ الناس ما يؤدّي بالنهاية لهلاكهم. وقد جانس الشاعر بينَ هاتين الكلمتين، التي فرّق بينهما بحرفي النون والتاء، فجعل الكلمة الأخيرةَ ذات وقعٍ موسيقيّ عنيفٍ في النفس، من خلال اختيار صوتٍ انفجاريّ هو صوت التاء،

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 167

[2] المصدر السابق. ج1.ص 112

ليعبّر به عن المعنى المراد وهو حكمُ الطاعون في الناس، ما يبدو وكأنّه حُكْمٌ قاطع، ينتهي عنده البيت.

ومن الأمثلة أيضا، قول الصفدي في أثر الثلوج على الناس:

لَقَــدْ سَــكِرْنا مِــنَ الهَــمِّ المُبْــرِحِ لا   مِنْ راحِ راحَــةِ ســاقٍ فــاتِنِ الجيــدِ[1]

يظهر الجناس في كلمتي (راح، راحة)، فاليد هي العضو الذي يمسك الكأس، الذي يُسكرُ الناس، ويُذهب عقولهم، لكنّ ما يُذهب عقول الناس هو كثرة البؤس الذي سبّبه البرد الشديد فــي ذلك الشتاء.

وشاع الجناس الناقص في النثر أيضا بشكل واضح، ومن الأمثلة على ذلك، مــا أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون نفسه، عن وصفِ دخول الطاعون في منــاطق جغرافيــة مختلفة، فيكتب: " وقلَعَ خلقاً من القلاع، ثمّ طَلَب حَلَب "[2]

يظهر الجناس في هاتين الجملتين في أربع كلمات، فهو يجانس بين (قَلَعَ) و (القــلاع)، و(طَلَبَ) و (حلَب)، ففي الموضع الأول، يعكس ابن الوردي قدرة الطاعون على اختراق الأماكن المغلقة والعصيّة كالقلاع، وليس ذلك وحسب، بل إنّ الطاعون يقتلعُ الناس منها قلعا؛ دلالة على شدّته. وفي الموضع الثاني يجانس بين اسم المدينة التي كَثُر فيها الطاعون وعم، وهــي مدينــة حلب، فيصوّرُ دخول الطاعون إليها باستخدام الفعل (طَلَب) وكأنّ الطــاعون يقصــدها بالــذات لِيُعمِل فيها خرابه و دماره.

السجع

السجعُ عنصرٌ مُختَلَفٌ عليه بين علماء اللغة، ويحكمُ هذا الاختلاف سمَةُ التكلّــف التــي يتّبعها بعض الأدباء ، " فطائفةٌ ذمّته، وطائفةٌ مدحته، ولا وَجهَ لذمّه، إلّا أن يدلَّ على التكلُّــف،

[1] المصدر السابق. ج1.ص 169 .انظر أيضا ما ورد في رسالة ابن فضل الله العمري في الفصل الثاني ص59

[2] ابن الوردي، **الديوان.** ص 90

والتكلّفُ عندهم مهجور. ولذلك شكّوا في فصاحة الشاعر إذا كَتَب، خيفةَ أن يَتَكلَّفَ استعمال الأقلام، ويستعينَ بالنظر في الكلام، إذ لهما جزءٌ من العمل، وحظٌ من التأليف "[1]

ويعدُّ السَّجع من أكثر المحسّنات البديعيّة التي شاعت في نصوص الأدباء لا سيّما النثرية، في العصر المملوكي، فهو عصر الاهتمام بالصنعة، إضافة لما يضيفه من حسّ موسيقيّ جميل على النص، وقد برَز السجع في النصوص التي تحدّثت عن أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، لا سيّما السجع المطرف، أي أنّ تختلف فواصل الكلمات المسجوعة في الوزن، وتتّفق أحرف السجع.[2]

ومن أمثلة السجع فيه ما وردَ في الرسائل، ومنه ما كتبه ابن الوردي في وصف أثر الطاعون في دمشق، فيقول: " فالله تعالى يُجري دمشقَ على سُنَّتها، ويُطفي نفحاتِ نارِهِ عن نَفَحاتِ جنَّتِها "[3].

يستخدمُ ابن الوردي السجعَ في هاتين الجملتين اللتين تصفان حُكمَ الله الذي قضى بأن تصبحَ دمشقُ التي هي رمزٌ للجمال والخضرة، رمزاً للموت وكأنَّ عليها نفحةً من النار، من جرّاء هذا الطاعون، وقد جاء هذا السجع مطرفا.

ويستخدم ابن الوردي السجعَ في جملتين اثنتين متتابعتين لا ثالث لهما في رسالتيه عن الطاعون والزلزلة كما هو واضحٌ في المثال السابق، ليبدأ بسجعٍ جديدٍ في الجملة الثالثة، على أنَّ أدباء آخرين يُكثرون من الجمل المسجوعة المتتابعة، ومنهم الصفدي، فعلى سبيل المثال، يورد الصفدي في إحدى رسائله عن المطر والسيل:

"وشهرُ رمضانَ قد بَلَغ غايته، وعيد الفطر قد نصَبَ رايته، وتلا آيتَه، وطلبَ من الموسرِ والمعسرِ كفايته"[4]

---

[1] الإشبيلي، **إحكام صنعة الكلام**. ص 227 – 228

[2] انظر: ابن حجّة، **خزانة الأدب**. ج2.ص.411

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 88

[4] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج2.ص 27

في هذه النص، يورد الصفدي احتاجه على هذا السيل، الذي جاء مع شدّته فـــي شـــهر رمضان المبارك، وقرب موعد العيد الذين هما رمزٌ للفرح والطمأنينة، فيستخدمُ الســـجع بـــين جمله التي تعبِّر عن حالةٍ مقلقة لدى الناس، وهو سجعٌ مطرف أيضا.

ومن الأمثلةِ على السجعِ في الخُطَب، ما أوردَه خطيبُ زلزلة 702ه وهو يصفُ لُطــفَ الله بالناس، فيقول:" إلّا أنّ اللهَ بلطفِه ردّها، لمّا ماجت الأرضُ بأسرها، وظـــنَّ أنّ ذلـــك يـــوم حشرِها"[1].

وعلى الرغم من شيوع هذا النوع من السجع، كونه يعطي الكاتب الحرّية فـــي اختيـــار الوزن الذي يريده، فقد احتوت بعض الرسائل، نوعاً آخر من السجع، هو السجع المرصّع، وهو ما اتّفق وزنه و قافيته [2]، لا سيّما رسائل الصفدي [3]، وجاء في بعض فواصل المقامـــات، التـــي وردت في الفصل الثاني، هذا النوع من السجع.[4]

العكس

ويعني تقديم لفظٍ من الكلام ثم تأخيره، كقولِ الله تعالى " **يولِجُ اللّيْلَ في النّهارِ وَيـــولِجُ النّهارَ في اللّيْلِ.**[5]

وقد وردت هذه الزينة البديعية في مواضع قليلة، كان أكثر مَن عُني بها ابن الوردي وقد وردت لديه في غير، وفي رسائل مختلفة، الموضع الأوّل ورد في رسالته عن الطاعون ما قاله في وصف دخول المَرض إلى بيت المشتغلين بالحرير: "وأخذ من دار الطَّراز طَرّازَ الدار " [6]

---

[1] الدواداري، **كنز الدرر**. ج9.ص103

[2] انظر: ابن حجّة، **خزانة الأدب**.ج2.ص 409

[3] انظر ص 63

[4] انظر ص51

[5] انظر: ابن حجة الحموي، **خزانة الأدب**.ج2.ص354

[6] ابن الوردي، **الديوان**. ص 87. انظر أيضا: عبد الرحيم ، رائد، **رسالة" النبا عن الوبا " لزين الدين بـــن الـــوردي ت 749ه دراسة نقدية**. ص 1519

والموضعِ الثاني في رسالته عن الزلزلة إذ قال في وصف الناس الذين لَم يجــدوا مــا يحميهم من الكارثة حتّى الملوك: " ولا جَنّتهم[1] قناطرُ الملوك إذ صرعتهم ملوك القناطر "[2]

ووردت في رسالته التي خاطب فيها ابن فضل الله العمري واصفا فيها الثلوج والبــرد، فأوردَ فيها بيتاً فيه مَدحٌ للعمريّ يقول فيه:

كِتابَةُ السِّــرِّ بَــلْ سِــرُّ الكِتابَــةِ مِــنْ فُنــونِكُمْ وَعُلــومٌ راضَــها الطَّلَــبُ [3]

فكتابة السرِّ أحدُ أعمالِ ابن فضل، وأراد ابن الوردي أن يضيف أمراً آخر هــو جمــال الكتابة التي يختصُّ بها العمريّ.

أمّا المحسّنات البديعيّة المعنويّة، فمنها:

الطباق

وظّف الأدباء الطباق في نصوصهم، ليعُطوا معانيهم مزيداً من القوة، لما يتركه التفاوت المعنويّ في ذهنِ المُتلقي.

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الصفدي في حال دمشق في أثناء طاعون 749ه، قال:

أَمّــا دِمَشْــقُ فَإنَّهــا قَــدْ أَوْحَشَــتْ مِــنْ بَعْــدِ مــا شَــهِدَ البَرِيَّــةَ أُنْسُــها
تاهَــــتْ بِعُجْــــبٍ زائِــــدٍ حَتّــــى ضَــرَبَتْ بِطــاعون عَظــيمٍ نَفْسَــها[4]

في هذين البيتين، يصوِّرُ الصفدي حالتين كانت عليهما دمشق، الأولى قبــلَ الطــاعون والثانية بعدها، ويظهر الطباق في كلمتي (أوحشت) و (أُنسِها)، فمدينة دمشق كانت مدينة نابضة بالحياة تؤنس ساكنيها، أمّا بعد الطاعون، فأصبحت موحشة.

---

[1] بمعنى سترتهم. انظر: ابن منظور، **لسان العرب**. مادة جنّ.
[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص 153
[3] المصدر السابق ص183
[4] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1.ص114

ويكتب ابن فضل الله العمريّ إلى الصفدي في أمطار وسيول دمشق عام 746ه ، ويبيّن كيفَ يختلفُ حال الناس عند قدوم الأمطار من منطقة إلى أخرى ، فيقول في خبر الأنواء إنّها " تقسّمت أقساماً، وسرّت أقواماً وساءت أقواما "[1] .

يظهر الطباق في كلمتي " سرَّت " و " ساءت " ، كاشفاً الفجوة النفسية والمادية التي تخلّفها الأمطار على الناس وممتلكاتهم في مناطق مختلفة .

أمّا ابن الوردي، الذي أبدعَ في الحديث عن طاعون 749ه، فقد صوّر في جملة قصيرة أثرَه الذي حصد الآلاف المؤلفة من الأرواح، عندما قال: " فأقلّ الكثرة " [2]

يظهر الطباق في كلمتي (أقلّ) و (الكثرة)، ففي هذه الجملة القصرة التي لا تحوي غير هاتين الكلمتين، يعكس ابن الوردي للقارئ أنّ أعداد الموتى الكثيرة وكأنّها أضحت قليلة، وذلك لأنّ الناس اعتادوا على كثرة الموت، فأصبحوا يَرَون المئات والآلاف أعداداً بسيطة.

ومن ذلك ما أورده ابن عبد الظاهر في أثر زلزلة 702ه، التي وصلت هزّتها إلى كلّ مكان ، فلم تَذَر " بيتاً قديما ولا حديثا حتّى هدمته، واستولت على... البعيد والقريب، والبريء والمُريب "[3]

يصوّر ابن الأديب مما سبق، كيفَ جاءت الزلزلة على شيء، فقد طالت كلّ البيوت على اختلاف زمن بناها (قديما و حديثا)، و تأثّر بها (البعيد و القريب)، وأخذت من الناس (البريء والمريب)، فما تركت أحداً، وفي استخدام ابن عبد الظاهر الطباق هنا، استطاع إظهار أثر الكارثة الكبير، وسعة انتشار دمارها.

---

[1] الصفدي ، ألحان السواجع ، ج1 . ص 165

[2] ابن الودري، **الديوان.** ص 88. عبد الرحيم، رائد : **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي دراسة نقدية.** ص1519

[3] السيوطي، **كشف الصلصلة.** ص 54

التورية

و هي أن يكونَ للكلمة الواحدة معنيان، واحدٌ قريب وهي غير مطلوب، والآخــر بعيــد وهو المطلوب.[1]

وشاعت التورية في نصوص الأدباء بصورة كبيرة، وهذا يدلُّ على سعة معرفتهم باللغة، وذواقهم البلاغيّة، ومن الأمثلةِ على التورية، ما قيل في توقّف النيل عام 709ه:

إن كـــانَ خَلْـــقُ نيلنـــا قبـــلَ الوفـــا فالكسرُ منهُ لكلِّ قلـــبٍ فـــي الـــوَرَى [2]

في هذا البيت، تظهر التورية في كلمة (الكسر)، فالمعنى القريب للمتلقي هـــو الحـــزن الشديد بسبب عدم وفاء النيل، بدليل كلمة قلب، ولكنّ المعنى المطلوب هو انكســـار النيـــل، أي خفض منسوبه.

وجاءت التورية في النثر أيضا، و من ذلك ما أورده ابن الوردي فـــي رســـالته عـــن الطاعون داعيا ربّه: " اللهم إنّه فاعلٌ بأمركَ فارفع عنّا الفاعل " [3]

في هذه العبارة تأخذ لفظة (الفاعل) ذهن القارئ إلى المصطلح النحوي، بدلالة وجـــود (ارفع) وهو المعنى القريب غير المطلوب، أمّا المعنى المطلوب هو (الطاعون)، الذي يدعو الله أن يكُفّ فعلهُ و مصائبه عن الناس.

الصورة الفنية

تُعدُّ الصورةُ الفنيّة عنصراً مهمّاً في دراسة النص الأدبي، وتَنبعُ هذه الأهميّة من اسمها أوّلا؛ فالصورة تعني انعكاس الحَدَث أو الشعورِ التي يريد الأديب التعبير عنـــه بكـــلِّ قدراتـــه الإبداعيّة، حتّى يضع القارئ أمام المَشهد الذي يراهُ أو يحسُّ به، كما لو كـــان القـــارئ معـــه،

---

[1] ان حجّة الحموي، **خزانة الأدب**.ج1.ص 39

[2] ابن إياس، **بدائع الزهور**.ج1.ق1.ص425

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص87. انظر أيضا: عبد الرحيم ، رائد: **رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي دراسة نقدية**.ص 1518

مستخدماً كلَّ أدواته الفنيّة، بما تحملُ الكلمةُ " الفن " من معاني الجمال الذي يعدُّ من القيمِ الإنسانيّة المطلقة، التي حاول المبدعون على اختلافِ أشكال إبداعاتهم و على مرّ العصور، التعبير عنها.

و"الصورة الفنيّة لن تُغيّر من طبيعة المعنى في ذاته، إنّها لا تغيّرُ إلّا من طريقة عرضه وكيفيّة تقديمه، ولكنّها – بذاتها – لا يمكنُ أن تخلقَ معنى، بل إنّها يمكن أن تُحذف دون أن يتأثّر الهيكلُ الذهنيُّ المجرّدُ للمعنى، الذي تحسّنه أو تزيّنه " [1]

ويعدُّ أدب الكوارث الطبيعيّة من الآداب التي تلتصق بالذهن وتثير المشاعر؛ لما فيه من مشاهد مرئية أو أخبارٍ مسموعة تمسُّ النفسَ، وتبعثُ فيها الشجَنَ والرغبة بالتعبير عن انفعالاتها، لذا أكثر الأدباء من صورهم الفنيّة التي باحت بما يريدون تصويره، واعتمدوا على أساليب عليم البيان المختلفة، من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ وتجسيمٍ وتشخيص، كعناصر لتشكيل الصورة الفنيّة.

ومن ذلك قول ابن قزل في بركان المدينة المنورة:

لها شَررٌ كالبَرقِ لكنْ شهيقَها فكالرَّعدِ عِندَ السامِعِ المُتأمِّلِ[2]

يستخدم الشاعر تشبيهين في هذا البيت، فيشبّه النيران المتطايرة من هذا البركان بالبرق الذي يلمع في السماء، وهذا يدلّ على سعة الانتشار، ويشبّه الصوتَ الذي يصدر من هذا البركان بالرعد، لما له قوّة تأثير نفسيّة لدى الناس.

ويقول ابن الوردي، في وصف ثلوج الشام، مادحاً طريقة ابن فضل في وَصفها:

بيضُ الثلوجِ قد اكتَسَت من وصفِكم ذهباً كأنّها فضّةٌ قد مسّها ذهبُ.[3]

---

[1] عصفور، جابر: **الصورة الفنيّة**. ط2. دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت. 1983. ص323

[2] ابن قزل، **الديوان**. ص337

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص 182

يشبّه الشاعر الثلوج البيضاء التي نزلت بدمشق، بالفضّة الممزوجة بشيء من الــذهب، وذلك لأنّه الذهب أغلى من الفضّة، وهذا يزيدُ من بهاء الثلج وإن زادت كميّتــه عــن احتمــال الناس، وذلك لأنّ ابن فضل تحدّث عنه.

وفي مواضع أخرى، يستخدم الأدباء تشبيهاتٍ عجيبة، ومن ذلك الصفدي في المــريض بالطاعون: " حتّى جاءَ بكبّةٍ تحتَ الإبط، كأنّها عملةُ السارق "[1]

فقد شبّه الصفدي الكبّة التي تظهر تحت إبط المريض بالطاعون بالعملة النقديــة التــي يسرقها اللص، وكلاهما غريبتان عن حاملهما ولا تخصّانه، ووجودهما يشكّل خطراً عليهما.

وتبْرَزُ في مظاهرُ أخرى، كالصورة المقلوبة [2]، ومن الأمثلة علــى ذلــك، مــا أورده الصفدي في رسالته التي ردّ فيها على ابن فضل العمري في حال السيول والأمطار، إذ يقولُ في معرض مدحهِ له في نهاية الرسالة:"وإن كانت العواصفُ تتشبّهُ ببأسِهِ فيا طول ما تفلح"[3]

فيصوّر الصفدي العواصف ذلك الشتاء في قوّتها وشدّتها، ببأس القاضــي ابــن فضــل العمري في شدّته وقوتّه.، ولقد اعتادَ الأدباء على تشبيه قوّة البأس بقوّة الظواهر الطبيعيّة علــى سبيل المثال، لكنّ الصفدي هنا يستخدم العكس، ليُظهرَ مدى شدّة بأس ابن فضل العمري، بعــدَ عرضِ قوّة هذه العواصف وأثرها في الرسالة.

ثمّ يستخدمُ صورةً مقلوبةً أخرى، ومثال ذلك قوله: " وإن كانت البروقُ تحــاكي ذهنــهُ المتسرّعَ فيا طولَ ما تتألّق ". [4]

فيصوّر في عبارته هذه البروق في سرعة التماعها في السماء، بذِهن القاضي العمــريّ في سرعةِ فطنته، وفي ذلك مَدحٌ كبيرٌ لابنِ فضل الله ، في أثناء تلكَ الكارثة الجويّة.

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص114

[2] وهو شكل من أشكال الطرد والعكس بأن يكون المشبّه مكان المشبه به والمشبه به مكان المشبّه. انظر: ابن الأثير، **المثل السائر**.ج1.ص400

[3] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1.ص 151

[4] المصدر السابق، ج1.ص 151 – 152

أمّا الاستعارة، فهي أفضلُ المجاز كما رأى القاضي الجرجاني [1]، فالأديب يصوّر ما يريد دون حاجةٍ لاستخدام أدوات التشبيه، فيندمجُ المشبّه والمشبّه به في صورةٍ متجانسة.

ومن ذلك قول الصفدي في أثناء وجوده بالشام، وقد تساقط عليها من الثلوج الشيء الكثير، حتّى منعته من التنقّل:

تبّاً لها من بلدة لا أرى فيها مقامي واضحَ النّهج
لأنّها في وَجهِ سُكّانها وأهلها تبصُقُ بالثَّلجِ [2]

تظهر الاستعارة المكنية واضحة في البيت الثاني، فالشاعر بصوّر الثل بالإنسان الذي يبصق، فيذكر المشبّه، ويحذف المشبّه به، ويبقى على شيء من لوازمه وهو (يبصق)، وقد استخدم الصفدي هذه الصورة، ليعكس الحالة السلبيّة التي يعيشها الناس، فكلّما أرادوا التنقّل، واجهوا مَن يمنعم رغماً عنهم.

ويصوّر ابن الوردي الطاعون بالجيش، الذي يغزو البلاد، وذلك في قوله: " هجم على بلاد العَجَم " [3].

تعبّر الاستعارة المكنية في الجملة السابق، عن قوّة الطاعون وسعة انتشاره، فالجيش الذي يهاجم بلاداً بأكملها، هو جيشٌ ذو سطوةٍ وقوّة شديدتين.

ووظّف الأدباء الاستعارة التصريحيّة كذلك، ومن ذلك قول ابن قزل:

طفى النارَ نورٌ من ضريحكَ ساطعٌ فعادت سلاماً لا تضرُّ بمصطلي [4]

إذ صوّر الشاعر منزلة الرسول الكريم وأثرها في الناس بالنور، فصرّح بالمشبه به، لأنّه يدل على السلام والطمأنينة والحق الذي جاء به رسولنا الكريم، وهو ما أطفأ النار.

---

[1] الجرجاني: **دلائل الإعجاز**. ص 335

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**،ج1.ص 163

[3] ابن الوردي، **الديوان**. ص87

[4] ابن قزل، **الديوان**. ص338

واستخدم الأدباء الكناية أيضا، وكانت في العادة تستخدم للدلالة على شدّة تأثير الكارثة.

ومن ذلك، أنّ نار المدينة المنوّرة، كانت شديدة لدرجة أنّ الناس لَم يعودوا يرَوا النجوم في السماء. فيقول:

وَغابَتْ نُجــومُ الجَــوِّ قَبْــلَ غُروبِهــا وكَـــدّرَها دَوْرُ الـــدُّخانِ المُسَلسِـــلِ[1]

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما كتبه الصفدي عن الثلوج، إنّها: "زادت عرض الأرض طولا"[2]، وذلك كنايةً عن كميّة الثلوج الكبيرة التي هطلت ذلك الشتاء.

وفي الرسالة نفسها، يكنّي الصفدي عن شدّة كثافة الثلوج، التي حجبت الرؤيا الواضـــحة عن الناس، فيقول: " جعلتْ صحيحات النواظر حولا ".[3]

وكنّى ابن الوردي عن شدّة الموت، في أثناء انتشار طاعون 749 ه في مصر، فيقــول: "سكّن حركة الاسكندرية "[4].

فالاسكندرية فرغت من أهلها أو كادت، فلم يعد هناك أحد يمشي في طرقاتها، من شـــدّة الموت الذي فتَك بأهلها.

وتنوّعت المصادر التي استقى منها الأدباء صُورهم الفنيّة، ومن أهمّ هــذه المصـــادر، الطبيعة بشقّيها الصامت والمتحرّك، فقد برزت في هذا الأدب بشكل لافت، كمصدر رئيس فـــي تشكيل الصورة الفنّية، فالطبيعةُ الشديدة القويّة هي التي ولّدت في ذهن الأديب الصـــوّر الفنيّـــة لعكسِ أثرها، وهي بقوّتها وجبروتها قادرةٌ على تصوير مشاهدها، من خلال التمازج الفنيّ بين مكوّناتها،

---

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص337

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 161

[3] المصدر السابق.ج1.ص161

[4] ابن الوردي، **الديوان**. ص87

وقد وردَ في أثناء الحديث عن التشبيه والاستعارة، صُور متعدّدة للطبيعة الصامتة، مثل البرق والرّعد والنور، ومن الأمثلة على الطبيعة الصامتة أيضاً، تصوير الشمس بالليل،

يقول ابن قزل في أثَر دخان بركان المدينة:

وأصبَحَ وجهُ الشَّــمسِ كالليــلِ كاســفاً   وبدرُ الدُّجى في ظُلمــةٍ لــيسَ تنجلــي[1]

فالشمس المشرقة التي تعدّ مصدر الضوء في هذا الكون، قد أصبحَت مظلماً، وكــذالك البدر المنير.

وها هو ابن الوردي يُعبِّرَ من خلال الطبيعة الصامتة، عن قوّة طاعون عام 749ه، بالربط بينه وبينَ الطوفان العظيم، الذي لا رادّ له:

ألا إنّ هـــذا الوبـــا قَـــدْ سَـــبَا   وَقَـــدْ كـــانَ يُرْسِـــلُ طوفانَـــهُ[2]

واستخدم الأدباء العديد من الصور، التي استعانوا فيها بالطبيعة المتحرّكة، ومــن ذلــك تصوير الطاعون بالثعبان، يقول الصفدي: "وهذا الذي جَلَبَ لأهلِ حَلَبَ الانزعــاج، استرســلَ ثعبانُه وانساب"[3]

فالثعبان يعدُّ من الزواحف الخطيرة و السامة، والذي يحترس منه الناس، ويتوجّسون من سماعهم باقترابه.

ويُلاحَظُ استخدامُ ابن الوردي للفعل (استرسلَ)، ما يُبرز حرّيّة الحركة (الانتشار) لهــذا المرَض، كما هو الثعبان.

ومن مظاهر الطبيعة المتحرّكة، قَول الصفدي في رسالته له في وصف الثلج والبَرَد:

"وأقبلَت السُّحُبُ بخيوطِ أنوائها وتقطّعت الأسباب "[4]

---

[1] ابن قزل، **الديوان**. ص337

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص94

[3] المصدر السابق. ص 94

[4] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1.ص 159

في هذه العبارة يربط الكاتب بين السحُب وهي تقتربُ من المدينة لتُحكمَ عليها بَردهـــا، والعنكبوت التي تُقبلُ على الفريسة لتنسجَ حولها خيوطها

وتبرز (الجِمال) كصورة عند ابن الوردي، بما فيها من عظمةٍ، وما تتصف به من سيرٍ في قوافل، لتعبّر عن كثرةِ السّحب في دمشق في أثناء سيلها، فيقول:

إبِــلُ السَّــحابِ هِــيَّجٌ فــي جَوِّهــا وَغَمامُهــا كَــالقَوْسِ طــارَ نَديفُــهُ [1]

ويصوّر ابن الوردي في البيت السابق، غمام ذلك الشتاء بما يرسله مِن ثلــوجٍ شــديدة، بالقوس، وهو أحَد المعدّات الحربية، الذي يتميّز بقوّته وسرعته في الوصول إلى هدفه، وهو مِن خصائص التصوير التي استخدمها الأدباء لإبراز صورهم، فاستخدموا متعلّقات الحــروب مــن جيوشٍ ومعدّات وأسلحة.

ومن ذلك تصوير ابن فضل العمري ما يفعله الرعدُ القويّ من أثر من المُزن لزيادة قوّة انسكابها بالنُّبل، وتصوير تلقّي الأرض لهذه الضربات بالدِّرع، يقول:

يَرْمي رَواشِــقَ نَبْــلٍ صَــوْبَ ســاكِبَةٍ فَتَتَّقيـــهِ دُروعُ الــــرَّوْضِ بِــــالزَّرَدِ[2]

ومثله يقول الصفدي مصوّرا الانهمار الشديد للثلوج بالنَّبل:

فَكَمْ رَمــى نَبْــلَ وَبَــلٍ بــاتَ يَرْشُــقُنا وَلَــيْسَ تَمْنَعُــهُ مَوصــونَةُ الــزَّرَدِ[3]

ويصوّر ابن فضل الثلوج بالجيش لقوّته وكثرته وجبروته بالناس، يقول:

"وكيفَ هو مع جيشه الذي ما أطلَّ حتّى مَدَّ مضارب غمامه "[4]

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص 184

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 164

[3] المصدر السابق.ج1.ص 169

[4] المصدر السابق.ج1.ص 148

ويكثر الأدباء من استخدام متعلّقات الحرب، فبهاء الدين السبكي، يصوّر كثرة الموت في طاعون 749ه بأنّه جيشٌ عظيم، فيقول فيه: " وقدمَ بعساكر اليتامى "[1]، وهي كناية عن هذه كثرة مَن ماتوا من الناس، الذين خلّفوا أولاداً يتامى لا معيل لهم.

ويصوّر ابن الوردي الطاعونَ نفسهُ بالمحارب الذي يشهر سيفهُ للقتال، فيقول: " سَلَّ هنديّاً في الهند "[2]، و يصوّر هجومهَ على بلدٍ آخر فيقول: " ثمّ غزا غزّة "[3].

ويصوّر بعض الأدباء ما تفعلُه الكوارث الطبيعيّة، بمعدّات الأَسرِ في الحروب، فالأسرى يُجرّون بحبال وأدواتٍ تقودهم إلى حتفهم عندَ عدّوهم، يقول في أعراض الطاعون فيما تفعله بالإنسان الذي وقعَ تحتَ سطوةَ المرض:

"فتجّره إلى مصرعه بمقاود وأرسان"[4]

تبدو مصادر الصورة الفنيّة لدى أدباء الكوارث الطبيعيّة، تقليديّة في العادة، كاستعانتهم بمظاهر الطبيعة الصامتة و المتحركة المعروفة و المستخدمة لدى الأدباء، وكذلك تصوير شدّة الكارثة بالمعدّات الحربيّة.

واستعان الأدباء أيضا بموروثهم الأدبيّ والدينيّ والعلميّ، [5] ومن الأمثلة على ذلك، ما أورده أبو شامة المقدسيّ من رسائل في نار المدينة المنوّرة، فيقول في أثرِ البركان على الناس، ولجوئهم إلى المسجد النويّ: " وأتى الناس إلى المسجد من كلّ فجّ "[6]، ويظهر متأثّرا بقوله تعالى: ﴿**وأذّنْ في النّاسِ بالحَجّ يأتوكَ رجالاً وعلى كلِّ ضامرٍ يأتينَ مِن كلِّ فجٍّ عميق**﴾ [7]

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص109

[2] ابن الوردي، **الديوان**. ص86

[3] المصدر السابق. ص87

[4] الصفدي، **ألحان السواجع**.ج1.ص 114

[5] انظر المكتوب في التناص

[6] أبو شامة ، **الذيل على الروضتين**.ص 192

[7] سورة الحج. آية(27)

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، توظيف الصفدي لعلم النحو في كتاباته، ففي إحدى رسائله، التي يصف فيها شدّة البرد، يقول:

" ولا ينبعثُ لعملٍ كأنّ " إنّ "، وقد دخلت عليها ما الكافّة " [1]، فالناس يتوقّفون عن الحركة والعمل من شدّة برد ذلك الشتاء، كما تتوقّف كأنّ عن عملها، عندما تدخل عليها (ما).

ومن خصائص الصورة في أدب الكوارث الطبيعيّة، اتّسامها بالواقعيّة، ومِن ذلك، خوفِ الناس من أثر الكوارث، وخروجهم من مساكنهم،[2] وتهدّم مبانيهم وتضرّر زراعتهم،[3] ولجوئهم إلى الله عزّ وجلّ للشكوى، والتشفّع بنبيّه الكريم ومَدحِ خصاله، كونها ردّة فعلٍ طبيعيّة وواقعيّة لما حلّ بهم كوارث.[4]

ومِن خصائص الصورة أيضا الحركة، إذ إنّ كثيراً من النصوص الأدبيّة، عبّرت عن حدوث حركةٍ عنيفةٍ، ساهمت في تصوير الكارثة، لا سيّما في أثناء الزلازل والبراكين.[5]

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، قولُ ابن عبد الظاهر في زلزلة 702ه:

"وَرَقَصت الحيطانُ على تصفيقُ السقوف " [6]

فيختارُ الأديب هنا، أن يصوّر العمائر بصورةِ الإنسان الذي يرقص، بما يحمل هذا الفعل من دلالات حركيّة متنوّعة الشدّة والاتجاه، والسبب هو (تصفيق) السقوف، وهو يدلُّ على الحركة العنيفة التي أحدثتها الزلزلة.

ومما ورد أيضا، قول ابن الوردي في ثلج دمشق وسيلها:

---

[1] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1.ص 163

[2] انظر الآثار النفسية للكوارث الطبيعيّة في الفصل الثاني 47

[3] انظر الآثار الاقتصادية للكوارث الطبيعية في الفصل الثاني 61- 54

[4] انظر في النتائج الإيجابيّة للكوارث الطبيعية في الفصل الثاني ص 85

[5] انظر في عنف الكارثة وشدّتها ص 43

[6] السيوطي، **كشف الصلصلة**. ص 53

قدْ ثُجَّــتْ المــاءُ ثجّــاً فهــو مُنســكِبُ ورُجّت الأرضُ رَجّاً فَهِــيَ تَضْــطرِبُ [1]

يلاحظ من البيت السابق، استخدام الشاعر لألفاظ تدلُّ على قوّة الحركة والاضــطراب، الذي أحدثه السيل الذي غمرَ نواحي من المدينة.

ويستعين الأدباء بخصيصة اللون، للتعبير عن صُورِهم و إبرازها، ومن ذلك قول ابــن الوردي في سيل دمشق:

مِــنْ سَــعْدِ جُلُّــقَ أَنَّ النائِبــاتِ بِهــا بيضٌ وَفي غَيْرِها ما ابْيَضَّــتْ النُــوبُ

لا لِحُمْــــرَةِ سَـــيْلٍ فـــي طَـــرابُلسَ هذا البَيــاضُ وَهــذا المَنْظَــرُ العَجَــبُ

زُرْقُ الأَعــــادي وَبَـــيضُ السُّـــحُبِ عَلى دِمَشْقَ فَــلا كــانوا وَلا السُّــحُبُ [2]

يستخدمُ ابن الوردي اللون الأبيض، لتصوير الكارثة التي حلّت بدمشق، فَعلــى الــرغم شدّتها إلّا أنها كانت أخفّ وطأةً من غيرها، إذ إنّ الثلجَ ورغم آثاره السلبيّة، إلّا أنه لَم يَكُن مثــلَ سيلِ مدينة طرابلس، الذي استعان الشاعر باللون الأحمر، كيّ يصوّر الأثر الــذي خلّــف هــذا السيل، الذي جَرَف التربة معه، فأصبحتْ حمراءَ ما زادَ ذلك في الأثر السلبيّ للســيل، وربّمــا قصَد الشاعر به أنّه حصَد الضحايا في طريقه، ووظّف ابن الوردي اللون الأزرقَ بصورة ذكيّة، إذ إنّ السماء وهي موطن المطر / الخير، ذات اللون الأزرق المعهود، أخذت صــورَةَ العــدوّ للإنسان، وقَرَنها بهذا اللون، الذي تحوّل إلى رمز للّؤم، فلم تعُد السماء طيّبةً خيّرة كالمعهود.

وفي البيت التالي لما سبق ، يوظّف ابن الوردي صورة سمعيّة في لوحتــه، فــالرعود مزمجرة، وفي ذلك إشارة منه إلى شدّتها. بقول:

ناهيكَ مِــن ديَــمٍ فــي طيّهــا زغــبٌ و زمجــراتِ رعــودٍ ضــمّها رَهَــبُ [3]

والرعودِ التي صوّرها الشاعر بالأسود المزمجرة، ما أضفى عنصراً آخر على اللوحــة جعلتها ناطقةً بالصوت، أحدثت انهماراً و انسكاباً للماء شديداً للماء، فاهتزّت الأرضُ بقوّة وكأنّ زلزلةً حلّت بها من وقْعِ هذا السيل.

[1] ابن الوردي، **الديوان.** ص 182 . انظر أيضا ص 160

[2] المصدر السابق . 182

[3] ابن الوردي، **الديوان.** ص182

في هذا الأبيات، يصنع ابن الوردي لوحةً متضامّة، صــوّر فيهــا الظــاهرة الطبيعيّــة بالحيوان المفترس، وما في هذا التصوير من إشاراتٍ تدلُّ على الحركة، وعبّــر عــن شــدّتها باستخدام الألوان ذات الدلالات المتعددة، واستعانَ بالصورة السمعيّة، وما تحملــه مــن دلالات نفسية تبعثُ على الخوف في نَفس المتلقّي.

وفي موضعٍ آخر من الرسالةِ أيضا، يقول: " كم زمجرت الرعودُ على الناس.. وقعقعت عليهم لجّ صواهلها "[1]

يستخدم الشاعر هنا (الزمجرة)، إضافة إلى (القعقعة) التي تطلقها هذه الظاهرة الطبيعيّة العظيمة، وكأنّ السيلَ ساحةُ معركةٍ حامية الوطيس.

وكانت الرعود في فصول الشتاء القويّة، التي تُحدثُ سيولاً ذات تــأثير ســلبيّ، أكثــر الظواهر التي نالت اهتمام الأدباء بتصويرها سمعيّا، ففي الصفدي في رسالة لابن فضل يقول: " وإن كانت الرعود تحاكي جوانح أعدائه، فيا طول ما تشهق وتفهق " [2]

فالشهق والفَهق، يقدّم صورةً سمعيّة للمتلقي، وكأنّ الرعود تتــنفّس بصــوتٍ مســموع وسريع، يبعثُ على القلق.

واستعان بعض الأدباء بصور بصرية، مثل تصويرهم أعراض المَرَض وأشكاله [3]، أو صور شميّة، كتصوير الأدباء انتقال الطاعون عبر الهواء الفاسد، وكأنّه يشــمّ المدينــة التــي يَدخلها[4]، لكنّ الصورة السمعيّة كانت أكثر الصور التي برزت في لوحات الأدباء الفنيّــة، لمــا تعكسه من أجواء نفسية سيّئة، و آثار تدمير واسعة.

---

[1] ابن الوردي، **الديوان**. ص 185

[2] الصفدي، **ألحان السواجع**. ج1. ص152

[3] انظر: ص 67

[4] انظر: انتشار الأمراض ص 40

الخاتمة

في نهاية دراستي لأدب الكوارث الطبيعيّة في العصر المملــوكيّ الأول 648 – 784ه، يظهرُ أنّ الأدب شعراً ونثراً، قد واكب جميع الكوارث التي حلّت في ذلك العصر، فقالَ الشعراء وكتب الأدباء، ولَم يَهتموا بكارثةً دونَ أخرى، بل كتبوا في معظم الكوارث الطبيعيّة التي عانوا فيها من قسوةِ الطبيعة ، وأهمّ نتائج الدراسة هي:

- كشفت الدراسة عن تنوّع الكوارث الطبيعيّة، فمنها:السيول، والثلوج، والزلازل، والبــراكين، والطواعين، وغيرها، و عن أثر الكوارث الطبيعيّة العظيم فــي نــواحي الحيــاة المختلفــة، الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والأدبيّة، فقد أثّرت في نفوس النــاس، وجعلــتهم يهجرون موطنهم، فتشرّدوا في البلاد، وعانوا من ارتفاع الأسعار، وانتشار الفقر، ومات عدَدٌ كبيرٌ من الناس في مناطق واسعة ومختلفة، من العامّة، والساسةِ، والعلمــاء، الأدبــاء، لكــنّ الكوارث الطبيعية في الوقت نفسه، أثّرت في الحياة مــن ناحيــةٍ إيجابيّــة، جعلــتْ بعــض السلوكيّات السلبيّة لدى العامّة والساسةِ تتغيّر نحو الأفضل، فلجؤوا إلى الله تعالى في شَكواهم، وأقلعوا عن ارتكاب المظالمِ و المحرّمات، وأثّرت هذه الكوارث في نفوس كثيرٍ من الأدبــاء، جعلتهم يسجّلون أدباً في هذه الوقائع.

- تنوّعت الموضوعات التي طرَقها أدب الكوارث الطبيعيّة، والفنون التي قيلــت فيــه، فقــالوا الشعر، وكتبوا الرسائل، والخُطب، و المقامات، وانتشرت القصص التي عبّــرت عــن هــذه الكوارث، وعكستْ هذه النصوص صورَةً عامّة للكارثة، تمثّلتْ في تفسير الكارثــة، وبيــان مناطق انتشارها، و تصوير عنفها وشدّتها، وتبيانِ نتائجها، فبعض الأدباء عزا أسباب الكارثة إلى عوامل طبيعيّة، وبعضهم عزاها إلى بعدِ الناس عن الله سبحانه وتعالى، فكانت عقاباً منه على أفعالهم، وبعضهم رأى في كارثةٍ، أنّها نبوءة من الرسول الكريم، وكارثة أخــرى إلــى أسباب غيبيّة تتعلّق بالجنّ، وتحدث الأدباء عن انتشار الكوارث الطبيعيّة، فبينوا أن بعضــها كانَ في مناطقَ محدّدة، وبعضها كانَ عامّاً طامّا، شمل مناطق شاسعة، وغير قارة من قارات العالم، وعكسَ بعض الأدباء صورةَ الكارثة العنيفة، التي كانت كالسيل الهــادر، والحيــوان

المفترس، فكانت قويّة جبّارة لا ترحم، وقد كانَ للكوارث نتائج سلبيّة، منها ما كـــانَ نفســيّا، تمثّلَ في انتشار القلق والخوف، وهَرَبِ الناس مِن مناطق سُــكناهم، وشــعورهم بـــالحزن و التشاؤم من الحياة، ومنها ما كان معنويّا، تمثّل في تهدّم البنايات العامّة، والعمـــائر الثقافيّـــة، وإفساد الأراضي الزراعيّة، فقلّ الإنتاج، وزادت الأسعار، وعمّ الغلاء، وانتشرَت الأمـــراض بينَ الناس، وكانَ هناك نتائج إيجابيّة، تمثّلت في العودةِ إلى الطريق القويم، فتوجّهوا إلـــى الله سبحانه وتعالى، تاركين ما نهى عنه، وتوجّهوا إلى رسوله، يتوسلون به كي يرفع الله عـــنهم العذاب.

- تعدّدت الخصائص الفنيّة التي اتّسَم بها أدب الكوارث الطبيعيّة، فأظهرت بِنية النصّ الأدبـــيّ، اختيار الأدباء مطالعَ تناسب موضوع الكارثة، وبعض الأدباء صدّروا نصوصـــهم بمقـــدّمات تلائم النصّ، كمقدّمات المديح النبويّ، وختموا نصوصهم بما يتوافق مع المطلع و المضمون. ووظّف الأدباء اللغة التي اعتمدت على القوّة والجزالة حيناً، وعلى السهولة والسلاسة حينـــاً آخر، ووظّفوا في بعض نصوصهم اللغة الشعبية الدارجة، واستخدموا أساليب متنوّعة، مثـــل التناص الدينيّ والأدبيّ ومصطلحات العلوم، والتكرار، والأســـلوب الحـــواري، والأســـاليب الإنشائية المختلفة. ووظّف الأدباء الصنعة البديعيّة بكثرة، حتّى برزت في بعض النصـــوص بشكل مبالغٍ فيه، كالسجعِ و الجناس، ما يعكس اهتمام بعض الأدباء بالتنميق اللغويّ، الذي لا يتناغم مع إحساسهم بالكارثة، وصوّرت النصوص الكوارث، معتمدةً على التشبيه والاستعارة والكناية، و اعتمدت على مصادر مختلفة للصورة، من أهمّها الطبيعة الســـاكنة والمتحركـــة، وأدوات الحرب، وضمّنت خصائص مختلفة للصورة الفنية، كالواقعيّة، واللون، والحركـــة، و قامت بعض النصوص على لوحةٍ متضامّة، برزت فيها الصورة الصوتيّة والحركية، بشـــكل لافت.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

القرآن الكريم

ابن الأثير الجزري، ضياء الدين نصر الله أبو الكرم: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**. ج1. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1998

الإشبيلي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي: **إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس**، حقّه وقدّم له محمد رضوان الدّاية، ط2، بيروت:عالم الكتب. 1985.

امرؤ القيس، **ديوان امرئ القيس**. اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان،2000م.

الأندلسي، ابن هانئ: **ديوان ابن هانئ**. اعتنى به وحقّقه حَمْدو أحمد طمّاس، ط1. لبنان: دار المعرفة، 2005.

ابن إياس، محمد بن محمد الحنفي: **بدائع الزهور في وقائع الدهور**. تحقيق ومقدمة: محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب.1982

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: **رحلة ابن بطوطة**. بيروت: دار التراث. 1968

البخاري، محمد بن إسماعيل: **صحيح البخاري**. ج7. بيروت: دار إحياء التراث.. 1405ه

البغدادي، أبو الندى معد بن نصر الله بن رجب (المعروف بابن الصيقل الجزري) ت (701ه): **المقامات الزينية**. دراسة وتحقيق عباس مصطفى الصالحي.دار المسيرة. 1980

البوصيري، محمد بن سعيد الصنهاجي: **ديوان البوصيري**.ط1. بيروت: دار المعرفة.2007.

بيبرس المنصوري، ركن الدين الخطائي: **مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ.** حقق وقدم له ووضع فهارسه: عبد الحميد صالح حمدان. ط1. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. 1993م.

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق دونالد س. ريتشارد. بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع. 1998م.

تاج الدين عبد الوهاب السبكي. **معيد النعم ومبيد النقم.** ط1. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. 1986

ابن تغري بردي، جمال الدين أو المحاسن يوسف الأتابكي: **النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة.** ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.

الثعالبي، أبو المنصور عبد الملك بن إسماعيل: **من غاب عنه المطر.** تحقيق يونس أحمد السامرائي. ط1. بيروت: عالم الكتب. 1994.

الجرجاني، عبد القاهر: **دلائل الإعجاز.** التصميم: محمد عبده و محمد محمود الشنقيطي، التصحيح والتعليق:علي الحواس و السيد محمد رشيد رضا. د.ط. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. 1978.

ابن الجزري، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الدمشقي: **تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري،** ج 2. تحقيق عمر بن عبد السلام التدمري. بيروت: المكتبة العصرية. 1998.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد: **الدرر الكامنة.** القاهرة: دار الكتب الحديث. د.س

الحلّي، صفي الدين: **الديوان.** د.ط. بيروت : دار صادر. 1990.

الحموي، ابن حجة : **بلوغ الأمل في فن الزجل.** تحقيق رضا محسن القريشـــي. د.ط. دمشـــق: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي. 1974.

خزانة الأدب وغاية الأرب. شرحه: عصام شعيتو، الطبعة الأخيـــرة. بيـــروت: دار ومكتبة الهلال.2004

الحموي، ياقوت: **معجم البلدان،** تحقيق فريد عبد العزيز الجنـــدي. ط1. بيـــروت: دار الكتـــب العلمية. 1990.

ابن حنبل، أحمد بن محمد: **مسند الإمام أحمد بن حنبل.** د.ط.بيروت: دار الفكر. د.س.

الحنبلي، أبو الفلاح بن عبد الحي ابن عماد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب.** ط2. بيـــروت: دار المسيرة العلمية. 1970

ابن دانيال، شمس الدين محمد بن دانيال الموصلي الكحال: **المختار من شعر ابن دانيال.** اختيار الإمام صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، حققه وعلّق عليه واســـتدرك أحمـــد نـــايف الديلمي، د.ط، الموصل: مكتبة بسام. 1979م.

ابن دقماق، **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام،** دراسة وتحليل الدكتور سمير طبّارة، بيروت: المكتبة العصريّة. 1999

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدمر العلائي:**النفحـــة المســـكية فـــي الدولـــة التركية**.ط1.بيروت:المكتبة العصرية للطباعة والنشر. 1999

الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أيبك: **كنز الدرر وجامع الغرر**.الجزء الثامن، الدرة الزكية في أخبار الدولة التركية. تحقيق هاني روبرت رويمر. القـــاهرة: مطبعـــة لجنـــة التـــأليف والترجمة. 1391هـــ.

كنز الدرر وحامع الغرر. الجزء التاسع، الدرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر. تحقيــق هاني روبرت رويمر. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1391هــ.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي: **تاريخ الإسلام ووفيــات المشاهير والأعلام.** تحقيق عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب اللبناني.1998

دول الإسلام. ط2. حيدر أباد: مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. 1365هــ.

العبر في أخبار من عبر.ط1. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1997.

ابن رشيق القيرواني، أبي علي الحسن:**العمدة في محاسن الشعر وآدابــه.** بيروت: دار الكتــب العلمية. 2001.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين: **طبقات الشافعية الكبرى.** بيروت: دار المعرفة.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت902هــ: **وجيز الكلام في الــذيل علــى دول الإسلام.** تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، أحمــد الخطيمــي. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1995.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: **تاريخ الخلفاء.** ط3. بيروت: دار الجيل.1993

حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. بيروت : دار الكتب العلمية . 1997

كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. تحقيق عبد اللطيف السعداني. الربــاط : وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل . 1971

أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو القاسم الدمشقي: **تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على الروضتين.** ترجمة.محمد زاهد بن الحسن الكوثري. مراجعة عزت العطــار الحســيني ط2.بيروت: دار الجيل.1974

شهاب الدين محمود، أبو الثناء بن سلمان الحلبي الحنفي : **حسن التوسّل إلى صناعة الترسل**. تحقيق أكرم عثمان يوسف .بغداد: دار الحرية 1980.

الصرصري،جمال الدين يحيى بن يوسف :**الديوان**. تحقيق مخيمر صالح.إربد: جامعة اليرموك عمادة البحث العلمي والدراسات العليا.**د.س.**

الصعيدي، عبد المتعال: **بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة**. د.ط. القاهرة: مكتبة الآداب. 1999.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك: **أعيان العصر وأعوان النصر**. تحقيق علي أبو زيد ونبيل أبو عمشة و محمد موعد و محمود سالم محمد. بيروت: دار الفكر المعاصر.

ألحان السواجع بين البادئ والمُراجع. تحقيق محمد عايش . ط1. بيروت :دار الكتب العلمية.2007

تحفة ذوي الألباب فيمن حكَم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب. تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام. ط1.دمشق: منشورات وزارة الثقافة.1992.

الوافي بالوفيات.ج1. تحقيق هلموت ريتر. لبنان: دار الفكر. 1991م.

الوافي بالوفيات.ج4، ج6 تحقيق س.ديدرينغ. لبنان: دار الفكر. 1991م.

الوافي بالوفيات.ج7. تحقيق إحسان عباس. لبنان: دار الفكر. 1991م.

الوافي بالوفيات.ج8. تحقيق محمد يوسف نجم. لنان: دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج10. باعتناء جاكلين سوبلة وعلي عمارة. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج12. تحقيق رمضان عبد التواب. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج 15.تحقيق بيرند راتكة. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات . ج17 . تحقيق دوتيا كرافوسكي .دار الفكر . 1991

الوافي بالوفيات. ج 18.تحقيق أيمن فؤاد سيّد. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج 22. تحقيق رمزي بعلبكي. دار الفكر. 1991م

الطائي، حبيب بن أوس: **ديوان أبي تمام**، تحقيق محمد عزام، القاهرة: دار المعارف. 1994

ابن طباطبا،محمد أحمد :**عيار الشعر**. بيروت : دار الكتب العلمية . 1982.

عبد السلام هارون : المعجم الوسيط . أخرجه جماعة . مطبعة مصر. 1380هـ.

العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر: **بذل الماعون في فضل الطاعون**. ط1. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة.1411 هـ.

العيني، بدر الدين محمود: **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**. ج8. حققه ووضع حواشيه محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1987.

الفاخري، بدر الدين بكتاش: **تاريخ الفاخري**. تحقيق عمر بن السلام تدمري.ط1. بيروت: المكتبة العصرية.2010.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن أيوب: **المختصر في تاريخ البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء**، بيروت: دار المعرفة.د.س

ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبد الرحيم: **تاريخ ابن الفرات**. ج8. حققه قسطنطين زريق و نجلا عز الدين. بيروت: المكتبة الأمركانية. 1948.

ابن قزل، سيف الدين بن المشد: **الديوان**. تحقيق مشهور عبد الرحمن الحبازي . القدس : مركز التعاون والسلام الدولي . 2003

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي:**صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مصر: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي. 1963

الكتبي، ابن شاكر: **فوات الوفيات والذيل عليها**. تحقيق إحسان عباس. بيـروت: دار صـادر. 1973

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة المعـارف. 1977.

مؤلف مجهول: **عصر سلاطين المماليك**. بيروت: دار القلم. 1980.

المتنبي: **الديوان**، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصـطاوي، ط3، دار المعرفـة، بيـروت، 2008.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي:**إغاثة الأمّة بكشف الغمة**. دراسة وتحقيق كـرم حلمي فرحات. القاهرة: عين للدراسات. 2007.

السلوك لمعرفة دول الملوك. ج3، ق1. صححه ووضع حواشيه سعيد عبد الفتاح عاشـور. ط2. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة.1970.

السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة: مطبعة لجنـة التـأليف والترجمة.1970.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. تحقيق محمد زينهم و مديحة الشرقاوي. القاهرة: مكتبة مدبولي.1997.

ابن منظور ، **لسان العرب** . د.ط . القاهرة : دار الحديث . 2003

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري: **مجمع الأمثال**. حققه محمد محيي الدين عبـد الحميد. ط2.بيروت: دار المعرفة.1959

النويري، شهاب الدين بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**. تحقيق البـــاز العرينـــي. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1992.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل: **الصناعتين الكتابة والشعر**. حققه وضبط نصه مفيد قمحية. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1981.

الوأواء ،أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني : **الديوان** . تحقيق سامي الدهان . ط2 . بيـــروت : دار صادر . 1993 .

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى: **تاريخ ابـــن الـــوردي**. ط1. القـــاهرة: دار الكتـــب العلمية. 1996م.

الديوان. تحقيق أحمد فوزي الهيب. ط1. الكويت: دار القلم. 1986

اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى **نزهة الناظر في سيرة الملك الناصـــر**. تحقيـــق ودراســـة د.أحمد خطيط. ط1، بيروت:عالم الكتب. 1986.

المراجع

أنيس، إبراهيم: **موسيقى الشعر**. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.1978.

باشا، عمر موسى:**الأدب في بلاد الشام**. ط2. دمشق: المكتبة العباسية.1978.

بكار، يوسف حسين: **بناء القصيدة العربيّة**. د.ط، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر،، 1979.

سلام، محمد زغلول: **الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى (648-783هـ)**. القاهرة: دار المعارف. 1994.

السَماعيل، عبد الرحمن إسماعيل : **المعارضات الشعريّة دراسة تاريخية نقدية**. جـــدّة: النـــادي الأدبي الثقافي. ط1. 1994

صالح، مخيمر: **المدائح النبوية بين الصرصري والبوصري**، ط 1. بيروت: دار ومكتبة الهلال. 1986.

عبد الرحيم ، رائد مصطفى : **فن الرثاء في العصر المملوكي** . عمّان :دار الرازي .2003

عتيق، عبد العزيز: **علم المعاني**. د.ط، دار النهضة العربيّة. بيروت. 1985.

عصفور، جابر: **الصورة الفنيّة**. ط2. دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت. 1983.

قليقلة، عبده عبد العزيز: **النقد في العصر المملوكي**. ط1. القاهرة: مكتبة الأنجلو. 1972.

محمد،محمود سالم: **المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملــوكي**.د.ط. بيــروت: دار الفكــر المعاصر.،دمشق: دار الفكر.1996.

الميموني، حامد عباس الميموني: **الحياة الاقتصادية في مصر العليا خلال العصــر المملــوكي**. القاهرة: مكتبة الآداب.2005.

الهيب، أحمد فوزي: **الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء**. ط1. بيروت: مؤسســة الرسالة. 1986.

الرسائل الجامعية

أبو زيتون، منال أحمد إبراهيم: **المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي** (رســالة ماجستير غير منشورة). جامعة اليرموك. إربد. الأردن. 1998.

سبيناتي، هناء علي: **صورة المجتمع في العصر المملوكي**. (رسالة دكتوراة غيــر منشــورة). جامعة دمشق. 2006- 2007.

الدوريات

داغر، شربل: ***التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيره***، **مجلّة فصول**. القاهرة: الهيئــة المصريّة العامة للكتاب. مج12. 1997 / 140

عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: ***رسالة " النبا عن الوبــا " لــزين الــدين ابــن الــوردي ت (749هــ) دراسة نقدية*، مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية)**. ع5. م 24. 2009

المختار، حسني: ***نظرية التناص*، مجلة علامات في النقد** ج 3.مج9. 2000م / 243

المخطوطات

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت (911هــ). **رسالة في الأحاديث الــواردة فــي الطاعون وسببه** . مكتبة مصطفى الإلكترونية

An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies

Literature of natural disasters in the Mamluk period (648-784) Higreyah Technical study and objective

By
Isra Abdel Jabbar Thyab Kalash

Supervised by
Dr. Ra'ed Mustafa Abdel Raheem

This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for the degree of master of Arabic, Faculty of Graduate Studies An-Najah National University, Nablus ,Palestine.
2013

Literature of natural disasters in the Mamluk period (648-784) Higreyah Technical study and objective

By
Isra Abdel Jabbar Thyab Kalash
Supervised by
Dr. Ra'ed Mustafa Abdel Raheem

Abstract

This study addressed the issue of the natural disasters literature in the first Mamluk era (784 – 648 Hijri). Natural disasters have always been a cause of concern and confusion for those who have witnessed them over the course of the human history. In the first Mamluk era, a variety of natural disasters have occurred including: Snow, torrents, lightning and earthquakes, volcanoes and plagues all of which have had countless impacts on people's social, political, economic, cultural and literary life.

The great number of natural disasters that struck the Mamluk state in its first era, the diversity of literary arts around back at that time and the absence of a comprehensive, independent study were the main reasons for choosing this subject.

The study used the inductive, descriptive, analytical and aesthetic approach, and relied on history and its events in analyzing poetry and linking it with the events of the disaster and its results. This method helped comprehend some of the literary texts.

The study consisted of the following:

The first chapter: Included a discussion of the social, economic, political and cultural impacts of natural disasters, both from the positive and negative perspectives.

The second chapter: Addressed the objective study of the natural disasters **literature.**

The third chapter: Studied the artistic characteristics of the natural disasters literature in terms of the structure of the literary text, language, methods, al-badi', and the artistic image.

The conclusion: Included a summary of the main results of this study.